

روح الإستقلال

مذكرات مكافح

1942 - 1952

ترجمه عن الفرنسية سعيد جعفر

تاريخ

منشورات البرزخ

حسين آيت أحمد

روح الإستقلال

مذكرات مكافح 1942-1952

منشورات البرزخ

رقم الايداع : 1820-2002

ر.د.م.ك : 9-42-892-9961

حسين آيت أحمد

روح الاستقلال

مذكرات مكافح 1942 - 1952

وثيقة

ترجمه عن الفرنسية
سعيد جعفر

منشورات البرزخ



مدخـــــل

بقلم الاستاذ سعد جبار

التقيـــــــت الســـــــيد حســـــــين آيـــــت أحمـد "ســي الحسـين" لأول مـرة عـام 1994عنـدما حضـر إلـى جامعة لندن لإلقاء محاضرة حول الأزمة الجزائرية.

فإلى جانب كونه من الرجال التاريخيين، كنت على اطلاع كاف علـى شخصيته مـن خـلال تصريحاته ومواقفـه مـن النظـام الجزائـري، خاصة بعد عودته إلى البلاد مع ظهور بوادر الديمقراطية عقب أحداث أكتوبر 1988 . ثم بعد ذلك موقفه المميز من إيقاف المسار الانتخابي عام 1992. وهـــو مـــا جعلنـــي أرشـــحه إلـــى تقـــديم هـــذه المحاضرة والتي ألقاها بلغة إنكليزية رفيعة أمام قاعة مكتظة بالحاضرين من طلبة وأكاديميين وسياسيين وإعلاميين. وكانت هذه المناسبة بداية للقاءات واتصالات لم تنقطع إلى اليوم.

وأثناء لقاء لنا على هامش هذه المحاضرة اندهشت ، مع من كانوا معي ، من تواضع سي الحسين عندما رفض أن أصفه ب"الرجل التاريخي" أو "الزعيم" أو "البطل" ورده القاطع بأن الشعب الجزائري وحده هو الجدير بهذه الألقاب .

وعلى خلاف معظم السياسيين الذين إلتقيتهم، فاجأني سي الحسين بصدقه وأيضا تواضعه عندما يتكلم عن الأحداث الهامة التي كان طرفا فيها ، أو مساهماته في الحركة الوطنية منذ التحاقه بحزب الشعب الجزائري عام 1942 ولم يكن عمره قد تجاوز 16 سنة.

كما لاحظت عبارات الود والاحترام التـي كانت تطرز كلامه عندما يذكر رفاقه في النضال أو الشخصيات التي كانت تختلف معه في الرأي . فهو لا يخفي عطفه على مصالي الحاج ، ولا إعجابه بالقدرات السياسية التـي كـان يتمتـع بهـا فرحـات عبـاس . غيـر أن إعجابـه الكبيـر وتقـديره كـان موجهـا للمـواطنين العـاديين الـذين انضـموا إلـى الحركـة

الوطنيه ونعلموا في صفوفها الوعي الوطني وأبدعوا في تفانيهم وإخلاصهم ، ومنهم من تولى مناصب عليا في حزب الشعب مثل السيد أحمد بودا، الذي صار شعره الشعبي نشيدا يردده أبناء حزب الشعب وبقية المواطنين في الأعراس كما في المناسبات الوطنية ، خاصة بعد المذابح التي تعرض لها الجزائريون في الثامن مايو 1945 في كل من سطيف وقالمة وخراطة . هذا الشعر الذي ردده سي الحسين على مسامعي بعد استحضار نغماته والذي يقول فيه:

حب الجزائر واجب علي ... روحي ومالي للوطنية

شبان بلادي قوموا جميعا ... حياة الذل راهي شنيعة

ومثل : الأشبال طلعوا للجبال... طلعوا للجبال يا وطني ... ضد السيطرة والاستعمار.

كما سألت مرة سي الحسين عن أمر شغل بالي طويلا وهو كيف تمكنت الحركة من فرض وجودها على الساحة السياسية رغم قلة الإمكانيات الفكرية والمادية ووسائل الاتصال ورغم القيود التي كانت تفرضها السلطات الاستعمارية على الجزائريين والبطش الذي كانت تمارسه ضدهم ، فأجابني قائلا : "إن أبناء الحركة الوطنية كانوا في معظمهم من الجزائريين البسطاء الذين حولوا عضلاتهم إلى أمخاخ للتفكير في مواجهة المستعمر ، وذلك بفضل التأطير الذي وفرته الحركة لهم إضافة إلى التفاني والإخلاص الذي كان يعتمل في صدورهم من أجل كرامة وحرية شعبهم ووطنهم ".

ولعل هذه النقطة بالذات وغيرها من الأسئلة حول الماضي وتعطشي لمعرفة المزيد من المعلومات حول بعض القضايا المتعلقة بالحركة الوطنية هي ما جعلت سي الحسين يسألني عما إذا كنت قد اطلعت على كتاب مذكراته موضوع هذا التقديم . وعندما اعترفت له بجهلي بهذا الكتاب ، أرسل إلي نسخة منه والذي وجدت نفسي مشدودا إليه لغاية الانتهاء من قراءته .

وتأسفت آنذاك كثيرا كون هذا الكتاب لم يترجم إلى العربية لتمكين عدد كبير من الجزائريين والقراء في العربية بصفة عامة من الاطلاع عليه ، لأنه يساعد على فك ألغاز كثيرة ؛ كما يغطي ثغرات عديدة من تاريخنا غير المكتوب . ومما زاد شغفي بالكتاب والعودة إليه أكثر من مرة هو إشارة سي الحسين باستمرار في أحاديثه معي حول الأزمة الجزائرية الحالية إلى وجود أوجه شبه أو سوابق أو جذور لهذه الأزمة في تاريخ الحركة الوطنية وفترة الكفاح المسلح ، وفي بعض

الحالات في مرحلة ما بعد الاستقلال . وسيسهل الرجوع إليها فهمه واستخلاص العبر منها .

إن هذه المذكرات تختلف عن غيرها من المذكرات التي تأتي عادة بعد انتهاء الحياة السياسية للإنسان . إنها مذكرات من نوع خاص لأنها تركز على مرحلة من نضال سي الحسين "عشر سنوات" منذ انخراطه في حزب الشعب عام 1942 لغاية مغادرته الجزائر متوجها إلى القاهرة عام 1952 . لكنها تغطي فعلا مرحلة في غاية الأهمية ، مرحلة التغيرات الزلزالية على المستويين الوطني والدولي . ففي هذه المرحلة كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت وانتهت مما أسفر عن رسم خريطة جديدة للعالم ، كما ساهمت في تأجيج طموحات الشعوب المستعمرة ومطالبتها بحق تقرير مصيرها واسترجاع حريتها مما أدى إلى حصول بعضها على استقلال أوطانها.

ويرى سي الحسين في مذكراته هذه أن الوطنيين الجزائريين - وبسبب عدم تنظيمهم - لم يستغلوا الفراغ السياسي الذي أحدثه ضم فرنسا إلى ألمانيا وتوظيفه في الضغط على الحلفاء بعد نزولهم على الشواطئ الجزائرية للدفع باتجاه استقلال الجزائر أو التأسيس له .

وتبرز مذكرات حسين آيت أحمد محطات هامة في تاريخنا وبالتالي فهي وثيقة مرجعية بالنسبة لدارسي تاريخ تلك المرحلة . غير أن أهمية هذه الوثيقة تكمن في أن بعض أحداث تلك المرحلة وسلبياتها خلقت مفاهيم وأخطاء ما يزال الشعب الجزائري يدفع ثمنها إلى يومنا هذا .

إن إبراز هذه المفاهيم والأخطاء لا يجب أن ينظر إليها جيل الاستقلال وإلى مرتكبيها بعين الإدانة، لأن الإمكانيات الفكرية والمادية إضافة إلى الظروف الاستعمارية الصعبة وكذلك الإخلاص الذي كان يميز أبناء تلك المرحلة وحسن نواياهم تشكل جميعها مبررا مقبولا في معظم الحالات . لكن الطامة الكبرى في قيام المسؤولين الجزائريين منذ الاستقلال إلى يومنا هذا ، رغم توفرهم وامتلاكهم لإمكانيات الدولة، بتكرار وتبني نفس المفاهيم والأخطاء والسياسات التي انتهجتها أو ارتكبتها كل من الحركة الوطنية والسلطات الاستعمارية .

ويبين سي الحسين بوضوح أن استمرار السلطات الاستعمارية في قمعها للأحزاب السياسية الجزائرية وتزييفها المستمر للانتخابات هي التي أدت إلى بلوغ الوعي الثوري قمته عام 1949.

وذكر سي الحسين أكثر من مرة أن التزوير المستمر للانتخابات آنذاك أفقد العمل السياسي معناه وجعل المواطنين يطالبون حزب الشعب بتسليحهم وتأكيدهم على أنهم لن يعيروا التصويت والانتخابات اهتماما

في المستقبل . وفعلا كانت انتخابات عام 1948 بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، لأن الوطنيين الشباب -ومنهم سي الحسين- اقتنعوا بضرورة تخلي حزبهم عن العمل الشرعي والتحول إلى العمل الثوري وهو ما دفع الحزب إلى تشكيل "المنظمة الخاصة" للتحضير للكفاح المسلح ؛ والتي شارك في تأسيسها سي الحسين ثم ترأسها بعد المرحوم محمد بلوزداد. وشكلت المنظمة الخاصة النواة الأولى لجيش التحرير الوطني فيما بعد.

كما وقف سي الحسين مطولا في مذكراته عند محطة ما عرف ب/الأزمة البربرية/ أو /المؤامرة البربرية/ فبين زيفها والإجحاف الذي لحقه على أيدي رفاقه في الحزب . واعتبر ما حدث مجرد تفسير سطحي للأمور وقرارا استبداديا لا يمكن الوصول إليه لو نوقشت القضية بطريقة ديمقراطية . والواقع أن الفكر الديمقراطي لم يكن سائدا في الحركة الوطنية ، وأن الطريقة التي عالج بها حزب الشعب ما سمي ب/الأزمة البربرية/ زادت الموضوع تعقيدا وأدخلته حيز المبهم وألصقت بمناضل فذ شبهة البربرية التي أصبح خصومه السياسيون – خاصة رجال النظام- يستعملونها للتغطية على القضايا الأساسية وقدراته السياسية وخصاله الوطنية والديمقراطية .

وما أشبه اليوم بالأمس!

تؤكد لي مذكرات سي الحسين الانطباعات الأولية التي شكلتها حوله قبل اطلاعي على ما كتبه. فهو رجل يحسن فن التوازن بين الفكر والعمل والتنظيم، وينبذ القرارات الارتجالية ، فقد انتقد بشدة القرار الذي اتخذته قيادة حزب الشعب بإصدارها تعليمات إلى مسؤولي قيادة القبائل ببدء الكفاح المسلح ضد القوات الفرنسية عقب أحداث الثامن مايو 1945. وإلغائها هذا القرار قبل فترة قصيرة من ساعة تنفيذه ، مع ما أحدثه هذا القرار الارتجالي من أضرار بالروح المعنوية للمناضلين آنذاك .

إن عمق التفكير السياسي والتجارب التي مر بها سي الحسين في مختلف مراحل حياته، إضافة إلى حياة المنافي والسجون قد أكسبته صرامة وانضباطا كبيرا في اتخاذ القرارات السياسية الخطيرة . وإنني أعتبر رفضه لإيقاف المسار الانتخابي عام 1992 وتحذيره المسؤولين من خطر ذلك على الشعب والبلاد ، وإدانته لعمليات التزوير المستمر للانتخابات التي نظمت منذ ذلك ، ودعوته الدائمة للحوار والمصالحة الوطنية ، مواقف ليست اعتباطية ولا تهدف إلى تحقيق مصالح حزبية ضيقة بقدر ما هي محاولة لتفادي عملية إعادة التاريخ لنفسه، وحدوث

الانفجار الشعبي كذلك الذي وقع بعد غلق المجال السياسي والإعلامي في وجه القوى السياسية الممثلة للشعب في نهاية الأربعينيات، ولكن هذه المرة الكارثة أكبر، لأن المواجهة ستكون بين أبناء الشعب الواحد .

وبالتالي فلا غرابة إن لم يسقط سي الحسين وحزبه في فخ الحلول المؤقتة والوعود الزائفة التي قدمها المسؤولون حول //حماية الديمقراطية وإقرارها بعد القضاء على أعدائها الإسلاميين//. وهذا ماجعل سي الحسين وحزبه يكسبان مصداقية واحتراما في أوساط الذين كانوا يعارضونه على المستوى الشخصي والسياسي . وأثبتت الأحداث التي تشهدها الجزائر منذ 1992 بعد النظر لدى هذا الرجل الذي ما يزال ثابتا متشبثا بموقفه بالنسبة لالتزامه المطلق بالديمقراطية وعدم المساومة بشأنها، وهو الموقف ذاته الذي لازمه أثناء نضاله في الحركة الوطنية ومرحلة الكفاح المسلح وبعد حصول الجزائر على استقلالها .

ومرة أخرى طفت //الأزمة البربرية // أو القبائلية على السطح وأصبحت الأحداث في منطقة القبائل منذ ربيع عام2001 تحتل صدارة الأخبار، وأعطاها المسؤولون تفسيرات لا تختلف في جوهرها عن تلك التفسيرات السطحية التي اعتمدتها الحركة الوطنية عام 1949 وحكومات ما بعد الاستقلال. لكن سي الحسين تصدى لذلك بالتأكيد على أن الأزمة تكمن في غياب الديمقراطية ، وأن أبناء منطقة القبائل مثل بقية أبناء الوطن يعانون من الظلم والتهميش السياسي والاقتصادي . وأوضح بأن النظام يفتقر إلى الشرعية الشعبية التي تؤهله للتعامل مع مطالب أبناء القبائل أو غيرها من القضايا الوطنية التي تهم أبناء الشعب الجزائري . وأدرك سي الحسين بأن النظام نصب له ولحزبه فخا وبقي يتطلع بشكل سافر إلى سقوطهما فيه.

لكن سي الحسين الذي ترجم وعدل أغنية /ليلي مارلين/ التي كانت تغنى أثناء الحرب العالمية والتي غنتها الفنانة الألمانية /ماريلينا ديتريخ/ وعنونها // اتحاد .. اتحاد// وأصبحت نشيدا يتغنى به الوطنيون من أبناء القبائل بعيد كل البعد عن الجهوية والروح الانفصالية . بل وجه نداء إلى أنصاره ومحبيه وكل المواطنين عبر القناة الفضائية القطرية//الجزيرة // يدعوهم إلى المحافظة على وحدة الوطن والشعب التي تعتبر أمانة وعهدا قطع لأرواح أولئك الذين ضحوا بأنفسهم وجهدهم ومالهم من أجل الجزائر.

ولا ننسى أن الرجل قد أكد أكثر من مرة في تصريحاته //أن الجهوية ورقة محروقة //، وأن الذين يلعبون بها لم ولن ينفعوا في شيء

الجهات التي يزعمون تمثيلها . بل انهم يفعلون ذلك خدمة لأنفسهم فقط على حساب مصلحة الشعب والوطن .

وأمام المناورات الرامية إلى الزج بمنطقة القبائل في فوضى وأحداث دامية عن طريق خلط الأوراق للتمويه على المشاكل الحقيقية لكل أبناء البلد ، يبقى سي الحسين بفكره وتجربته الرجل الحديدي وصمام الأمان الذي سيحمي الوحدة الوطنية من خطر العابثين بها.

إن المرحلة التي تغطيها هذه المذكرات هامة وحاسمة في نضال الشعب الجزائري لأنها تمثل مرحلة إنضاج الفكر الثوري والتمهيد لثورة تحولت إلى أسطورة في العالم . لكن يجب أن لا ننسى أن تاريخ سي الحسين لم يتوقف بعد تلك العشرية ، بل أن الرجل لعب دورا أساسيا مع إخوانه في إشعال فتيل حرب التحرير عام 1954 ، ووضع خطة لحملة ديبلوماسية لدعم الثورة على المستوى المغاربي والعربي والإسلامي. وفي إطار هذه الحملة حضر مؤتمر باندونغ الشهير لإيصال صوت الثورة الجزائرية إلى الرأي العام العالمي وتثبيت أقدامها ، وشارك في خلق سابقة في القانون الدولي عندما تمكن الوفد الجزائري ، بمساعدة بعثات عربية وإسلامية ، من إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1956 ، وذلك في وجه مقاومة فرنسية كبيرة .

وذكر المناضل عبد الحميد مهري وهو من الشخصيات الوطنية التي يقدرها صاحب المذكرات كثيرا، في محاضرة له بالمعهد الملكي البريطاني للشؤون الدولية أن سي الحسين كان هو صاحب فكرة تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة بالمنفى . فكل هذه المراحل وغيرها تحتاج إلى توثيق من صاحبها ، أو من المقربين منه لأنها تمثل مرجعا فكريا وسياسيا ثمينا .

أما رجال السلطة الذين يحاولون النيل من سي الحسين بأنه الرجل الذي يقول "لا" دائما وبأنه " يحسن تضييع الفرص" ، فإنهم يقولون نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فيتجاهلونه ، لذلك يجب أن نقول الحقيقة كاملة:

أتوقع أن سي الحسين يمكن أن يقول "لا" للشرعية الثورية، "نعم" للشرعية الديمقراطية. "لا" للأحادية والشمولية ، "نعم" للتعددية والديمقراطية. "لا" للانفصال، "نعم" للوحدة . "لا" للجهوية ، "نعم" للوطنية ."لا" للإقليمية ، "نعم" للعالمية . "لا" للمواجهة، "نعم" للاختلاف . "لا" للرجل التاريخي ، "نعم" للرجل الذي يستمر في صنع تاريخ شعبه. "لا" للحلول الجزئية الزائفة، "نعم" للحلول الشاملة العادلة.

كم من الأبطال قادوا شعوبهم إلى الاستقلال، ولكن بطولاتهم تحولت إلى مبرر للاستبداد وقهر نفس الشعوب ، بطرق تجاوزت بشاعتها غطرسة المستعمر.

إن مذكرات سي الحسين تعكس حقا البعد الإنساني للرجل وإحساسه بآلام الآخرين ، وهذا ما لمسته فيه أيضا مقابل قسوة السياسيين الذين أعرفهم . كما أنه إنسان مثقف يتقن قراءة وكتابة ست لغات ولم يتوقف يوما عن التعلم ، وهو ما جعله يمتلك ثقافة عالمية واسعة في مجالات الأدب والسياسة والفنون والموسيقى الكلاسيكية وطبوع الموسيقى المختلفة . ولكنه متجذر أيضا في الثقافة الشعبية مما جعله يجمع بين الأصالة والحداثة وبين المحلي والعالمي بطريقة متوازنة للغاية . لذلك لا أتصور أن إنسانا بهذا الوزن يمكن اختزاله وحصره في منطقة جغرافية أو نعته تاريخيا بالانفصالية . وأعتقد جازما أن الذي ألصق به تهمة//الجهوية والانفصالية// أراد بذلك إقامة جدار زائف من التاريخ والجغرافيا للقضاء عليه أو تهميشه لأنه يملك إمكانيات عقلية وأخلاقية وتجارب تؤهله لزعامة تقوم على التسامح والتفاهم والتعايش والديمقراطية . وأما صرامته في مواجهة المواقف الخاطئة والسلوك الظالم ، مهما كان مصدره، فهو من خصال الرجل الجزائري الحر الذي نسجت تضحياته أسطورة في الكفاح من أجل التحرر في عصرنا الحديث.

وما يميز سي الحسين عن بقية أبناء جيله من الذين ساهموا في الثورة التحريرية أنه ما يزال ثابتا في نضاله من أجل بناء الديمقراطية وإقرار كرامة الإنسان الجزائري . وهذا ما جعل منه رجل كل المراحل .

ويراهن سي الحسين دائما على دور الشباب والعقلاء وكذلك المرأة في خلق الظروف الموضوعية للتغيير، التغيير من أجل الديمقراطية. غير أن التحدي الذي يواجه الشباب اليوم هو إنعاش روح التجنيد الذاتي التي تزود بها الشباب في الأربعينيات والخمسينيات لتحرير بلادهم . والمطلوب اليوم هو إحداث يقظة في صفوفهم للتنظيم من أجل النضال السلمي لصالح الديمقراطية.

أما سي الحسين ونضاله فأصبح يمثل عنوانا بارزا في قيادة العملية الديمقراطية ورمزا قويا وقدوة حسنة في نكران الذات والوفاء للنضال من أجل المثل العليا . وتعبيرا عن التجاوب معه من الضروري أن يبدأ المواطنون داخل منطقة القبائل وخارجها في هدم جدار التاريخ والجغرافيا الزائف من الطرفين وإسقاطه . وبسقوطه سيتحرر الجزائريون مثلما تحرر الألمان وتوحدوا بعد تدميرهم لجدار برلين.

وإذا كان التاريخ يكتبه "المنتصرون" فإن تاريخ سي الحسين سيكتبه في حينه المنتصرون لشعوبهم ، لأنه رجل جدير بوسام الصدق والمصداقية .

الاستاذ سعد جبار
مجامي مستشار بالمعهد الملكي البريطاني للشؤون الدولية ، ونائب مدير مركز دراسات شمال إفريقيا بجامعة كمبريدج .

لندن في 2002/9/17

الإهداء

أهدي هذا الجزء الأول إلى أمي وإلى النساء الجزائريات، حارسات الثقافة الشعبية، اللائى كان دورهن، المجهول إلى اليوم، أساسيا في استمرارية الشخصية الجزائرية واستمرار المقاومة، إلى المناضلات وإلى المناضلين الذين لم أتمكن من ذكر أسمائهم نظرا لحدود مسيرتي الذاتية ومحدودية هذا النوع من المؤلفات.

كما أوجه شكري إلى كل الأهل والرفاق والأصدقاء الذين شجعوني وساعدوني في تحديد ذكرياتي. كما أشيد بصفة خاصة بمود سيسونغ للعناية الخاصة والدقيقة التي أولتها لهذا الكتاب وهي تنقحه باحترام .

1

الطفولة ونشأة الوعي

ولدت في قرية بعيدة تنام على ذراعي واد في القبائل الكبرى، على ارتفاع ألف متر عن مستوى سطح البحر. جئت إلى الدنيا في يوم جمعة 20 أوت /آب 1926، ولكن عمري الرسمي أقل من ذلك بأربعة أيام، لأن أبي اضطر للانتظار حتى غاية يوم الثلاثاء، وهو يوم السوق الأسبوعية ويوم الحالة المدنية، للتصريح بولادتي لدى بلدية ميشلي (عين الحمام) المختلطة[1] التي تبعد عن قريتنا بحوالي اثني عشر كيلومترا.

يحز في نفسي أن أستحضر من هذا المكان طفولتي الأولى التي كانت ولا تزال مركز كوني. ربما يعود هذا إلي العمر الذي يمضي، كما هو راجع بالتأكيد إلي المنفى. فالابتعاد عن وطن المولد يجعله أكثر معزة وما يرافق ذلك من الذكريات المرتبطة به. لكن ما دمت أسرد هنا مذكراتي فالمنطق يفرض أن أتكلم عن الطفل الذي كنت: جبلي صغير من القبائل الكبرى.

عشت حياة قاسية كمعظم الأطفال في سني، بردت وجعت. وإذا كنت نجحت في اختبار البقاء وتمكنت من اجتياز قانون الانتقاء الطبيعي، فهو من باب الصدفة. كانت نسبة وفيات الأطفال شديدة الارتفاع عندنا و كان الحال نفسه في عائلتنا. فإذا كان الاستعمار قد غير في الوضعية الصحية فبطريقة نسبية[2] تماما. لقد أدت عمليات التلقيح الكبرى إلى تراجع في نسبة الوفيات لدى الأطفال، ولكن إذا نجا المرء من الموت بالجدري فهو معرض للموت من شح الغذاء ومن سوء التغذية، وكانت حمى المستنقعات لا تزال تحصد الأرواح. مرضت شخصيا بحمى المستنقعات وأنا في السادسة من عمري، ولازمني المرض طيلة سنوات دراستي الابتدائية. لقد جففت المستنقعات لتشجيع الاستيطان، ولكن لم يكن هناك من يهتم بالوسط المعيشي للأهالي.

---

[1] ـ البلدية المختلطة تقسيم إداري يجمع السكان واغلبهم من الأهالي تحت سلطة إداري فرنسي.
[2] ـ لم يكن هناك إلا طبيبا واحدا لكل بلدية ميشلي المختلطة التي كان يقطنها أكثر من مائة ألف نسمة.

ترعرعت في بيت كان وما يزال إلى اليوم مقصدا للزيارات بسبب جدي المرابط الشيخ محند الحسين[1] الذي وافته المنية في عام 1901.

كان جدي رجلا حكيما وشاعرا كبيرا. وكان الناس يذكرون بإعجاب قدرته الفائقة على ارتجال الشعر انطلاقا من حكم وعبر أخلاقية متداولة وحتى ترجمة لآيات قرآنية. وكان ينتمي إلى إحدى أكبر الزوايا المغاربية التي قاومت الاستعمار بصفة علنية أو متسترة، و هي الزاوية الرحمانية التي كان لمدة من الزمن أحد أقطابها الروحيين. لقد غصت حقا في هذا الجو الروحاني المليء بالأشعار الشعبية، في ذلك "الإسلام المتجذر في الأعماق"، المصقول بفترة تاريخية محددة؛ ملجأ الروح اليائسة والإنسان القلق من المستقبل، حصن مجتمع حاصره البؤس وأنواع عديدة من مظاهر الاعتداء والتقهقر التي شجعها أوعلى الأقل ساعدها الاستعمار. وعلى أية حال، فإذا كنا مستعمرين فذلك يعود إلى قابليتنا لذلك!

كان ذلك الإسلام وذلك التصوف الروحي يناشد فينا الأحسن، أي الوجدان الفردي، وما يرافق ذلك من الحث على روح المسؤولية والتضامن الاجتماعي، وفوق ذلك روح التواضع الذي نسميه باللغة القبائلية "أنوز". وهي عبارة تتردد كثيرا في الأخلاقيات وأيضا -إن صح التعبير- في جماليات السلوك الفردي والاجتماعي الذي كان يدعو جدي إليه؛ فالوعي الفردي والتضامن الاجتماعي والتواضع يمثلون بالنسبة إلي عوامل سابقة على الديمقراطية.

تكمن الثقافة البربرية في رأيي في ذلك البحث عن المطلق، عن المساواة والتقدم في المجالين الروحي والفكري. أعتقد أن التصوف -ككل المدارس الروحية التي عرفها المجال المغاربي على مر تاريخه الطويل (فلنذكر تعاليم ابن تومرت في القرن الحادي عشر التي ظهرت

---

[1]- يرفض الإسلام مبدئيا وساطة الصالحين غير أن الورع الشعبي أضفى تلك الصفة على المرابطين وهم أناس أتقياء كانوا غالبا قادة زوايا محترمين وهم على قيد الحياة ، ومبجلين بعد وفاتهم، حيث تصبح قبورهم والأماكن التي عاشوا فيها مقصد زيارات. تعود كلمة المرابطين إلى القرن الحادي عشر حيث قاد المحارب الديني البربري يوسف بن تاشفين "جيشه الشعبي" في حملة تطهير وتوحيد بلاد المغرب كافة في وجه الغزو الإسباني. وقد أكثر بن تاشفين في الصحراء وعلى منحدرات الأطلس من بناء المدارس الدينية المحصنة لتكوين المحاربين الدعاة. وسميت هذه المدارس بالمرابط (ومفرده رباط) ومن ثمة أخذ عهد المرابطين تسميته. أما المرابط فهو يعني لغويا "ساكن الرباط".

منها دولة الموحدين)- أكبر من أن يكون مجرد آليات دفاعية: إنه احتجاج ورفض تجفيف الحيوية الاجتماعية والروحية للمجموعة. بالطبع لا يغير التواضع في طبيعة علاقات الإنتاج في شيء، لكنه قيمة ديمقراطية لأنه مؤسس على احترام الغير ويحمي من نزعة التعالي والسيطرة. ليس عيبا أن نلجأ إلى المقدس لمكافحة النزعات الشريرة التي تدفع إلى أخذ مكان الغير، كل المكان. أن نحسن الإصغاء لبؤس وآلام الآخرين، فقط أن نحسن الإصغاء ، ذلك هو الذي يجعل من الحوار أمرا ممكنا. يكمن في هذا إرث ضارب في القدم يجب تطويره وصقله.

بدأ التعليم بالنسبة لهذا القروي الذي كنته في سن الرابعة بالمدرسة القرآنية حيث نتعلم قراءة وترتيل القرآن دون أن نفهمه طبعا. كل ما في هذه المدرسة كان قديما: الإطار والمناهج[1] ولكنها تركت في نفسي ذكريات رائعة[2]. كنا نجلس على الأرض بما في ذلك المعلم، دون أن يميزه عنا إلا جلد الخروف الذي يفترشه(هيدورة). كان الطفل يكتب على لوح خشبي يتم طلاؤه بالصلصال ثم يجفف، أما الريشة فكانت مصنوعة من القصب، وتحضر مادة /المداد/ في البيت من الصوف المحروق.

كانت المدرسة مختلطة في هذا السن، تضم البنات والبنين يرددون بصوت عال بل- أكثر من ذلك- يصيحون بأعلى أصواتهم الآيات والسور القرآنية. ومازلت إلى اليوم أتساءل كيف كان معلمنا الموقر يستطيع تحمل تلك الضوضاء كلها. وكانت المكافأة عند إتمام كل سورة من القرآن هي السماح لنا بممارسة الخط بمداد ملون. و لم تكن الدنيا تسع فرحتنا بذلك الجزاء.

وفي سن السادسة، اضطررت إلى الهجرة عند عمة لي حتى أقترب من المدرسة الفرنسية بقرية "تيفردوت" إحدى أكبر قرى القبائل البحرية التي كانت مغروسة كواقية ضد الصواعق/الشاري/ فوق رأس جبل تضربه باستمرار رياح عاتية ورهيبة. وككل القرى القبائلية، كانت لتيفردوت قوانينها العرفية. وكان أحدها يلزم كل الأطفال في سن الخامسة -سواء التحقوا بالمدرسة الفرنسية أم لا - أن يترددوا على المدرسة القرآنية؛ فكنا نذهب في الخامسة أو السادسة صباحا لحفظ

---

[1] - كما لم نكن نتصنع الفهم - إنه منهج قديم يشغل الذاكرة دون أن يسحقها ويترك بذلك القدرات الذهنية سليمة ان صح هذا التعبير.

[2] - من الواجب أن نوضح أن الإدارة الاستعمارية كانت تمنع كل "تعليم حديث" مثل النحو والإعراب في اللغة العربية كما كانت تمنع استعمال السبورة و الطباشير و الكراريس واللوحات .

القرآن ثم نتوجه بعد ذلك إلى ميشلي، المركز الإداري الذي كانت توجد به المدرسة الابتدائية، ونعود إلى القرية في حوالي الساعة الخامسة أو السادسة مساء. كنا نقوم إجمالا بقطع حوالي عشر كيلومترات في اليوم . كانت المدارس القرآنية تمثل صمام آمان حقيقي، حيث تسمح بالتحكم في الشغب باعتبار الشغب مخلا بالنظام، ويمكن أن يتسبب في كوارث في البيت والحقول وتهديد المحاصيل بل وحتى سيادة القرية المجاورة .

وبما أن الرجال القادرين على العمل رحلوا إلى سهول متيجة للعمل كموسميين أو هاجروا وراء لقمة العيش إلى فرنسا، فقد وقع الحكم المحلي بين أيدي الشيوخ. وكانت صيانة سمعة وشرف القرية أكثر من ضرورية، وأن يكون لأبنائها سلوك مثالي. كان على الأطفال أن يتعلموا كيف يكونوا عقدا في سلسلة الأجيال ليطفئوا بذلك نار القلق من المستقبل كما تقام السلسلة لإطفاء حريق شب في القرية. الأولياء مسؤولون عن حسن سيرة أبنائهم، وإذا أخل هؤلاء الأطفال بالآداب أو تفوهوا بكلام قبيح أو شتائم تقوم القرية- أو بالأحرى الجماعة[1]- بفرض غرامة على أوليائهم. ويحكى أن أبا لأربعة أو خمسة أطفال تراكمت عليه الغرامات، كما أتعبته وجبات الضرب الساخنة التي كان يلقنها لأبنائه يوميا قد اهتدى إلى حل وهو إجبار أبنائه كل صباح على الصراخ بكل ما يعرفون من الشتائم حتى تبح أصواتهم. ويبدو أن هذه الطريقة في التنفيس أعطت ثمارها.

بالنسبة لي كان التمدرس بعيدا عن أحضان الأمومة مغامرة كبيرة، إنها مغامرة الطفولة. وأن تتحمل مسؤولية الطفولة فذلك ما يجعلك تتحول نوعا ما إلى سن الرشد. لكنه يبدو لي أنه بالنسبة للأطفال الذين كناهم لم تكن المدرسة الفرنسية أو المدرسة القرآنية هي الأماكن التي سمحت بانخراطنا في المجتمع والمشاركة فيه. وكما يحدث في أماكن أخرى كان عالمنا الحقيقي يتشكل مع الأصدقاء وفي الجماعات والعشائر في مختلف القرى وحتى في القرية الواحدة - كانت دوما هناك عشيرة عليا وعشيرة سفلى- إنه عالم صعب يتميز بالتنافس، ولكننا نتعلم فيه أيضا الصداقة والتضامن الحار. وهو ما يمثل نوعا من التمرن على الديمقراطية حيث أن التعامل كان مبنيا على أساس متساو بين الأطفال

---

[1] - تمثل الجماعة مجلس أعيان القرية يكون أحيانا تحت رئاسة قائد وتقوم باتخاذ قرارات وتحدد الضوابط في مجالات جد متعددة . ويمكن في بعض الأحيان تشكيل جماعة من العائلة أو الأصدقاء لتضطلع بمهمة الوساطة .

الذين هم في نفس السن. شخصيا لم أعان أبدا من علاقة عمودية ملزمة، ولم يكن أبي إنسانا متسلطا إطلاقا، بل كان ودودا عطوفا، دائم الفكاهة، غير أنه كان يعرف كيف يردني إلى (مكاني) بالعزف على وتر أنفتي.

وسأرجع لهذا الموضوع عند تناولي لقضية الإداري الاستعماري التي كلفتني أول اعتقال في حياتي.

بالطبع كان هناك أطفال أغنياء إلى حد ما، بل كانوا- حتى نكون أكثر دقة- أقل فقرا نوعا ما. ومظهر الغنى هو أن يتمكن المرء في يوم السوق الأسبوعي من الدخول إلى شبه مطعم صغير لتناول فطيرة مصنوعة من الدقيق الأبيض وقنينة لبن. ولكن ما من أحد كان يجرؤ على عدم اقتسام فطوره مع الآخرين . وكان الأطفال الذين يحسنون العراك يفرضون أنفسهم على الآخرين. خاصة إذا كانوا ينتمون إلى عرش (قبيلة) غفير العدد ومتضامن وبذلك كانوا يستفيدون بتفوق بيولوجي، إن صح التعبير.

فإن تتبنى طفولتك فذلك معناه أن تعتمد على نفسك فقط. فلم تكن هناك عائلة حلوب أو دولة حلوب، ولكن كان هناك وعي مبكر بالواجبات أولها واجب النجاح لنفسك ولعائلتك ولقريتك.

لماذا كان علينا واجب النجاح؟ في الواقع لم نكن نطرح على أنفسنا سؤال"لماذا" ننجح، بل كنا نسأل "كيف" ننجح. كان هاجس الترقية هذا يرجع دون شك إلى الرغبة في تجاوز شتى أنواع العوائق، دون أن تتدخل في ذلك اعتبارات سياسية. كانت هنالك هياكل عديدة تعمل على تهميشنا في جبالنا ووديانا، وتركنا خارج دوائر تنقل الرأي. لذلك فلا أذكر أنني سمعت شيئا عن صعود هتلر و موسوليني إلى سدة الحكم، كما لم أسمع بمشروع بلوم/فيوليت[1]، ولا عن نشأة حزب الشعب الجزائري في عام 1937. ولم أكن قد سمعت أبدا ولو بصفة غير مباشرة عن المخدرات.

كان الوقت يمر، والفصول تتعاقب على وتيرة الألعاب الجماعية المختلفة، من المبارزة اليدوية إلى المعارك الثلجية والجولات الساحرة لجمع الهبات الموسمية. كنا نذهب- عند منتصف الليل- موزعين في جماعات صغيرة حاملين المشاعل، لنغني قبالة البيوت طالبين هبات من

[1] - مشروع قانون صدر في 1936 و كان يهدف إلى توسيع الحقوق السياسية للنخبة الجزائرية ولم يصل حتى إلى مستوى المناقشة في الغرفة التشريعية .

سكانها- بعد ذلك تلتقي المجموعات لتحصي الغنيمة ولتفرز الحلوى والجوز والكستناء والزبيب والفواكه الغريبة بل والقطع النقدية، ثم تعهد إلى أحد الرفاق المعروف بعدله مهمة تقسيم الهبات . ونشارك بالمقابل في كل أشغال التعاون من حرث وجني الزيتون أو حب الملوك (الكرز). وكانت تجمعنا في جو احتفالي بهيج سلاسل بشرية طويلة، نقوم فيها بجلب ورفع العارضات الخشبية الكبيرة المستعملة في تسقيف منزل قيد الإنجاز. كان هذا يشكل حدثا هاما، و كانت هناك أشياء يتم القيام بها فطريا لأنها موروث تقاليد حميدة، كإهداء بواكير الفواكه والبقول للنساء الحوامل.

هذا الفلكلور- بالمفهوم الحقيقي للكلمة- يمثل القيم الثقافية، وبفضلها لم أدخل مغمضا إلى عالم الأفكار والأيديولوجيا، وأنا مدين في ذلك إلى وسطي العائلي أيضا. كان أبي رجلا بسيطا وصلبا، ملتزما بالتقليد العائلي في عدم التعاون مع الإدارة الاستعمارية[1]. وأمي- ككل الأمهات- كافحت من أجل تربية أبنائها، وكانت تحفظ الكثير من الأشعار. لقد كانت حقا حارسة التقاليد، وفضلا عن ذاكرتها القوية كانت تتمتع بشخصية قوية أيضا - فبقدر ما كان أبي يمثل الرزانة و الهدوء، بقدر ما كانت أمي شديدة الحمية - فهي لا تترك لي فرصة إلا وتذكرني فيها بأنها تنحدر مباشرة من سلالة لآلا فاطمة[2] بطلة الجرجرة. وكانت دائمة الحلم بأن تجعل مني طبيبا؛ ولهذا السبب قبلت- عندما بلغت العاشرة- "منفاي" إلى قرية أخرى حتى أتمكن من مزاولة التعليم في مدرسة فرنسية.
كانت تلك المدرسة تتألف من فرعين: الفرع الفرنسي الذي كان مخصصا لأبناء الموظفين الفرنسيين، وفرع آخر للأهالي (انديجان) - وكان مديرها السيد تومي (Thomé) الذي جاء حديثا من فرنسا- أستاذا موهوبا ومتفانيا في عمله؛ وهو الذي أهلني لمنافسة الالتحاق بالثانوية في السنة الأخيرة. أما معلمونا ذوي الأصل القبائلي، فكانوا يتمتعون بتكوين صلب كقبضات أيديهم، التي كانت دون شك ضرورية لفرض الانضباط في أقسام تتكون من ستين إلى سبعين تلميذا. ومع ذلك كنا من

---

[1] - لم يقبل في سنة 1939 خلال الحرب العالمية أن يكون قائد بني واصف إلا بعد إلحاح شديد من الجماعات التي كانت تخشى أن يفرض على رأس دواويرها أعيانا ينتمون إلى عائلة إدارية معروفة بفسادها . وأقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لم يبد أي نوع من "الليونة" اتجاه الإدارة الاستعمارية وستكون لي الفرصة لتناول بعض مواقفه وأفعاله التمردية في خريف 46 و ربيع 47 .

[2] - شاركت لالا فاطمة بين 1846 و 1856 في المقاومة ضد الفرنسيين على رأس جيش من المسبلين.

المحظوظين لأن الدواوير التي كانت تمتلك مدرسة كانت جد قليلة، ولم تكن نسبة الشباب الجزائري المتمدرس تتجاوز العشرة في المائة . كان لنا برنامج دراسي شبيه نوعا ما بما يتلقاه الفرنسيون الصغار حتى الشهادة الابتدائية، وكان يستمر هذا البرنامج لبعض منا حتى المستوى الثانوي بما في ذلك دروس الجغرافيا والتاريخ. وهكذا كنا نتعلم أن لنا "أجدادا هم الغوليون"(الافرنجة) ولم يكن ذلك يزعجنا كثيرا لأنه ليس من النادر أن يكون من بيننا طفل أشقر ذو عيون زرقاء ، وكان هيرودوت يصنف هؤلاء بالنومديين. ولما وصلنا إلى الثانوية أصبح هذا التحريف في نسبنا يثير ضحكنا، كما كان يثير - دون شك - ضحك رفاقنا في إفريقيا السوداء.

في الواقع كانت القوة الاستعمارية تعي جيدا أن بسط سيطرتها على العالم البربري، أو إدماجه إن اقتضى الأمر يمر بقطعه عن ماضيه - ففي خضم عملية الغزو شكلت "مكاتب عربية" لإدارة البلاد، لكنها لم تستحدث "مكاتب بربرية". فأحط من قيمة لغاتنا الشعبية، وحاول استغلال اللغة العربية الفصحى لخلق مساعدين له. وهكذا تعلمت اللغة العربية في الثانوية كلغة أجنبية وغالبا ما كانت معرفتي بها تتجاوز معرفة معلمي .

ولكن علينا ألا نستبق الأحداث، فالطفل الذي أتكلم عنه لا يزال تلميذا في المدرسة الابتدائية، وتمثل القرية بالنسبة له مدرسة الحياة الحقيقية. هنا تعلمت أنه يجب أن لا نفصل مصالحنا الشخصية عن مصلحة المجموعة، وحريتنا الذاتية عن الواجبات الجماعية. وفي هذا المجال، فأنا مدين كثيرا إلى معلمينا، أدين لهم بذلك النوع من المنطق العقلاني الذي يساعد الوعي على التحرر من سلطان الطبيعة والأشياء والعباد والكلمات ويفتح الأفق. كانت تلك العقلانية تغذي رغبتنا في الانعتاق وفي النضج وفي الحرية.

كنا ننظر إلى السلطة الاستعمارية على أنها قوة أجنبية، مع أن وجودها الإداري كان ضعيفا في القبائل الكبرى؛ كان احتلالها يستجيب لاعتبارات إستراتيجية بحتة. حيث لم تكن لنا أراض خصبة[1] ومصادر منجميه. ففي بلديتنا المختلطة- التي كان يقطنها أكثر من مائة ألف نسمة- لم يكن هناك غير فريق من الدرك من ثمانية أفراد والفرنسيون القلائل الآخرون هم الطبيب الاستعماري والصيدلي وبعض المعلمين. وفي

---

[1] - لم يكن الحال في منطقة القبائل الصغرى حيث تم حجز خمس مائة ألف هكتار بعد ثورة 1871 و أعطيت للفرنسيين من الالزاس واللوران الذين هاجروا منها بعد هزيمة "سدان" مع الألمان.

المقابل كان هنالك تواجد فرنسي مكثف في مخيلتنا تحت أشكال من النفور والهواجس: "بيشوح" الحيوان الأسطوري الذي تخيفنا به أمهاتنا به لم يكن سوى "بيجو". وكانت كلمة "الأمن" تكفي لزرع الهلع فينا مع أننا لم نكن قد رأينا أبدا قوات الأمن، ولم تكن هناك غير فرقة في تيزي وزو مقر الدائرة. ومع أن الجانب الأمني لم يكن يحظى باهتمام جريدة "ليكو دالجي" كانت الروايات حول العنف و التعذيب الذي تمارسه هذه الفرقة الأمنية واسعة التداول، ويتردد صداها في جبالنا ووديانـنا. وإذا كانت النزعة المركزية للدولة الفرنسية قد أدت إلى تطوير إدارة ثقيلة فكان ذلك محصورا في الجزائر والمدن الكبرى. أما في القبائل كما كان الشأن في كل البلاد، فقد كان الجزائريون هم الذين يقومون بحل مشاكلهم على مستوى القرية أو الدوار. لقد حافظت الجماعة عندنا على قوتها، أو- بتعبير آخر- حافظت على كل وظائفها، وكانت تحل المشاكل بالتراضي بين الأطراف أو بالقيام بدور الوسيط أو بالتحكيم في النزاع. وكانت المحاكم الرسمية شديدة الانزعاج من ذلك. وأسمح لنفسي بسرد واقعة شخصية تعبر جليا عن تلك القطيعة: كنت في الحادية عشرة، وكنا عائدين جماعة من المدرسة حين التقينا بالمكلف بالإدارة الاستعمارية الذي كان يتنزه. لم نكن نعرف مستوى سلطاته ، ولكننا كنا نعرف أنه يفرض على من يصادفونه تحيته بطريقة ظاهرة. وبطلاقة الطفولة قمنا بالدوران حوله ونحن نرفع قلنسواتنا[1] عن رؤوسنا ونردها- -"مساء الخير موسيو، مساء الخير موسيو". وفي حرارة الاندفاع أضاف بعض الزملاء كلاما بذيئا بالعربية. والذي لم يكن في الحسبان هو أن المكلف بالإدارة كان يعرف معنى تلك الكلمات. أليس معروفا أن هذا النوع من الكلام هو أول ما نتعلم في اللغات الأجنبية ؟ وفي اليوم التالي الذي صادف موعد السوق جاء الإداري إلى المدرسة وراح يتفقد صفوف التلاميذ وتعرف على مجموعة المشاغبين (كنا حوالي عشرة) أمر بنقلهم إلى مقره الإداري تحت مراقبة حراسته الخاصة.

احتفظت مدينة ميشلي الصغيرة لمدة طويلة بمشهد مرور موكب الرعاة الصغار الغلاظ و المذهولين تحت حراسة مشددة من خيالة الحرس الإداري المثيرين للضحك ببزتهم المزركشة وسراويلهم المنتفخة والمزينين بالشرائط والأوسمة. بقينا محبوسين يوما كاملا تحت حمية الخبز الجاف والماء.

---

[1] (مصنوعة من نفس قماش الطربوش الأحمر لكنها غير مقواة وتنتهي بقضيب من لباد صلب)

انتشر الخبر بسرعة فائقة و"تمتعنا" بزيارة أوليائنا. كان بعضنا قد اعتاد على الضرب المبرح من آبائهم، غير أن أبي اكتفى بتعليق مشوب بالخيبة -"ألا تخجل من التفوه بالشتائم"- وكان يقصد ضمنيا بذلك :" كيف تفعل ذلك بي أنا الذي أعطيتك تربية حسنة". أظنه لم يهضم نعت الإداري لي بكلمة "السلوقي" هذا اللقب الذي التصق بي بعض الوقت. وشعر زملائي بنوع من التأنيب الذاتي لأنهم لم يخطر ببالهم ذلك اللقب الذي يشير إلى أني طويل الرجلين نحيل يلتصق جلدي بالعظم وحليق الرأس كليا.

لم يكن أبي إنسانا متسلطا كما أشرت، ولم يكن يستسهل الصفع . لم يضربني إلا مرة واحدة غير أنها كانت "طريحة" رسخت في الذاكرة؛ وكانت دون شك في حجم الفعل الذي اقترفته : أسبوعان كاملان من العزوف الخفي عن الذهاب إلى المدرسة - لم أكن قد وصلت إلى سن العاشرة بعد- كنت أخرج كل صباح من بيت عمتي حاملا فطوري معي، ولكن بدلا من الذهاب إلى المدرسة كنت أتوجه إلى منحدر قريب حيث كان يقبع هيكل سيارة سقطت هناك منذ سنوات . و تستر علي زملائي بإخبارهم المعلم أنني مريض، لأنهم كانوا لا يستطيعون ولا يريدون إفشاء أمري . لكن فراري من المدرسة انكشف حين التقى المعلم صدفة بوالدي وسأله إن كانت أحوالي الصحية قد تحسنت. لازلت أرى أبي وهو قادم إلى المنحدر، رجلا جسيما قوي البنية يجر أحد زملائي من أذنه وهو يبكي، و أظن أن أكثر ما كان يؤلمه هو اضطراره للبوح بمكان خلوتي - لقد كانت المسافة التي قطعتها بين سيارة أحلامي والمدرسة جحيما وطريق عذاب - ليس بمقدوري أن استرجع الأسباب التي كانت وراء سلوكي آنذاك ، ولكن من منا لم يحلم أن يكون قائدا لشيء ما؟ أظن أنني جبت أرجاء الدنيا في هيكل السيارة ذاك وأنا ممسك بحزم بما تبقى من المقود - ربما سمحت لي هذه التجربة بتنفيس كلي، أو ربما ذلك راجع إلى ذكرى تلك الطريحة فأنا اليوم لا أحب السيارات ولازلت أجد في سيارتي المستعملة طعم هيكلي الحديدي القديم .

ولكن لنعد إلى الوجود الفرنسي، ويبدو لي أنه بالنسبة للأطفال الذين كناهم فقد كان الجيش هو الذي يجسد ذلك الوجود. ولا يعود ذلك إلى المناورات أو التدريبات التي كنا نشاهدها بل إلى مسألة الخدمة العسكرية التي كنا نعيشها بين الحين والآخر، إذ كنا نجبر بانتظام على عطلة تدوم بين 4 و5 أيام مع نهاية كل سنة حيث يتم استخدام المدرسة من طرف مجلس التجنيد. وكانت المناسبة فرصة لنشر القوات العسكرية،

وكنا نستمتع بمشاهدة المجندين للخدمة الإجبارية ومختلف مراحل حياة المخيم العسكري .

وعجلت الحرب برفع مستوى الوعي لدي بشكل أساسي، وكان قبلها يتكون بصورة بطيئة. فالتجنيد والدعوة إلى التضحية المطلقة يطرحان بشكل قوي أسئلة أساسية، إذ أصبح لا يكفي أن نسأل عن "كيف نعيش" بل أصبح من الضروري معرفة "لماذا نموت" أي بصورة أخرى " لماذا نعيش".

كنت أعرف أنني أعيش في بلد تستعمره فرنسا، غير أن فرنسا بعيدة.. بعيدة جدا!

وقد زرت مدينة الجزائر أول مرة يوم سافرت للمشاركة في مسابقة الدخول إلى المستوى المتوسط. وعندها فقط تعرفت على البحر. قبل ذلك كان أفقي لا يتعدى النهايات التي تحددها قمم جبالنا. غير أني كنت أسمع روايات العمال المهاجرين إلى فرنسا، الذين يقارب عددهم في قريتي العشرة - كلهم من الأقارب- وكانوا يعودون كل عام لقضاء عطلهم في القرية.

فأخوال أبي الثلاثة قضوا كل حياتهم تقريبا عمالا في مؤسسة /رونو/ للسيارات، وكانوا يتكلمون بكثير من اللطف عن أصدقائهم الفرنسيين. كانت لهم مشاكل هناك بالطبع لكن فرنسيي فرنسا كانوا فرنسيو فرنسا. ويجب الإقرار بأنه على المستوى المحلي لم يكن كل موظفي الإدارة أناسا شرسين. بل كان فيهم من كان يصلح أن يكون نموذجا في النزاهة واللياقة، دون أن أتطرق إلى المعلمين الذين كانوا محل احترام كبير من طرف الأهالي. كما أنهم لم ينسوا أيضا فضائل الطبيب العام الدكتور مرسيي الذي جاء بمحض إرادته ليستقر هناك، رغم عراقيل الإدارة ومعارضة الطبيب الاستعماري، هذا الطبيب الذي شن حربا ضروسا ضد الاستبداد بالسلطة والإجراءات المجحفة وضد بعض الممارسات الإدارية والطبية.

وبالنسبة لي، فلا أحد كان يضاهي السيد تومي مدير المدرسة؛ لقد كان في منتهى التفاني في العمل وفي منتهى الوعي المهني. لاشيء يقربه من بعض المدراء الحاليين الذين يخلطون بين البيداغوجيا والديماغوجيا ظانين أن الثقافة هي الخنق وتدجين العقول وخنق المهارات.

ولا يتردد هؤلاء في إضاعة ساعات ثمينة من التعليم العام في إطلاق شعارات لا معنى لها، فيما لا يخصصون حتى دقيقة واحدة من وقتهم للاستماع إلى تلميذ أو إرشاده.

لا أحد ينفي الدور الأساسي للتربية المدرسية. فالمواثيق الوطنية والدولية وماهية اليونسكو ذاتها تمثل دلالة على أهمية التعليم في الحفاظ على السلم وترقية حقوق الإنسان .

غير أن ما كان يقلقني في ذلك الوقت ولو بصورة مبهمة - وأنا طفل- هو الفجوة التي كانت موجودة وما تزال للأسف بين المدرسة العمومية والحياة العامة.

وعلى المستوى الشخصي لا أرى أفقا مقبولا غير الديمقراطية. ولكن يمكن لثقافة أن تكون دون ديمقراطية ك/قرن بيريكلس ولويس الرابع عشر، وفيليب الثاني الإسباني والعهد الفيكتوري،والكولتور كمبف في الهتليرية، والنظام الستاليني ، والوثبة الماوية العملاقة للأمام، أو السلالات الملكية في إفريقيا وأمريكا اللاتينية/. وبالمقابل لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية دون ثقافة.

بالنسبة لي، تقوم الديمقراطية بحبك علاقاتها الجدلية الأولى مع الثقافة في "ألاغورا"- وهو مكان الإجتماعات العامة عند الإغريق- في الفوروم وفي الجماعات البربرية. وبالطبع فلا يمكن للمدرسة أن تكون خارج "المدينة" ولا فوقها في عملية البحث عن أشكال حية للديمقراطية. بل يجب أن تكون قلبها النابض، لأنها تهيئ كل مواطنة ومواطن لاتخاذ ومراقبة القرارات التي تعنيه.

يجب أن نشجع في الطفولة الأولى ونحث على التفكير وتحبيذ الجهد والمسؤولية، وانتزاع المواطنين من الكسل والسهولة واللامبالاة.

إننا نعيش اليوم في عالم مشبع بالشعارات وبالأجوبة المفتعلة التي تفرض علينا حتى قبل أن نقوم بطرح الأسئلة. أليس الهدف الأول من التربية هو التمكن من طرح الأسئلة والأجوبة؟

بمساعدة وتشجيع من السيد "تومي الرائع" شاركت وتحصلت عام 39 على شهادتي الدراسة كانديجان"أهالي" وكفرنسي- حيث سمح لي أن أشارك فيهما الاثنين-، ونجحت في مسابقة الدخول إلى ثانوية الجزائر. وكانوا يقبلون ما بين 40 و50 من الأهالي من بين المئات بل الآلاف من المشاركين في المسابقة.

وكان من بين زملائنا في السنة السادسة شباب بولنديون اضطروا للفرار من بلادهم بعد أن احتلها الألمان. كانوا ما بين 16 و20 من

العمر، وكان من بينهم من يعدون أبطالا قلدوا ميداليات لأنهم أسقطوا عدة طائرات نازية. كما كان حماسهم للعمل في لغة أجنبية يثير الإعجاب.

أما حبنا للوطن نحن الجزائريين فتمثل في الوطنية. وقبل أن أذهب إلى الجزائر كنت أسمع عن وجود الحركة الوطنية لمصالي الحاج (حزب الشعب الجزائري) من خلال عمي (أوزين) ،الذي كان طالبا بالعاصمة.

كان عمي- في شكله- يذكر بالممثل روبرت تايلور. كانت له نفس الثقة الهادئة في النفس ونفس الابتسامة، ونظرة ملؤها الصراحة والنور. كان شابا مسالما من الأعماق، لكنه كان مدفوعا بإحساس قوي بالتمرد ضد الظلم والتمييز. وكطالب جامعي تعلم بمدرسة الضباط بشرشال حيث تخرج كضابط صف. لكنه رفض الاستجابة لاستدعاء التجنيد الذي وجه له. فالمثقفون القلائل الذين التحقوا بالحركة الاستقلالية كانوا ينادون بعدم التعاون العسكري.

وأذكر أني رأيت في ميشلي سيدي موسى- الذي سيصبح محاميا فيما بعد- يحرض الرجال بقوله أن هذه الحرب ليست حربهم، وأنه عليهم أن لا يموتوا إلا من أجل الجزائر.

ودفع ثمن هذه الحملة ضد التجنيد سجنا كل من الدكتور الامين دباغين وبن خده، ولم يعتقل عمي أوزين الذي قضى ثلاث سنوات متخفيا في الحقول يعمل في الفلاحة - التي كان يحبها كثيرا- ومساعدة "المتواطئين" معه في الحملة ضد التجنيد.

وقد تم استدعاؤه مرة أخرى من طرف السلطات العسكرية بعد نزول الحلفاء إلى الشواطئ الجزائرية سنة 1942. ومورست عليه هذه المرة أنواع من الضغوط كي يستجيب للاستدعاء . ولم يكن يخشى عقوبة في ذلك الوقت لأن حالة الفوضى التي كانت سائدة آنذاك أدت إلى عدم تسجيله في عداد الفارين من التجنيد (وكان أصدقاء له قد اكتشفوا صدفة هذه الوضعية).غير أن هذه المرة تم العزف فيها على وتر حساس: قيل له إن رفضه التجنيد سيؤدي إلى اعتقال أمه العجوز وهو ما يجلب العارعلى العائلة. لهذا السبب امتثل عمي أوزين للاستدعاء والتحق بفرقته، وقتل في مونتي كاسينو بإيطاليا. إنني أجزم أنه كان باستطاعته أن يكون قائدا سياسيا فذا لو لم تأخذه المنية مبكرا.

وكان رفضه أن يحارب من أجل فرنسا اختيارا مدروسا بدقة. فالنظام الاستعماري جند الجزائريين في كل حروبه (وكانت سمعة القناصة الجزائريين غنية عن التعريف) ، ويعترف بقدراتهم في ساحات القتال بينما كانت أبسط حقوقهم مرفوضة.

وذلك ما كان يدينه عمي الذي كان يحرص على أن يكون سلوكه مطابقا لكلامه. أما أن يجازف برفض التجنيد والحرب في ذروتها، فكان ذلك دليل شجاعة نادرة. وفضلا على أنه كان مثالا لي فإنني أدين لعمي أوزين بدروسي الأولى في الوطنية وأيضا في الفلاحة وتطعيم الأشجار.

إنه هو من علمني أول نشيد وطني، نشيد حزب الشعب الجزائري، كما علمني تطعيم أشجار الكرز وكيف أقبض على مقود الجرافة والحرث في خط مستقيم.

وبفضله لم أكن جاهلا بوجود مطالب وطنية عندما دخلت الثانوية، ولكن لم تكن لي نشاطات سياسية قبل عام 1942. وتجب الإشارة إلى أن البيئة العامة وطريقة عيشنا لم تكن مواتية لمثل هذا النشاط.

كان من المفروض أن نلتحق بثانوية بن عكنون /المقراني اليوم/ في الضواحي الغربية للجزائر غير أن الجيش كان قد احتل المباني. فنقلت الثانوية غير بعيد إلى بوزريعه في مباني معهد تكوين الأساتذة.

كنا نعيش في الثانوية حياة شبيهة بحياة الثكنة، لباس موحد، الاستيقاظ على دقات الطبول، والمرور على دورات المياه في أوقات محددة في الصباح والمساء تحت الرقابة الدائمة للمراقب العام. وكان رجلا ذا شارب كثيف كعسكري الإمبراطورية النابوليونية، يلوك حرف الراء الفرنسي بطريقة كفيلة بتعقيد معلمي القبائل الأوائل.

ومن بين مئات التلاميذ، من "الأقدام السوداء" والفرنسيين النازحين إلى الجزائر بعد الحرب، كنا نمثل أقلية صغيرة لا تتجاوز الخمسين تلميذا موزعين على مختلف الأقسام ومختلف أصناف التعليم. ولم أكن أخرج في عطلة نهاية الأسبوع لأن مراسلي[1] وهو أحد أصدقاء العائلة الذي كان يقطن منطقة الأربعاء/30 كلم جنوب الجزائر/ لم يدعني إلا مرة واحدة.

---

[1] ـ شخص يقترحه ولي أمر التلميذ الذي يخضع للنظام الداخلي في الثانوية لينوب عن الولي في التوقيع على سجل الخروج أيام العطل . (المترجم)

غير أن أيام السبت والأحد كانت أياما جميلة نقضيها في المدرسة الثانوية في المطالعة وكرة القدم والتنزه في الغابات المجاورة. وكانت هناك العطل الموسمية والعطلة الصيفية الكبرى. وعادة ما تمتد العطلة الشتوية في الجبال لإنقطاع الطرق بفعل تساقط الثلوج.

وقد أصبح عندي أصدقاء ممتازون من التلاميذ الأوروبيين من الديانة اليهودية. وكنت أرفض بكل كياني جو التمييز الأخلاقي والتحقير والألقاب الدنيئة التي كان يستعملها ضدهم أبناء الكولون (المعمرون الكبار).

سبق أن ذكرت الشباب البولنديين الذين كانوا معنا في القسم. وهم أيضا كانوا لا يغادرون الثانوية أيام العطل الأسبوعية، وكنت أساعدهم في تمارين اللغة الفرنسية واستعمالها. ومن جانبهم علموني العزف على آلة /الهرمونيكا/. وكانت شلالات من الحماس تتسرب من أعينهم وهم يغنون //دور دور دومبروفسكي..من إيطاليا إلى إنغلترا سنعود لرؤية الوطن//.

وبالطبع كان زخم الحرب يصل حتى إلينا. لم تكن الصحافة الرسمية تخفي انتصارات قوات المحور. لقد كان رومل على أبوابنا كما كان يقال عن /هنيبعل/ منذ ألفي سنة. ولكن لا شيء كان يتسرب عن الحركة الوطنية. ولم أسمع بذلك إلا عندما أعود إلى أهلي في منطقة القبائل.

ففي دوار بني واصف كان مناضل كهل من نجم شمال إفريقيا يواصل بعناد حملاته الإعلامية والتحريضية. وكان ذلك الرجل مؤسسة قائمة بذاتها حيث يمثل سجلا وطنيا. غير أن معلوماتي الدقيقة تحصلت عليها عن طريق معلم، عمار آيت حمو الذي كان على اتصال بأحد أعضاء القيادة السرية /أو ما تبقى منها / لحزب الشعب وهو حسين عسله من بوغني في القبائل الكبرى.

أفهمني عمار آيت حمو الأسباب التي أدت بحكومة فيشي إلى حل الكشافة الإسلامية الجزائرية ، مع أن سياستها كانت تتمثل في تشجيع الحركات الشبابية. لقد كانت لآيت حمو علاقات صداقة وعلاقات سياسية مع قائد الكشافة الإسلامية محمد بوراس / من مليانه/. ففي 1941 كان لبوراس مشروع تمرد بالتعاون ليس مع لجان الهدنة الألمانية والإيطالية

الموجودة في الجزائر، بل مع السلطات الألمانية الموجودة في فيشي أين قام بعدة زيارات .

وفي نفس المرحلة التي كان يقوم فيها بتنظيم أفواج الكشافة هنا وهناك، كانت له اتصالات أخرى خاصة في الثكنات منها /ثكنة الحراش مع بعض الضباط. وكان من المفروض أن يأتي ضابط ألماني إلى الجزائر لوضع اللمسات الأخيرة للمشروع مع بوراس، الذي طلب من آيت حمو أن يرافقه إلى الموعد. لكن آيت حمو الذي شعر بأن ذلك ليس سوى فخ، حاول بكل ما يملك أن يثني بوراس عن الذهاب إلى الموعد. وبالفعل كان فخا وعملية تضليلية كبرى اعتقل فيها بوراس وأعدم فيما بعد مع مجموعة من الجنود والضباط الجزائريين. وقد أعلنت الصحافة عن هذه الإعدامات مقدمة إياها على أنها تمرد.

ولا أعرف حجم التحضيرات التي قام بها بوراس، ولكنني أظن أنها كانت مجرد مؤامرة بسيطة اتجهت نحو بعض الضباط الجزائريين أو وحدتين عسكريتين[1]. ولا أزال أتساءل إلى اليوم عما كان يرجوه لأن المواطنين في ذلك الحين كانوا غير مسيسين وغير منظمين، ولا يمكن أن يتبعوه . ومن المؤكد أنه كان هناك استدراج. ولكن هل جاء من طرف نظام فيشي لكي يمنع الألمان من التعامل مع القوات الجزائرية، أو من النازيين حتى يسلموا إلى فرنسا بعض القرابين بهدف التغطية على عمليات سياسية كبرى؟

من المؤكد أن الألمان حاولوا استمالة وطنيي شمال إفريقيا إلى صفوفهم. وقد قبل بعض القادة الوطنيين في باريس التعاون معهم؛ ويجب أن لا ننسى الهالة التي أحاطت باللفيف العربي.

وأعرف أنه حتى في الجزائر كان هناك تيار في حزب الشعب الجزائري حاول الاتصال بلجان الهدنة. وقد عارض الدكتور الامين

---

[1] - كان ابناء مليانة يعتبرونه رجلا وطنيا كبيرا بل بطلا. وكنت في مليانة في السنة الدراسية 44/43 في إحدى المرات التي خرجت فيها من ثانوية بن عكنون وحضرت حفل ختان ابنه الذي أقامه فرع الكشافة الجزائرية وقد تم هذا الحفل في جو مفعم بذكرى الشهيد بوراس . وعادت الحركة الكشفية إلى الشرعية بعد إنزال الحلفاء إلى الجزائر.

دباغين بحزم - في سلوك مشرف - هذا الاتجاه[1]. وكان دباغين وبقي لمدة طويلة- رغم أن سنه لم يكن يتجاوز الثلاثين- الرأس المفكر للحرس القديم المتمثل في خمس أو ست قادة أشداء قريبين من الجماهير، لأنهم من أصول ريفية وأوفياء لخط الاستراتيجية الشعبية . وبالمقابل كانت هناك عصبة /الشباب الأتراك/ الذين ينحدرون من البرجوازية الصغيرة ديناميكيين، مغامرين أيضا يظنون أنهم بالإمكان حل المشاكل السياسية عن طريق المؤامرات.

وسنرى فيما بعد كيف تصطدم كل من هاتين العصبتين فيما بينهما بصورة استعراضية، وكيف تتبادلان التهم.

ودون الكلام عن /الشعب الجزائري/ ككتلة واحدة، يمكن القول أن الفئات المحظوظة مشت وراء الراية الفرنسية ابتداء من 1939، وهو نفس موقف لكثير من الرجال الذين كانوا يرغبون في بناء مستقبلهم في الجيش. كانوا يدافعون عن مصالحهم وطموحاتهم، وليس عن /الإيديولوجيات/.

لقد تجند فرحات عباس، وقالها دون مباهاة أنه فعل ذلك للدفاع عن الصورة الليبرالية والديمقراطية التي كان يتخيلها عن فرنسا. وبالمقابل، لا يوجد إلا أفراد قلائل ممن انضووا تحت لواء هتلر أو موسوليني/حماة الإسلام/.

صحيح أن الجزائر عرفت بعد انهزام فرنسا في 1940 ردود أفعال عاطفية اتجاه الألمان على نمط (عدو عدوي ....) ، ولكن لا يجب أن ننسى أن أغلب قادة حزب الشعب الجزائري- وحتى المتعاطفين المعروفين- كان قد زج بهم في سجون الحراش، البرواقية، لامبيز/تازولت/، أو أرسلوا إلى معتقل جنين بورزق مع عدد من الفرنسيين من مناضلي اليسار أو الماسونيين. بالمقابل كان رموز المعمرين يؤيدون بحماس نظام فيشي والتعاون مع النازية، وكانوا بذلك يدافعون عن سلطة فعلية وعن إيديولوجية.

---

[1] - وقد خلقت هذه الحادثة حساسية مفرطة لدى الامين دباغين ضد مصالح المخابرات وكل ماله صلة بالخارج .

أما مقولة أن الألمان كانوا وراء تحريك الحركات الوطنية في شمال إفريقيا فتدحضها الطموحات الواسعة للانعتاق من نير الاستعمار، ومع ذلك نجدها مؤخرا في كتاب لجنرال فرنسي مختص في مصالح المخابرات. وبالطبع فإذا كان هؤلاء المختصون لا يقزمون التاريخ في شكل مؤامرات فما عساه يكون دورهم ؟[1].

وكما سبق أن قلت، فإن الجماهير كانت بعيدة عن السياسة، بل لم تكن مسيسة أصلا. فمفاهيم التنظيم لم تكن قد دخلت بعد للأرياف، وكانت هيكلة حزب الشعب الجزائري تبدأ ببعض الأنوية في المدن،/ النقابات وأحزاب اليسار الفرنسي كانت مجرد أدوات توصيل لقياداتهم المركزية في فرنسا وكانت في معظمها قد حلت /. وزادت الحرب في تعاسة الفئات الفقيرة من المواطنين؛ فإضافة إلى البؤس والأمراض والندرة والضرائب الثقيلة كان يقتطع من محاصيل الفلاحين- كان على كل دوار وكل قرية أن يقدم نسبة محددة من المواد الزراعية- ولم تكن الفلاحات مقتنعات بأن البيض والزيت والتين الجاف الذي يسلب منهن يصل إلى أبنائهن المجندين في الحرب.

أما بالنسبة لي وبين سن 13 و15 فلم أكن أفكر إلا في دراستي. كنت اتطلع للخروج من هذا الانغلاق ولهذا أصبحت أكثر من مجتهد وككل زملائي كان يروق لي أن تتحول أمسياتنا في الداخلية إلى الرياضة. ولكنني لم أنخرط في حركة شبابية ولم أغن /مارشال هانحن/ بل كنت مأخوذا بالموسيقى العسكرية الألمانية[2]، كما كانت تبهرني العروض العسكرية المنظمة التي كنت أشاهدها في الأحداث السينمائية، ربما لأنني أضمرت في نفسي رغبة دفينة في الالتحاق بالمدرسة العسكرية لسان سير. ولكن لم تكن لدي ولو ذرة تعاطف مع هتلر أو موسوليني[3] لأن هذا

1- وعلى ما يبدو وجدت الأطروحة آذانا صاغية عند أخصائيين آخرين . لقد قص علي مناضل قديم من بلكور السيد زرارقي انه عندما اعتقل أخوه في 45 في أحداث ماي ذهب في وفد مع عائلات المعتقلين ليطلب من الحزب الشيوعي الجزائري التدخل لصالحهم أو على الأقل مساعدتهم في الحصول على تصاريح الزيارة - وكانوا يدقون كل الأبواب من أجل أبنائهم - فطردهم الامين العام للحزب الشيوعي صارخا : " لن نتدخل أبدا لصالح عملاء هتلر".

2 - في 1945 نظمت نشيدا وطنيا على نغم/ لي لي مارلان/

3 - عندما يفتح درج الذكريات صدفة عن هذه الحقبة أ لتقي هتلر كأنه حدث عابر ، صورة بالأسود والأبيض تبث في الأحداث المصورة ، إنسانا كاريكاتوريا أسود كنظرته للعالم. كيف يتمكن رجل عميق الرداءة دون أخلاق مدعم من طرف الشذاذ واللصوص ان يفرض نفسه. وكان له فيما بعد أشباه حيث أصبح الجواب بديهيا : هو أن قوته مستمدة من عيوبه الأخلاقية والسياسية.

النمط من الديكتاتور الفج كان يتنافى مع القيم العريقة للبيئة الثقافية التي صقلت سلوكي.

واستفاقتي الحقيقية أتت- كما حدث لمعظم الجزائريين- مع عملية /طورش/، أي إنزال قوات الحلفاء في شمال إفريقيا يوم 8 نوفمبر 1942. ويمكن القول أن معظم الرأي العام ذهب في اتجاه الحلفاء ولم يكن بالضرورة اختيارا للصف المنتصر لأن الأمور لم تكن قد حسمت بعد؛ وكان المارشال رومل لم يزل يصول في الأراضي الليبية والتونسية.

وكان الجنود الأمريكيون يدخلون الأحياء الممنوعة عليهم، مثيرين مشاجرات مع الفرنسيين. رغم ذلك- أو بالأحرى ربما لذلك- كان الجزائريون يتعاطفون مع الجيش الأمريكي. كان هناك نوع من الطابع الديمقراطي في سلوك الجنود والضباط الأمريكيين. ولم نكن آنذاك نلقي بالا للدعاية، وكنا نؤمن حرفيا بالأوهام التي تمخض عنها لقاء محمد الخامس وروزفلت خلال مؤتمر أنفا[1].

الحدث الأكثر أهمية بعد إنزال الحلفاء هو النشأة القوية لرأي عام كان بيان الشعب الجزائري محركا له ، هذا النص أصدره فرحات عباس في 10 فبراير1943، ووقعه معظم المنتخبين الجزائريين حتى الموالين للإدارة، وشكل حدثا كبيرا على المستوى الوطني.

ويمكن تلخيص هذه الوثيقة في أن ممثلي الشعب الجزائري يتعهدون بتدعيم المجهود الحربي للحلفاء، شرط أن يسمح للجزائريين وفقا لمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير الذي ينص عليه ميثاق الأطلسي أن يختاروا مستقبلهم بصفة حرة وديمقراطية ودون تمييز عرقي وديني.

كان لإنزال قوات الحلفاء الأثر المباشر على حياتنا الدراسية، حيث تمت مصادرة ثانوية بن عكنون لصالح الجنود الأمريكيين. واضطررت للعودة إلى تيزي وزو في جانفي 1943، حيث أمضيت الثلاثيين الأخيرين من العام الدراسي، كما قضيت السنة الدراسية التالية في مدينة مليانة.وفي مدينة تيزي وزو عرفت حياتي الدراسية تغيرا كبيرا، حيث اضطررت للالتحاق بثانوية /فرومونتان/ للبنات وكانت قد انتقلت إلى هناك. لم نكن إلا أربعة أو خمسة ذكور في قسم يضم أربعين تلميذة.

---

[1]- خلال المؤتمر بين تشرشل وروزفلت في جانفي 1943 في أنفا بالدار البيضاء استقبل الرئيس الأمريكي سلطان المغرب محمد الخامس ووعده بالاستقلال .

ولكن هذه المدرسة المختلطة شكلت ثورة في حياتي. لم أكن أتصور ما يحدثه قسم مختلط من إبراز كل تلك الطاقات من التنافس الفكري في لعبة التودد اللطيف. كان في ذلك تعايش مستحب ومفيد بل وحيوي أيضا. تعايش يدخل المراهقة بعنفوانها وخجلها في عالم الأحاسيس.. بل في عالم الحياة.

كان مرقدنا المخصص للذكور يوجد في أكبر سينما بتيزي وزو بقلب المدينة. وهناك انخرطت في حزب الشعب الجزائري الذي كان سريا آنذاك. وفي ذكرياتي المتبقية عن الفوج يبرز وجهان / فراج الحداد وهو شخصية عصامية مزدوج اللغة متمكن، ومحمد بلحاج بائع خضر ذو شوارب كثيفة مما جعل الناس يلقبونه بستالين، وهو ما كان يروق له تماما/. وشكلنا خلية طلابية لحزب الشعب، التقيت فيها لأول مرة بعلي العيمش الذي أصبح إطارا سياسيا من الطراز الأول، والذي رحل للأسف مبكرا سنة 1946، في سن 21. كان كلانا في السنة الثالثة ولكن في فصلين مختلفين، لأن العيمش كان يحضر نفسه ليصبح معلما. وكانت مهمتنا الأساسية في حزب الشعب هي قراءة وشرح وتوزيع/ بيان حزب الشعب الجزائري/ في الأوساط الطلابية وهو ما كان يتم في السرية التامة لأن الحزب كان ما يزال ممنوعا آنذاك.

وكما يلاحظ القارئ استعمالي لأسلوب التشبيه في وصف الناس هو ما ألجأ إليه أيضا مع شخصية علي العيمش. فالتشبيه شأن ذاتي، وهو طريقتي الخاصة. بالنسبة لشكل الوجه والملامح، كان العيمش كجمال عبد الناصر ولكن بأنف أقل ضخامة وفك أقل عرضا ولكنه يحمل نفس الإصرار[1]. قصير، ممتلئ قوة فيها سكينة ووقار، بحيث تشابكت فيه شجرة الحياة وشجرة المعرفة واشتركتا في نفس الجذع. كان يلتهم الكتب بكل أنواعها مستعينا بقوة استيعاب كبيرة، مما أكسبه ثقافة واسعة في سنوات قليلة. وفي ربيع 1943، عرف العيمش أولى مشاكله مع الشرطة حيث ضبط متلبسا بتوزيع البيان. وقد اقتيد إلى محافظة الشرطة القضائية حيث جرى استجوابه طيلة اليوم محاولين معه معرفة مصدر المناشير وما إذا كان ينتمي إلى تنظيم . لكن العيمش لم يرضخ وأخبرهم أن

---

[1]- عندما التقيت أول مرة جمال عبد الناصر كان ينتابني إحساس بوجود العيمش قربي . وراودني نفس الإحساس عند التقائي بشخصيات كبيرة في هذا العالم وكأني به اسمعه يقول لي // هيا..هيا لا تنبهر بهم //.

مصدر المنشور رجل لا يعرفه وأن البيان ليس منشورا سريا مادام قدم إلى الحكومة الفرنسية.

لم يكن في وسع حزب الشعب أن يقيم نشاطا عاما لكنه كان مؤثرا في مدينة كتيزي وزو التي كانت تشكل نائب عمالة بما يعادل دائرة حاليا.

وقد لاحظت ذلك في ندوة موسعة دعا إليها "سيد علي حاليت" المندوب العام لقيادة حزب الشعب في القبائل الكبرى - وكنت آنذاك لا أعرف أهمية مسؤولياته-. وقد حضر تلك الندوة حوالي خمسين شخصا منهم مناضلون قدامى من نجم شمال إفريقيا ومنخرطون جدد دخلوا الحزب في ظل الانفتاح نصف الشرعي الذي أحدثه إنزال الحلفاء. وكان هناك صالح الونشي الذي سيصبح قائدا مهما في الكشافة الإسلامية الجزائرية في القبائل، ثم على المستوى الوطني[1].أما حاليت فكان أصله من القبائل غير أن عائلته كانت قد هاجرت إلى الجزائر وتستقر آنذاك في القصبة. وكان هو وحسين عسلة يعرفان بعضهما بعضا من سنوات المراهقة، إذ زاولا معا دراستهما في كلية التعليم التكميلي /ساروي/،كما انتميا إلى مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث تمكنا من العربية الفصحى[2].

وكان الاثنان معجبين- بطريقة ساذجة- بالشيخ الطيب العقبي، إحدى الشخصيات القيادية لجمعية العلماء، قبل أن يلتحقا بالحركة الاستقلالية.

وعندما أصبح عسلة عضوا بالمكتب السياسي لحزب الشعب استنجد طبعا بصديقه القديم. وعمل حاليت- الذي كان يشتغل كاتبا في مكتب وكيل دعاوى/محضر قضائي/ بتيزي وزو- على تجذير الحزب في أوساط الشعب خلال فترة الحرب العالمية الثانية. وفي 1942 كان يقدم نفسه على أنه شيوعي، بحيث يستطيع أن يتميز عن باقي الموظفين الذين تواطؤا مع فيشي، وفي نفس الوقت يموه نشاطه النضالي الحقيقي[3]. إنني

---

[1]- نحو 53/52 كان عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب وكان من /المركزيين /أي التيار المعارض لمصالي الحاج وسيصبح فيما بعد مسؤولا لفدرالية فرنسا لجبهة التحرير واعتقل في سنة 57 .

[2] - كانت جمعية العلماء مكونة من رجال الدين من المحافظين الصارمين على القيم الدينية ويعملون في مجال التعليم وكانوا معارضين لسطوة فرنسا في المجالين التعليمي والديني . غير ان العلماء لم يكونوا يحللون هذه السطوة بمفهوم سياسي أي بنظرة وطنية .

[3]- لجأ كثير من مناضلي حزب الشعب الجزائري إلى الجزائر العاصمة تهربا من المراقبة البوليسية. وكان هو الحال بالنسبة إلى الشاب العجاني من منطقة القبائل الذي كان مكلفا بتسيير مطبعة سرية في القصبة. وكان يدير علنا خلية للحزب الشيوعي الجزائري ولم يعرف انتماءه السياسي الحقيقي إلا عندما

مازلت أراه بربطة عنقه الحمراء عندما يلتقي بزبدة موظفي الإدارة في المدينة.

عندما عدت إلى البيت خلال العطلة الصيفية ل1943، لاحظت الضعف الكبير- إن لم أقل الانعدام الكلي- لتواجد حزب الشعب في الأرياف. ونزل حاليت الذي جاء لمعاينة الأوضاع في القبائل الكبرى عند أبي الذي كان يعرفه عن طريق السماع أو عن طريق مناضلين كان أبي يتعامل معهم ويحميهم. وكان يرافقه شخص مبهرج، قائد ناحية دلس محمد زروال الذي تعرفت عليه يومها[1]. زروال لم يتلق تعليمه بالمدرسة الفرنسية، وكان عصاميا كون نفسه في اللغة العربية. وهو أحد أبناء / بني ثور/ قرب دلس؛ ذلك الدوار الذي تمرد في ثورة 1871، وأفقرته عملية مصادرة أراضيه بعد أن قمعت الثورة، وتعرب سكان هذا الدوار. وتلاحظ هذه الظاهرة في عدد من الدواوير في القبائل الصغرى والمتيجة بين البليدة وشرشال؛ ففقدانهم لأراضيهم واجتماع ظروف أخرى أفقدتهم جذورهم اللغوية.

جسديا، كان زروال يذكر بزاباتا، أو على الأقل كما يصوره السينمائيون. ولكنه خلافا لزاباتا، لم يكن زروال قليل الكلام أبدا، كان يهوى إلقاء الخطب التي تبدو أنها بالفصحى مادامت غير مفهومة من طرف مستمعيه. كنا نجلس في ذلك اليوم حول قصعة كسكسي، وكان عمر أوصديق معنا[2]؛ وإذا بزروال يقفز من مكانه تاركا ملعقته الخشبية تسقط، وهو في حالة كأنه يشهر سلاحا في وجه عدو خرج له بغتة. كانت وثبته تلك من أجل إلقاء خطبة تحريضية لجماهير لا يراها سواه . وبدا أبي مشدوها أمام وثبة زروال لكن تبين لي أن سبب دهشته كانت حالة عمر أوصديق الذي كان مأخوذا بتلك البلاغة!

وعمر أوصديق - الذي يكبرني بست سنوات- من مواليد ميشلي. وكان طالبا في معهد تكوين الأساتذة ببوزريعة. ويواصل دراسته آنذاك في ثانوية بن عكنون.

الل وهو يحاول الإفلات من حملة اعتقال بوليسية في القصبة حيث وجد في حوزته وثائق وأختام تسمح بتزوير بطاقات التعريف.

[1]- أودع محمد زروال السجن من 45 إلى 62 .

[2]- عمر أوصديق ابن لعائلة /مرابطين/ كبيرة في القبائل الكبرى أصبح قائدا في جيش التحرير الوطني وسكرتير دولة في أول حكومة جزائرية مؤقتة.

وكنا قد انخرطنا- تقريبا في نفس الوقت- في حزب الشعب السري. وكان أحمد مصالي الحاج- الذي اعتقل ونفي مرارا- يثير فينا إعجابا بلا حدود. و لم نكن نعرف حينها نضالاته القديمة ضمن نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب، التي قادته إلى رأس هذه الحركات. كان هو- وكل القيادة السياسية- تحوم حولهم هالة من التقدير حاكها العمل السري . كانوا في نظرنا أبطالا لا نعرف عنهم إلا ما تتناقله الأحاديث ونطلع على أفكارهم من خلال نصوص ممنوعة.

وينبغي القول أنه نتيجة للتيار الوطني الجارف الذي مس الجزائر من أقصاها إلى أقصاها بعد إنزال الحلفاء في نهاية 1942، ساهم حزب الشعب بقوة في رفع المستوى السياسي عن طريق المحاضرات والمناقشات، متجاوزا بذلك الرقابة الاستعمارية المسلطة على الجرائد الوطنية. ولكن يجب القول والتأكيد على أننا نحن الشباب كنا قبل كل شيء وطنيين جزائريين. كنا متعطشين للثقافة ومتعطشين بصفة مطلقة للبحث عن جذورنا. ولازلت أتذكر نشاطنا الثقافي الغزير في مليانه خلال السنة الدراسية 44/43. والأفكار الكثيرة التي كنا نتداولها داخل فرع الحزب أو خارجه، مع طلبة الفلسفة من مدرسة تكوين الأساتذة ، والذين حولهم نظام فيشي إلى ثانويين.

وخلال السنة الدراسية التالية أي 45/44، رجعت مع الرفاق الموزعين في جهات مختلفة إلى ثانوية بن عكنون. كانت بالنسبة لنا من أجمل المراحل مرحلة الاتحاد المقدس بين كل الفئات الاجتماعية حول جمعية /أحباب البيان والحرية/. وكان هذا الاتحاد بمثابة جبهة وطنية تشكلت في مارس 1944، وجمعت فرحات عباس وحزب الشعب لمصالي الحاج وجمعية العلماء . أما الحزب الشيوعي- الذي انسلخ عن الأمة الجزائرية نتيجة أفكاره الاندماجية - فلم يشارك فيها طبعا. أما نحن الطلبة الثانويين فكنا نضاعف من النشاط. كنا ننشر جريدة /الطالب الوطني/ التي كانت تستنسخ في غرفة المراقب العام عمار بن تومي، الذي أصبح فيما بعد أول وزير عدل في الجزائر المستقلة؛ ونظم إيدير آيت عمران نشيدا وطنيا بالأمازيغية عنوانه /اكر أميس نمازيغ/ أنهض ابن الأمازيغ . أقمنا صلات مع الطلبة الجامعيين وكونا جمعية لطلاب الثانوية نصبنا على رأسها عبد الرحمن كيوان. وكنا نقوم بزيارة شخصيات مختلفة بنادي الترقي للعلماء وبجريدة أحباب البيان /المساواة/.

ففي هذين المكانين- وخاصة في النادي- كانت هناك أنتليجانسيا معربة ومفرنسة خلقت جوا نخبويا، وكانت تهوى الخطابة والبلاغة. ويذكرني هؤلاء بمشتلة الخطباء والمحامين الذين ذكرهم "جوفينال" أيام السيطرة الرومانية، من الأطلس إلى الراين ومن الفرات إلى المحيط الأطلسي. كان يلتقي في هذه الأماكن ممثلون عن البرجوازية، مع أتباع شعبيين لذلك الشيخ أو ذاك، في إعجاب ساذج بالشيخ الخطيب. إذ كان يقال ببساطة: أن الشيخ الفلاني كان رائعا، تكلم ثلاث ساعات ولم يفهمه أحد! في هذه الظروف كان الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء محل تبجيل.

أما نحن، فكان مركز اهتمامنا في جهة أخرى في شارع بوتان[1] في قلب القصبة . هنالك تعرفت على أغلب الإطارات الشعبية المهمة في حزب الشعب الجزائري.

وعندما نتكلم عن شارع بوتان فذلك يعني الدكان الصغير لأحمد واغنون، وهو مناضل قديم في نجم شمال إفريقيا عرف السجون مرات عديدة. وكان هذا التاجر الصغير يتحكم سياسيا في شارعه كله، وربما الحي كله. وباحتكاكنا به، تعرفنا تدريجيا على تاريخ حزب الشعب الجزائري، خصوصا عن طريق حكايات السجن. جسديا، كان واغنون إنسانا ملفتا للنظر: ضخم مربع كأنه مجري. ذو وجه ممصوص ينتهي بشعر كثيف. هذا القبائلي، العصامي ككل المناضلين الوطنيين، الذي كان عاملا في باريس عرف كل سجون فرنسا وسجون الجزائر أيضا. عدو الخطابات بامتياز، كان يتكلم ببساطة وصراحة عن كرامة الإنسان والشرف والوطن. وكان يردد عادة أغنية /في سركاجي/ ، أغنية السجناء تروي ذكريات الزنازين. وكان له نفس الوفاء ونفس التفاني في علاقاته مع الحزب كما مع زوجته- وهي فرنسية كان قد تزوجها في باريس- ومع رفقاء السجن القدامى. فيستقبل بحفاوة الوزاني المسكين، وهو سجين قديم أخلت بعقله قسوة الزنازين.

وعمر الوزاني لا يتجاوز الثلاثين. وهو إنسان نحيل ولطيف إلى حد لا يتصور فيه أحد أنه مختل عقليا. ومنذ خروجه من السجن العسكري، أصبح يتصور أن مهمته هي أن يهتف إلى الذين وقعوا ميثاق الأطلسي، وأعطوا وعودا جميلة للشعوب المضطهدة. ويسأله أحمد في لطف: هل

[1]ـ النقيب بوتان كان قد أرسله نابليون الأول إلى الجزائر لتحضير مخططات الإنزال . وبعد ثلاثين سنة اتخذ الجنرال دوبورمان نفس المشروع لكي ينزل في سيدي فرج.

هتفت اليوم إلى تشرشل أو روزفلت. ولم يكن سؤاله ينطوي على أية بادرة تهكم، كان يفعل ذلك لأنه كان يخشى أن يجرحه لو لم يسأله عن اتصالاته مع كبار الدنيا. فواغنون الكاميكازي- الذي شب في ويلات الزنازين- اخترع بسلوكه نموذجا في الاتصال ونوعا من الأخلاق السياسية.

سأستبق الأحداث نوعا ما، ولكن يجب أن أحكي عن مصير واغنون. فبعد مظاهرة أول ماي 1945 التي كان هو منظمها الأساسي، تم اعتقاله ومورس عليه تعذيب وحشي طوال ثلاثة أسابيع وأعيد إلى بيته وهو يحتضر. ولم يبق فيه إلا رمق قليل كان كافيا لوصف الجحيم الذي مر به، وحتى يطمئن رفاقه، بأنه لم يبح بأي سر تحت التعذيب [1].

ولنرجع الآن إلى خليتنا في ابن عكنون، التي كانت تضم ضمن أعضائها سعيد شيبان الذي سيصبح فيما بعد أخصائيا في طب العيون، والصادق هجرس الذي سيترك حزب الشعب خلال الأزمة المسماة بالأزمة البربرية، ليلتحق بالحزب الشيوعي الجزائري؛ والأهم هو واعلي بناي الذي كان يقوم بمهمة الاتصال بين المنظمات الطلابية والحزب . وواعلي بناي شخصية تستحق أن يخصص لها كتاب كامل. كان الناس في قريته /جماعة نصهاريج/ يلقبونه ب/واعلي انسينيور/أي واعلي ابن السيد. وكان ذلك تعبيرا عن تقديرهم لوالده الذي لم يكن إقطاعيا، بل واظب على فلاحة قطعة أرضه الصغيرة حتى وافته المنية في 1946، في غياب ابنه الذي كان قد التحق بالجبال آنذاك.

كانت هذه القرية الكبيرة - حتى دخول الاستعمار- مكان تجمع العروش وقبائل مناطق جرجرة . وكان النظام القبلي يسمح ببروز أناس ذوي نفوذ مستمد من المال أو الإدارة أو القوة البدنية. غير أن الاحترام لا يعود إلا لمن يستعمل القوة لنصرة الضعيف وشرف الجماعة. ومن يدافع عن العدل ولو كلفه ذلك حياته.

وكان واعلي بناي يتمتع بنفس خصال والده في الكرم، غير أنه لم يكن يشبهه جسديا . ففي حين كان الأب رجلا قصيرا أسمر قليل الكلام منتبها ومعتدلا، كان الابن بطول 1,90م ومفتولا كالنحت في الصخر، أشقر وكثير الحركة. وككثير من أبناء بلدته- الذين أصبحوا مناضلين تحت قيادته- عمل واعلي بناي صانع سلال في كثير من المداشر والقرى

---

[1] ـ عشرون سنة بعد ذلك تقريبا ،في 14 أكتوبر 1964 ، و بعد أن نجوت من كمين استهدف تصفيتي وفقدت فيه صديقي طاهر تامزيت وجدت نفسي في قرية واغنون في منطقة القبائل البحرية . ولا يمكنني أن أصف الشعور الغامر الذي انتابني حين علمت في الصباح أنني قضيت الليلة في بيت عائلته.

في متيجة والعاصمة. كما عمل مزارعا في بوزريعة بأعالي العاصمة، لأن البستنة تعد من التقاليد العريقة لجماعة نصهاريج. وكان محل احترام الجميع حتى صعاليك قاع المدينة الذين كانوا يحسبون له ألف حساب. وشهدت مرة كيف انتزع سلاح أحد قطاع الطرق كان يهم بتصفية حسابه مع أحد منافسيه. وفي سنة 1948، وكنت أنا وهو محل بحث من طرف الشرطة الفرنسية، لم يمنعه هذا من التدخل في "الترام" لنجدة سيدة أوروبية كانت تتعرض لمعاكسة اثنين من الشبان الأقوياء وطردهما بعد أن أشبعهما ضربا. وباختصار، كان بناي بطريقة ما /روبن دي بوا/ القصبة. ذلك هو الرجل الذي أشرف في بداية مارس/ آذار 1945 على أمن مؤتمر أحباب البيان والحرية الذي انعقد على مدار ثلاثة أيام في الجزائر العاصمة. وبفضل واعلي بناي، كنا أربعة أو خمسة طلاب ثانويين ممن تمكنوا من حضور هذا الحدث العظيم. فباستثناء الحزب الشيوعي، كانت كل تيارات الرأي الجزائري حاضرة : فرحات عباس الذي صار الآن مقتنعا بفكرة الحكم الذاتي، الشيخ البشيرالابراهيمي رئيس جمعية العلماء ورفاقهم، وبالطبع حزب الشعب الجزائري الذي كان ممثلا بوفد ديناميكي يقوده الدكتور الآمين دباغين وحسين عسلة. ولم يحضر مصالي الحاج، لأنه كان في هذا الوقت رهن الإقامة الجبرية في الشلالة في الهضاب، على بعد 200 كلم جنوب غرب الجزائر. وقد دعم وفد حزب الشعب مندوبو الحزب الآخرين كممثل قسنطينة مسعود بوقادوم الذي كان متمرسا في التكتيكات والتقنيات المستعملة في هذا النوع من الاجتماعات. وهو ما سمح لحزب الشعب الجزائري أن يكون المحرك الحقيقي للمؤتمر، وبرز ذلك في اللوائح النهائية والمعبرة عن مدى تأثير الأفكار الوطنية.

وبرز مثقفو ما سيعرف فيما بعد بالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري /الذي تأسس في ربيع 1946/ بتدخلات رفيعة. وأذكر فيمن أذكر الدكتور أحمد فرنسيس والمحامين أحمد بومنجل، قدور ساطور، والهادي مصطفاي[1]. ولكن الذي ترسخ في ذاكرتي هو الدكتور سعدان[2]؛ فهو شخصية جذابة بحركاته الأنيقة وكلماته المقتضبة وصدقه الذي كان

---

[1] - كان الدكتور احمد فرنسيس والأستاذ أحمد بومنجل من المقربين لفرحات عباس وتقلدا بعد الاستقلال حقائب وزارية في حكومة بن بلة .

[2] - كان الدكتور شريف سعدان عمليا نائبا لفرحات عباس وتوفي نحو 1948 .

ينير وجهه الزاهد (كان يعاني أثناءها من مرض السل). كنا نلمس فيه ذلك الذكاء الحاد الذي يميز مواطنينا في الجنوب.

ومن بين العلماء، كان الشيخ العربي التبسي يستعمل بلاغة تتهكم من البلاغة ملقيا كلاما واقعيا يذهب مباشرة للقلب دون ديباجة معقدة ولا تنميق، ولكن دون تبسيط مبتذل.

كان مؤتمر"أحباب البيان والحرية" نقطة تبلور وتجسيد للوعي الوطني. فالحماس الشعبي الذي نتج عنه أعطى دفعة استثنائية لتنظيم الفروع على المستوى الوطني. وكان جو الخوف الذي خلقه المعمرون الكبار غداة المؤتمر دليلا على البعد السياسي، لكن مع الأسف كان مؤديا أيضا إلى أحداث ماي 1945 المأساوية.

2

شهر مأساوي ،أسبوع تاريخي

لقد كتب الكثير عن المجزرة الجنونية التي وقعت في ماي 1945، وعن نتائجها السياسية. ومن جهتي سأحاول أن أبين كيف عايشت الأحداث من الداخل أو على الأقل أن أصف الجو الذي أحيط بها.

في الواقع، لم نتعرف بالتدقيق على بشاعة وفداحة القمع الدموي الذي سلط على مناطق القبائل الصغرى والجهة القسنطينية- التي كانت تسميها الإمبراطورية الرومانية بإفريقيا القيصرية- إلا بعد شهرين من وقوعه.

لقد مر اليوم على تلك الأحداث أكثر من خمسين عاما، وهو ما يستوجب التذكير بها. ولا يجب أن نتساءل كيف كان يجب لحوادث ماي أن تحدث، بل بالأحرى يجب أن نتساءل كيف كان يمكن أن لا تقع؟ لقد سبقتها حملة هستيرية شاملة ونداءات للقمع وللقتل شنتها دوائر كبار المستعمرين غداة مؤتمر أحباب البيان والحرية.

إنها حرب سياسية ونفسية ليست بالجديدة، حيث لم تنقطع ولم تتوقف منذ بداية الاستعمار في 1830. كان القمع والعمليات العسكرية يسبق أو يتبع بحملات دعائية؛ والغاية واحدة هي إخضاع الأهالي. وبالتالي، كان النقاش السياسي ممنوعا، لأن ذلك يعني تفتحا واستماعا ودراسة مشتركة وجدلية. فحرية التعبير- التي يفرضها النقاش السياسي- تتنافى أصلا مع الواقع الاستعماري، الذي يعتبر أن لا نقاش مع شعب غير موجود.

وبالنسبة لهؤلاء المعمرين، فلم يكن معقولا أن يرضخوا لمطالب الأهالي، وبلا تردد يختارون موقع الجلاد بدلا من أن يكونوا //جبناء//! في أبريل/ نيسان 1945 كان انتصار الحلفاء على النازية والفاشية وشيكا، غير أنه كان ينتابنا شعور بأننا محاصرين مرة أخرى بأجواء الحرب. كان الحزب يعيش في حمى تحضير مظاهرات أول ماي حيث كان عيد العمال فرصة تاريخية للتأكيد على الطموح الوطني إلى جانب المطالب الاقتصادية والاجتماعية. وكنا نحن طلبة الثانوية نريد المشاركة في المسيرة السلمية التي ستجري في شوارع العاصمة، واتصلنا لهذا الغرض بواعلي بناي الذي نهرنا عن ذلك، مفضلا بقاعنا في "الاحتياط".

وقد جرت المظاهرات في معظم المدن الكبرى، في الجزائر العاصمة اتخذت المظاهرة طابعا جماهيريا كثيفا. انطلقت مسيرتان، الأولى من حي بلكور والثانية من القصبة، على أن تلتقيا عند البريد المركزي وقصر الحكومة العام، أي في قلب الحي الإداري للعاصمة، لقد لبت العاصمة- ومن الأعماق - نداء الحزب السلمي، وخرجت كرجل واحد للمظاهرات. وتدخلت الشرطة بقوة لمنع التقاء المسيرتين. وأمام تدفق العمال، أطلقت النيران مخلفة سبعة قتلى وعشرات الجرحى. وهكذا بعد الخطابات الكولونيالية انطلقت آلة عنف الدولة الرهيبة. وفي المساء جاء واعلى بناي إلى ساحة ثانوية بن عكنون ليروي لنا وقائع المظاهرات، وكان مشقوق الحاجب من ضربة أخمص بندقية تلقاها خلال المظاهرة. كان في مقدمة المتظاهرين في شارع ايزلي /العربي بن مهيدي حاليا/ يحمل مع زملائه لافتة كتب عليها " سلم وحرية ". وبعد الهجوم الأول للشرطة ، لم يبق في يده سوى مقبض اللافتة الذي سرعان ما حوله إلى عصا ليفتح بها ممرا للمظاهرة الكثيفة، التي عزم المشاركون فيها على احترام المسار المحدد لها. لقد حمل واعلي أجساد المناضلين الذين سقطوا ، ومنهم الشاب غزالي بلحفاف ومحمد زيار.

لا يمكن فصل أحداث أول ماي هذه عن المنطق القمعي والديناميكية الثورية. فإذا كان هدف السلطة الاستعمارية إرهاب الرأي الجزائري، فإنها لم تحقق هدفها، فسياسة الأسوأ تؤدي دائما إلى تكثيف التآزر العاطفي بين الناس. وفي هذه الحالة بالذات، أدت إلى تحول نفسي وسياسي حقيقي.

غير أنه وبعد أسبوع من ذلك اليوم- في 8 ماي 1945، يوم النصر للحلفاء- عرفت الجزائر ما أسميه ثورة 1871 المعكوسة. لقد شنت حرب حقيقية على سكان منطقة البابور، تلك المنطقة التي كانت أحد المعاقل الأخيرة للمقاومة الجزائرية[1]. ففي خراطة وقرب سطيف، قام السلاح الجوي والبحري بدك قرى بكاملها. وقامت القوات العسكرية- مدعمة بالميليشيات- بمطاردات رهيبة للجزائريين في العديد من المدن في المنطقة القسنطينية، خاصة بقالمة وهليوبوليس. كما قام الفرنسيون بتسليح مساجين الحرب الألمان والإيطاليين المعتقلين في المنطقة، حيث قتلوا الأطفال والنساء، وانتقموا من القناصة الجزائريين الذين هزموهم

[1] ـ موجودة في القبائل الصغرى وكان الرومان يطلقون عليها اسم/الجبال الحديدية / لأنها معقل وطني حصين .

في معركة "مونتي كاسينو". وطالت الإعتقالات آلاف الجزائريين في كل البلاد، بدءا طبعا بالقادة. فزج بفرحات عباس والشيخ البشير الابراهيمي في السجن، وكان مصالي قد نفي إلى إفريقيا الاستوائية في نهاية أفريل[1].

وفي يوم 15 ماي جاء واعلي إلى فرع بن عكنون بحثا عن متطوعين للالتحاق بالجبل. شخصيا، تريثت وأعطيت لنفسي مهلة للتفكير، لم يكن من السهل ترك الدراسة في خضم الاستعدادات الحثيثة للجزء الأول من شهادة البكالوريا، التي كان يفصلني عنها أقل من شهر. وهناك عائلتي التي كنت سأقضي على آمالها، إضافة إلى جملة من التساؤلات السياسية. ولم أتمكن من اتخاذ القرار إلا بعد يوم من التفكير. ولا أنكر أن القطيعة كانت مؤلمة بالنسبة لي[2].

ولكن جابهتنا صعوبة أولى تتمثل في كيفية الانسحاب من الثانوية دون لفت الانتباه. وكانت تقابلنا في الأسبوع التالي عطلة عيد ديني مسيحي "عيد الخمسين". وكتبت كلمة اعتذار قدمتها للمراقب العام في الثانوية، تعللت فيها بندرة وسائل النقل نحو قرانا الأصلية وأننا وجدنا فرصة للذهاب إلى بيوتنا لقضاء العطلة والاستعداد للامتحانات. كان العذر ضعيفا ولكنه كان علي أن أقدم أي عذر ممكن.

وفي المساء، أوصلتنا سيارة أجرة إلى تيزي وزو، نحن الخمسة، وواعلي بناي معنا. وكان صاحب السيارة محمد زكال مناضلا قديما من حي بلكور.

ولم أنس أبدا تلك الرحلة، إذ يحضرني إلى اليوم أحيانا صوت المحرك والوطأة الدرامية لصمتنا من بداية الرحلة إلى نهايتها[3].

---

[1]- نفي إلى فرانسفيل بالغابون ثم إلى برازافيل بالكونغو .

[2]- كان لاختيار بعض الزملاء طابع الحماس والتهور إذ تجندوا على الفور ثم تراجعوا عن قرارهم أياما قليلة من بعد. كان ذلك الحال بالنسبة لسعيد شيبان الذي اضطر للتراجع تحت الضغوط العائلية. لقد احترمنا قرارهم الشخصي ولم نعاتبهم وبقينا زملاء جيدين.

[1]- كانت السيارة ذات اللون الأصهب من نوع سيتروون و قابلتها مرات عديدة فيما بعد، كنا نسميها/تاكسي الوطن/ وكان كزال يقوم قبل اندلاع الحرب بنقل وتوزيع "جريدة البرلمان الجزائري" لسان حال حزب الشعب الجزائري. اعتقل في سنة 56 وتوفي تحت التعذيب. قبائلي محافظ، كان كزال يتقبل بصعوبة النضال "السافر" لابنته فاطمة التي كانت تشارك في المجموعات الثقافية والمسرحية ابتداء من 47 .أصبحت فيما بعد السيدة بن عثمان ، كما أصبحت فاطمة من أوائل مقدمات التلفزة الجزائرية .

لقد كنا نمضي نحو علامة استفهام. وفور نزولنا شاركنا في اجتماع مجلس المقاطعة الذي عقد في الهواء الطلق، وحضره حوالي عشرة مسؤولين يمثلون إما منطقة من القبائل الكبرى أو أحد مستويات هياكل الحزب.

وبموازاة حرارة الجو السياسي، كانت حرارة أشعة الشمس تلهب منطقة القبائل بسياطها اللاذعة. وبذلك الصوت المؤثر الذي يتميز به، فتح حاليت الجلسة بكلمة قصيرة حول "المرحلة التاريخية التي تجتازها بلادنا وخطورة الساعة". كان أشبه بالممثل المسرحي "بول موريس": نفس الهيئة الجسدية ونفس المظهر وحتى نفس النبرة. أو لم نكن في مسرح التاريخ؟ ثم أعطى الكلمة إلى آرزقي جمعة، الرجل الأمين الذي كان يقوم بمهمة رجل الاتصال مع المكتب السياسي للحزب. وهو من مواليد القبائل الصغرى، ويعرفه كل مناضلي القصبة القدامى.

قام آرزقي جمعة وقال الجملة المصيرية :" قررت القيادة الانتفاضة العامة في يوم 23 ماي 1945 على الساعة الصفر". ثم أضاف في شرح مقتضب: "في سطيف وفي منطقة قسنطينة يجري قتال منذ 8 ماي".

هل كانت معلومات استراتيجية أم تعليمات تكتيكية؟ ولكنه استطرد : "إن الجيش الذي شكله الحزب جنوب المنطقة الوسطى سيتحرك نحو الشمال. يجب استنفار الشعب الجزائري والقيام بهجمات في كل مكان".

وبعد أن أدى مهمته نام جمعة منهكا من التعب. وكمسؤول للمقاطعة انتقل حاليت إلى النقطة الثانية: الوضعية النظامية للحزب، وقدم كل مسؤول منطقة تقريره. وإن لم تخني الذاكرة كان تعداد الرجال يتراوح ما بين 60 إلى 100 لكل منطقة من المناطق الثمانية، وهي: برج منايل، ذراع الميزان،المنطقة الساحلية دلس/تيقزيرت،آزفون،عزازقة، ميشلي، فورناسيونال/التي استعادت اليوم اسمها /الأربعاء ناث ايراثن/ وتيزي وزو.

وارتجل زروال- قائد ناحية دلس- خطابا طويلا بالفصحى حول الجهاد. وإن لم تكن تخفى علي أخطاؤه الإملائية والنحوية إلا أنه أدهشني حين قال "سأقوم باستنفار كل القبائل لأزحف على الجزائر"!

كنا ننتظر من القيادة تعليمات دقيقة، أو على الأقل ملامح مخطط عام، غير أن شيئا من هذا القبيل لم يكن مطروحا. كنا ننتظر حصيلة جدية حول تعداد الإطارات العسكرية والرجال والأسلحة ولم نسمع شيئا

عن هذا الموضوع . ولم يكن يفصلنا إلا أسبوع واحد عن موعد الانتفاضة.

واستلمنا رسميا تعييناتنا في مناطق مختلفة، وحسب المصطلح المعهود "كنا تحت تصرف المنظمة المحلية". عين العيمش في فورناسيونال وبناي في عزازقة، وأوصديق في منطقة دلس/تيغزيرت، وأنا وحمودة في ميشلي. اقتربنا من بعضنا لنتبادل الانطباعات والأفكار، وكان واعلي يرصد بقلق ردود أفعالنا. وبالطبع كانت هناك أسئلة خطيرة تراودنا، ولكن ألم يكن الحدث الذي يحضر له أمرا خطيرا للغاية؟ ومع أننا كنا نشعر بالخيبة نتيجة ضبابية أوامر القيادة ، إلا أننا لم نطعن فيها.

فبحماس إيماننا كنا في حاجة إلى أن نثق في قادتنا بالعاصمة. وكنا نقول لأنفسنا أنه ربما لديهم مخطط أو أوراق سرية لم تكشف بعد. وكنا نقول أنهم ربما أعطوا لمنطقة القبائل دورا استراتيجيا ثانويا، وهو ما يفسر التعليمات البسيطة والمقتضبة التي أعطيت. أولم نسمع عن جيش في جنوب الجزائر؟ كنا متشبثين بقوة بالفرضيات المتفائلة، ما عسانا نفعله عندما نعرف القوة العسكرية التي يملكها النظام الاستعماري؟ وفي النهاية قررنا نحن الخمسة أن نحافظ على الاتصال فيما بيننا، خمسة، إنه رقم القدر[1]!

وقررنا أن نلتقي يوم 19 ماي في فورناسيونال، لكي نقيم الأوضاع على مستوانا. وافترقنا ومتاعنا الوحيد كان إيماننا بمستقبل البلاد، وبيقين واحد هو أننا أحرقنا جميع سفننا.

يمثل فور ناسيونال نوعا من القلعة المتقدمة بناها الاستعمار في قلب جبل جرجرة، بعد معركة /ايشريدان الكبرى[2]/. التقينا يوم 19 ماي بالقرب من الأسوار العالية للقلعة، وبدأنا نتبادل ملاحظاتنا حول الأوضاع. وأول ملاحظة كانت عن أعداد الرجال المعلن عنها خلال اجتماع مجلس المقاطعة، والتي ذابت كلية تحت الشمس لأنها غير موجودة أصلا. في الواقع كان معظم المناضلين المذكورين مجرد متعاطفين، وبالمفهوم العاطفي فعلا. فأرقام الاشتراكات المسددة ليست مؤشرا مؤكدا، خاصة أن بعض قادة المناطق كانوا يدفعون من جيوبهم

---

[1]- في 1956 كانت حادثة الخمسة للطائرة المختطفة .أعطت المخيلة الإسلامية الشعبية صفة إيجابية للرقم 5 ، الأركان الخمسة ، الصلوات الخمس، أصابع اليد «يد فاطمة...

[2]- حصلت المعركة في 1857 وكان انتصار الفرنسيين حاسما لتوغلهم في القبائل الكبرى الذي تعزز نهائيا في نفس مسرح العمليات خلال انتفاضة 1871 .

حتى لا يظهر أنهم أقل عددا من زملائهم في المناطق الأخرى. لقد رسخ الحزب الأوهام بعد الانخراط الواسع في الحركة الشرعية لأحباب البيان والحرية. ولكن الحقيقة كانت تتمثل في انعدام التنظيم، وفي المستوى الضعيف للتأطير السياسي الذي كان يبعد كل البعد- فكريا وماديا - عن التصورات العصرية.

وعندما كنا نسأل الشيخ نافع فرنان، المسؤول عن منطقة فورناسيونال، عن عدد المناضلين المتوفرين، كان يجيب دون تردد: "لا تبالوا سنجدهم". إنها برودة أعصاب قد تثير غيرة الجنرالات!

ومع أنه لا يمكن التشكيك في وفاء وتفاني الرجل[1]. إلا أن هذا اللاوعي بدقة الأمور كان شيئا مفزعا حقا. وعلى أية حال، كان ذلك يضعنا أمام حل بسيط : علينا أن نتدبر الأمور وحدنا.

وذلك ما فعلناه حتى يوم 22 ماي، حيث قمنا بتجنيد فرق المشاة للكشافة الإسلامية الجزائرية التي سبق أن نظمناها منذ سنة. وكان لهذا الشباب المنخرط في النشاط الكشفي كلمة واحدة يرددها" العمل، العمل..". وقمنا بتلبية هذه الرغبة، ونظمناهم في شكل مجموعات كومندوس. كما قمنا بجمع أسلحة فردية وبنادق صيد ومسدسات من عند المواطنين. وكان يتم توجيه المناضلين المؤهلين جسديا إلى فرق الكومندوس، فيما كان الباقون- وهم غالبية من الأعيان - يوجهون إلى العمل السياسي الخلفي، والمتمثل في تأطير الجماهير، وإن اقتضى الأمر إلى تجنيد المتطوعين عند انطلاق الانتفاضة .

وبعد التحكم في زمام الأمور، انشغل فريقنا بالمشكلة الاستراتيجية : ما العمل؟ وقررنا أن نركز كل نشاطنا على فورناسيونال، ذلك المكان المحصن الذي يتحكم في كل منطقة القبائل الكبرى، ويسيطر على الوديان المجاورة.

ومع أنها كانت منطقة تواجد عسكري، فقد اعتبرنا مدينة تيزي وزو هدفا ثانويا. وكذلك الحال مع دلس ومدن وقرى أخرى، كان من السهل الهجوم فيها على مراكز الدرك والسيطرة عليها.

---

[1] - سيكون أخوه. حنفي أحد قادة منطقة الأربعاء التي ستنضم فيما بعد إلى الولاية الرابعة ، وسيقتل من طرف قوات الشرطة هنالك في الأربعاء أين كان يقوم بمهمة بعد 1954 .

كان العيمش يشرف على ناحية تيزي راشد / شمال غرب مدينة فورناسيونال/، بينما كانت ناحية بني واصف من ضمن صلاحياتي. وكان تحت تصرف كل واحد منا مائة رجل كومندوس تم تشكيلهم من "المشاة "، أي من الكشافة التي تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة.

وإذا ما قدرنا ما كانت عليه مدينة فورناسيونال آنذاك، فإن مسعانا كان شبيها بمحاولة تحطيم دبابة مصفحة بالأسنان!

ولكن الحظ حالفنا، إذ وجدنا مساعدة ثمينة من داخل الحصن، حيث كان يتواجد فيه شباب جزائريون يؤدون الخدمة العسكرية، وكان رجلنا من داخل الحصن العسكري برتبة مساعد "ادجودان"من مواليد القبائل، لقبه السكان" آفو أيزيمر" أي /ذو الخروف/، لأنه كان لا يرى إلا في صحبة خروف. وعندما اتصل به فريقنا وجده متحمسا للقضية الوطنية وللثورة. وكأن الأمر بالنسبة لديه قد بات مسألة شرف، لأنه كما كان يقول: لا يمكن ترك إخواننا في المنطقة القسنطينية وحدهم، فضلا على أنه يعتبر أن الثقة في قيادتنا في الجزائر العاصمة" أمرا واجبا.

وتم التحضير للعملية معه ومع حسين سيد أحمد[1]، الذي كان من مثقفي الحزب القلائل الذي يملك نوعا من الخبرة العسكرية اكتسبها لدى مروره بمدرسة الضباط بشرشال. وقد تم التخطيط للاستيلاء على الحصن بدقة ، مستندين إلى الخرائط والرسوم البيانية.

وتشاء الصدف أحيانا أن تخلق ظروفا مساعدة. ففضلا عن تجنيد "الادجودان" من داخل الحصن، كان عامل الوقت مساعدا للغاية. فقد كان العسكر الفرنسي ينظم مساء كل أربعاء عرضا سينمائيا للمدنيين[2]؛

وقررنا أن يغتنم أعضاء الكومندوس هذا الوقت بالذات لاقتحام الحصن. وتم تحديد يوم 22 ماي 1945 ليلا موعدا لذلك .

وهكذا تم التخطيط لتكون قاعة سينما مسرحا لأول عمل في حركة الانتفاضة[3]. وكان على "الادجودان" مهمة الاستيلاء على مخازن الذخيرة والأسلحة، حيث يعمل على تعيين رجال تابعين له لمراقبتها. وكان على مناضلينا أن يستفيدوا من عامل المفاجأة، لتحييد العسكريين الاستعماريين الذين يحاولون المقاومة. وكانت علي وعلى العيمش مهمة

---

[1]- من مواليد قرية سومر ، معقل لالا فاطمة وكان يقربني بالمصاهرة.

[2]- باستثناء مدينة تيزي وزو ، كانت قاعات السينما منعدمة في المنطقة.

[3]- حددت قيادة الحزب يوم الخميس 23 ماي على الساعة الصفر موعدا لانطلاق التمرد .

قيادة الكومندوس، ولم يكن أمامنا إلا ثلاثة أيام فقط لتدريب الشباب على هذه المهمة.

ماذا سنفعل بعد الاستيلاء على حصن نابليون[1]؟ لم تكن لدينا الكفاءات ولا الوقت للتفكير في أبعد من ذلك. غير أننا كنا نرى أن مئات من القرى المجاورة ستصبح في منأى عن نيران مدفعية الحصن الرهيبة. كما كنا نرى أننا سنتمكن بعدها من مراقبة وادي سيباو، أو على الأقل تحييد تجمع تيزي وزو العسكري بفضل التحاق الجنود الجزائريين والمغاربة والسنغاليين الموجودين هناك.

كما كنا نقول لأنفسنا بأننا سنتدبر الأمر في وقته، بعد أن تكون عمليات مماثلة قد جرت في مناطق أخرى من القبائل ومن الوطن. وكنا نردد ما قيل لنا عن ذلك الجيش الذي تم تكوينه جنوب العاصمة والذي سيزحف نحو الشمال. وفي كل الأحوال، كنا نرى أن عمليتنا الإستراتيجية على فورناسيونال ستسمح لنا بالتزود بالأسلحة والذخيرة الموجودة في سراديب الحصن، مما يمكننا من تسليح آلاف المناضلين!

وقررت مجموعتنا أن تلتقي بعد يومين أو ثلاثة أيام من بداية العمليات، من أجل تدارس الوضع وبرمجة أعمال أخرى، وتنسيقها مع ما سيحدث في الجزائر والجهات الأخرى.

في الواقع لم يعط لنا القادة الوطنيون خطا نتبعه، وهو ما كان يثير سخط واعلي بناي، في حين أنه لم تكن لنا من التجربة والممارسة ما يمكننا من التخطيط للمدى البعيد ولا حتى المتوسط. ولكننا كنا نعرف ما الذي يجب أن نتفاداه، إذ كان يجب تفادي الانتفاضة الجماهيرية كما حدث في ثورة 1871، حيث تحطمت ثورة الأهالي تحت قوة نيران المدافع المنصوبة في أعالي الجبال. كما كان علينا أن نتفادى المعارك المنظمة، كتلك التي قادتها جيوش الأمير عبد القادر، أو تلك التي خسرتها القبائل بعد عشر سنوات من استسلام الأمير سنة 1847 أمام جنود الماريشال روندون في ايشريدان[2] سنة 1857. غير أن حرب العصابات

---

[1]- كانت فورناسيونال تسمى من قبل فور نابليون.

[2]- توجد ايشريدان على بعد بضع كيلومترات من فورناسيونال. وعرفت مقاومة ما بين 1857 و1871 ولكن الجيش الفرنسي بقي مسيطرا.

التي خاضها المواطنون والمتطوعون خلال هذه السنوات العشر كلفت قوات الاحتلال كثيرا من الخسائر[1].

إن هذا النوع من المقاومة أمر فطري لدينا ، كأنه متوارث تحمله الجينات عبر الأجيال وكذلك الحال في عدم تكرار أخطاء الماضي. ومن هذه الملاحظات وصلنا إلى بلورة عملنا. كان من الضروري القيام بالتأطير السياسي للسكان وتفادي الفوضى والهلع والتجاوزات العفوية والمبادرات الانفعالية حتى تتم السيطرة على الوضعية العسكرية. وكان علينا أن نتجنب الأسوأ - أي الأسوأ منا نحن.

تلك هي القرارات نصا وروحا التي اتخذت في ذلك الأحد، وكان على عمر أوصديق تبليغ فحواها إلى باقي النواحي .

وهاهو يوم 22 ماي قد وصل. قضيت صبيحته كلها في السوق الريفية الكبيرة لبني واصف للقيام بالترتيبات الأخيرة، في حين كان خمسون عضوا من الكومندوس مستعدين ولم يتراجع واحد ممن تم اختيارهم. وقد جمعنا خلال الأيام الثلاثة الماضية عددا من الأسلحة الخفيفة : كان لدينا على الخصوص بنادق صيد وبعض المسدسات، وحتى بعض القنابل اليدوية. وكنا قد تدربنا على صناعة قنابل المولوتوف، وتهيأنا بدنيا تحت غطاء الأنشطة الكشفية.

وقامت زوجات وأخوات بعض المناضلين بخياطة عشرات الرايات بالألوان الجزائرية. ولكي نقطع مسافة الخمسين كيلومترا التي تفصلنا عن الفورناسيونال، كان بحوزتنا شاحنتان وسيارتان خاصتان أعارها لنا أصحابها للفترة الليلية[2]. وكنا قد قررنا إقامة مراقبين على امتداد المسافة، كي ينبهوا قافلتنا في حال وجود نقاط تفتيش أو حواجز مراقبة للشرطة.

وبدت سوق بني واصف الأسبوعية وكأن الحمى ألمت بها. إذ لم يكن المواطنون يعلمون رسميا بما كان يدبر، لكنهم كانوا يلاحظون تحركات كثيرة تسمح لهم بالتنبؤ بذلك، فضلا عما كان ينشر من شائعات عن معارك كانت منطقة قسنطينة وحتى منطقة العاصمة مسرحا لها.

---

[1] ـ كانت بعض الجرائد تتهكم على الجنرال روندون آنذاك قائلة ان عدم تمكنه من ترويض منطقة القبائل هو ما يقف عائقا أمام تقليده رتبة الماريشال.

[2] ـ تسلمت الشاحنتين من بن اعراب من قرية تيكيشورت ، رجل تمكن بفضل ساعديه فقط من فتح خطين للحافلات تربط بني واصف بالعاصمة وقسنطينة .وقد عرض علي حافلاته ، وفي ذلك اليوم وضع في قلمون برنسي مسدس 9 ملم نمساوي وحوالي مائة رصاصة . تأثرت لذلك كثيرا ولازمني المسدس حتى نهاية 1951 ، عشية خروجي للمنفى في اتجاه القاهرة .

قررت مع عمار آيت حمو المعلم[1] - والذي صار مفتشا للتعليم فيما بعد- وأبناء العم بلحاج (أرزقي الذي أصبح معلما وعمار الذي صار طبيب أسنان) الاجتماع بنخبة من الأعيان الموثوق بهم، منهم أبي قائد بني واصف[2]. إنهم "تجماعت اطناش"، مجلس الاثني عشر الذي تم عقده في بوعبد الرحمن، إحدى قرى بني واصف. وكان من المستحسن استرضاء الحكماء باطلاعهم على مشروعنا(دون إعطاء التواريخ) حيث سيرون ذلك دليل ثقة.

ولهذا النوع من المجالس طابع من الأبهة، حيث يشهد سلوك المشاركين فيه على جديتهم وروح المسؤولية التي يتمتعون بها.

أبلغهم ولد حمودة بالنبأ العظيم. وطغى صمت مثقل بالذهول. كان على تجماعت أن تقرر في مصير الدنيا، وبالفعل كانت القضية تخص العالم، عالمهم، عالم سكانهم ونسائهم وأبنائهم الذين يعرفونهم والذي عليهم واجب السهر على مصالحهم[3]. وهم في هذه المرة يواجهون قرارا يتجاوزهم حيث كان قد اتخذ سلفا من طرف القيادة الوطنية لكي يطبق على التراب الوطني. وكان أول من أخذ الكلمة شيخ عجوز اشتعل رأسه شيبا(سي محند الحسين) ، رجل قضى ثلاثين سنة من عمره في باريس، وناضل بصورة نشطة في صفوف اليسار الفرنسي. له ثقافة رهيبة تحميها ذاكرة جبارة، حيث كان بمقدوره أن يذكر لك موضوعا أدرج في البكالوريا حول أعمال روسو وفكتور هيغو وفاليري .. وعندما رجع إلى قريته الأصلية، أصبح سلطة أخلاقية لا غبار عليها. وتكلم سي محند الحسين، وقال ما معناه"إنها قضية جد خطيرة هذه التي أطلعتمونا عليها،

وإننا نخشى أن تكون مغامرة مرعبة تتسبب في جلب الويلات على الناس، ولكننا سنكون معكم وإلى جانبكم. يمكنكم أن تعتمدوا علينا." ثم تدخل في نفس السياق سي احسن من قرية تيكيدونت؛ لم يكن متعلما، ولكنه كان يتمتع بحكمة الريفي وفي إمكانه أن يقدم أفكاره الصائبة

---

[1] - بعد ان اصبح مفتش تعليم في كوت ديفوار دخل التقاعد في فرنسا .

[2]- عندما وصلت إلى البيت كان أبي قد استلم برقية من مدير الثانوية يطلب منه تفسيرا لذهابي المفاجئ . وبالطبع كانت عائلتي مندهشة . وكعادته أخذني أبي على حدة كي يحاول إعادتي إلى رشدي . وخرجت بالكاد من الورطة بالكلام عن المشاركة في فترة أكتوبر للبكالوريا . وكان لأبى أسبابا للقلق حيث كنا مجموعة من الثانويين تركت الدراسة في نفس الوقت .

[3]- بالنسبة لهم لاوجود لكيان مجرد اسمه "الشعب الجزائري" بل هناك أناس من لحم ودم لجماعات حية ومتفاعلة.

مستعملا كلمة بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى، ليصيغها بأفضل طريقة؛ فيما كان يطعم كلامه بحكم وصور بليغة.

هذا الرجل البسيط المنبت، بقدر ما كان محل تقدير وحب كل من وراء الواديين الكبيرين اللذين يحيطان بالدوار. فهو مهاب الجانب لقوته البدنية، حيث لا يتردد- إن اقتضى الأمر- في استعمال قبضته في المعارك بقدر ما هو محترم لاعتداله ونصرته للحق . فلم يحدث قط أن ضرب أحد أو أهين في حضرته. ثم تدخل أبي مبديا رأيه ليؤكد- دون أن يعرب عن ثقة فياضة- دعمه لمسعانا، وبأنهم سيؤيدوننا عند الأهالي. ولكنه أعطى لنا تحذيرا ضمنيا، عندما ذكر أن جدنا الشيخ محند الحسين قد رفض الالتحاق بالمحاربين في ثورة 1871، وكان شابا آنذاك ، لأنه رأى فيها حركة بدون تحضير. ولكنه في نفس الوقت رفض إدانة الثوار، مما أدى إلى سجنه في فورناسيونال. وكان ذلك درسا مفيدا، مع أننا في تلك اللحظة لم نعطه الأهمية اللازمة.

هاهي ليلة الاستنفار ليوم 22 ماي قد وصلت. وقد تقرر انطلاق الموكب في الساعة التاسعة ليلا مع حلول الظلام. وقبلها- عند السادسة مساء بالضبط- اتصل بي العيمش وأبلغني كلمة السر"مقراني" ثم أضاف مسرعا: " لا تأت لقد تأجل العرس". طلبت منه أن يبقى على الخط ، وناديت عمار بلحاج ، طبيب الأسنان المستقبلي، لكي يسمع بدوره فحوى الرسالة. بصورة فطرية كنت أريد أن يشاركني إنسان آخر وطأة الخبر الذي تلقيته، والذي بدا لي وكأنه الصاعقة. ويعيد العيمش الرسالة لبلحاج" لقد تأجل العرس،لا تأتوا هذا المساء".

هكذا انتهى ذلك الأسبوع وياله من أسبوع . وعرف ذلك - في الخطاب التاريخي الرسمي للحركة الوطنية - ب"الأمر" و"الأمر المضاد". وشخصيا، لم ألق اهتماما إلا لما حدث بينهما، كانت فترة محمومة أرى فيها استمرارية تاريخية لوطنية لم تستسلم أبدا .

بعد الإلغاء، تمت السيطرة الكلية والسريعة على الوضع السياسي في منطقتي القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وفي منطقة آزفون. فرغم صعوبة الاتصالات- نتيجة تكثيف نقاط التفتيش للشرطة والدرك- تمكن

"الهاتف القبائلي" من تأدية دوره، حيث لم يسجل أي اعتقال، ولم يظهر شيء في فور ناسيونال إذ لم تلاحظ السلطات العسكرية الفرنسية أية تحركات مشبوهة.

ومع ذلك كانت الأمور مهيأة في كل التجمعات، باستثناء ميشلي[1] للاستيلاء على المباني الإدارية وعلى مقرات الدرك .

وبالمقابل، تدهورت الأمور في المنطقة الموجودة بين بوغني وتيغزيرت. ففي غياب كلي للتأطير السياسي لم يستطع عمر اوصديق- الذي أرسل إلى هناك لأنه من أبناء المنطقة (كان أهله يملكون ضيعة هناك)- التحكم في الأوضاع. وكذلك كان الحال بالنسبة لمحند السعيد معزوزي، وهو طالب ثانوي في تيزي وزو، التحق بالجبل.

وتفاقمت هذه الصعوبة أكثر نتيجة الطبع العنيد والبركاني لقائد المنطقة، زروال، الذي كان من الصعب التحكم فيه.. في حين كان زميله في منطقة برج منايل، محمد بللونيس، أكثر اعتدالا إلا أنه كان رجلا صعب المراس.

يمثل الرجلان نموذجا من "الزباتية" المكسيكية المليئة بالعنف الشعبوي المضاد والمكثف ضد هياكل الاستبداد السياسي والاستغلال الاجتماعي الفاحش .

هناك تمت التحضيرات بصفة علنية. وعندما وصل "الأمر المضاد"، كانت جماهير الفلاحين المجتمعة في الجبال تتأهب للانقضاض على المدن الاستعمارية الصغيرة، بعد أن أدت صلاة الجهاد. وقد تم توقيف هذه المسيرات التمردية الكبرى في آخر دقيقة. لكن ذلك لم يمنع نشوب حوادث هنا وهناك، كقطع أعمدة الهاتف وتعرض خطوط سكك الحديد للتخريب بالقرب من لعزيب وبرج منايل. وكان هذا كافيا ليقرع المستعمرون الكبار[2] والإقطاعيات الإدارية طبول الحرب، وبسرعة أخذ القمع العسكري والبوليسي مجراه الكلي.

قامت الشرطة القضائية وشرطة الاستعلامات العامة ومديرية مراقبة الإقليم باعتقال مسئولي مناضلي المناطق الحضرية.

ولم ينج قائد الكشافة الإسلامية لمنطقة القبائل، صالح الونشي، من الاعتقال، مع أن دوره كان هامشيا نسبيا. وبعد اعترافات قائد ناحية ذراع الميزان، محند آوشيش تحت التعذيب، اعتقل قائد المقاطعة حاليت، الذي لم تفده ربطة العنق الحمراء لموظف في مكتب التوثيق في شيء . ففي

---

[1]- قرر فرع الحزب في ميشلي بعد اجتماع موسع تأجيل كل عمل حربي مباشر انتظارا ربما لمعلومات عما سيحدث في الأماكن الأخرى .

[2]- الذين استفادوا من 500 ألف هكتار من الأراضي التي تمت مصادرتها بعد ثورة 1871 .

ليلة 22 ماي اعتقلت الشرطة الرسول الذي بعثه- في آخر لحظة إلى البويرة - آوشيش المسؤول المحلي لحزب الشعب الملقب ب"القائد ذو الحصان الأبيض"[1]. ووجدت في حوزته تعليمة الأمر المضاد التي كانت مدونة بطريقة خاصة، حيث كانت تأمر "بعدم ذبح الثور". واعتقل إثر ذلك القائد ذو الحصان الأبيض وتم تعذيبه. بالنسبة لآوشيش الشجاع، يمثل الحصان رمز الاستمرارية التاريخية للمقاومة. وبالطبع كانت المخيلة الجماعية تسرد قصص الأحصنة النبيلة التي حطمت تحرك الألوية الرومانية، وأعطت البريق الوهاج للمسابقات التي كان ينظمها القادة والنبلاء الرومانيون لتلهية الشعب.

هذه التحولات التي أثرت على هياكل الحزب، ومست المجتمع في العمق، فرضت على فريقنا مسؤولية التكفل بإعادة تنظيم منطقة القبائل الكبرى. فالاتصال كان منعدما كليا مع الجزائر العاصمة، وعلى كل حال لم يكن ينتظر من القيادة شيء. هذه القيادة التي فقدت بريقها يوم 22 ماي حين تخلت عن المقود. وإذا كان الأمر بالانتفاضة قد فاجأ وأقلق المناضلين، فإن الأمر المضاد أحدث صدمة عنيفة. بالطبع ارتاح كثيرون لذلك لأن انعدام التحضير كان واضحا، ومع ذلك كان من غير الممكن تقبل أن تتخذ القمة قرارات ثم تلغيها باستخفاف، في حين كانت لها عواقب وخيمة على مستوانا.

ومن هذه الحوادث استخلص فريقنا أمرا إيجابيا، حيث أصبح لا يؤمن بالسلطة-المعجزة للجزائر العاصمة. وكان علينا أن نطير بأجنحتنا وأن نصغي أكثر للواقع الغلياني والمتفجر لمجتمع يريد أن يعبر عن نفسه، ولشباب يبحث عن تنظيم صفوفه.

وبدأنا نطلع على ما حدث في باقي أنحاء الوطن. في الواقع لم تكن هناك أحداث كثيرة باستثناء مدينة سعيدة، حيث قام مناضلو فرع الحزب بإضرام النيران بمقر البلدية ، وتم على إثرها اعتقال أغلب أعضائه. وأيضا في شرشال، حيث تم الإفشاء ثم التحكم في خطة تمرد في مدرسة الضباط نظمها الرقيب /السرجان/ السابق في الجيش الفرنسي عمر أوعمران. وقد زج بأوعمران في الزنزانة، وحكم عليه فيما بعد بالإعدام[2]. أما الجيش الذي قيل أنه مهيأ جنوب العاصمة، فإننا لم نعد

---

[1]- كان لاوشيش حصان ابيض رمزا للصفاء والنبل ومكانته في رتبة المحارب .

[2]- استفاد أوعمران من العفو العام في مارس 46 والتحق بجبال القبائل مع كريم بلقاسم وسيصبح عقيدا فيما بعد في جيش التحرير الوطني .

نسمع عنه شيئا بعد ذلك. هل كان الكلام عنه وهما وخدعة من القادة في العاصمة، أم كانوا هم أيضا ضحية لمعلومات خاطئة من مجموعة البرواقية ؟ وكيف كانت ستؤول إليه الأمور في منطقة القبائل؟ تلك قصة أخرى[1].

في ذلك الوقت، فقد الحزب- الذي لم يكن متواجدا بكثافة في الأرياف- كل قدرة على التأثير.غير أن مأساة سطيف كانت لها وطأة كبيرة على الضمير الشعبي، وبدأت الأمور تتضح ببطء. هناك برز خط قوة صار يقود وينمي الإحساس الوطني. ففي يوم انتصار الحلفاء، أغرقت طموحات الجزائريين في حمام من الدماء، وذلك في جو من عدم الاكتراث من الحلفاء والرأي العام العالمي والضمير الكوني.. امتلأت قلوب الجزائريات والجزائريين غضبا واستنكارا.. وبدأ التمرد- بالمفهوم الذي قدمه كامو- يسود في النفوس، وأصبح اللجوء إلى النضال المسلح من ضمن الأمور الممكنة والمحتملة.

فالفظاعات المرتكبة في هليوبوليس، والقنبلة التي قامت بها السفينة الحربية " دوغاي تروان"الراسية بمقربة من جيجل، والقصف بالطائرات على مدا شر القبائل، أحيت وثبة حيوية في الأعماق الشعبية.

وبدأ ينضج وعي ثوري لم يكن لحزب الشعب[2]- الذي فرض عليه الصمت - دور في ذلك..كما لم يكن للحزب الشيوعي[3] دور فيه أيضا،

وهو الذي كان ينتهج خطا انتهازيا واستعماريا تحت تصريحات فضفاضة، ولا كان لجمعية العلماء[4] دور فيه هي الأخرى، حيث فرضت

---

[1]- هناك فرضية معقولة من جملة فرضيات لخرى : "رغم انعدام التحضير الاستراتيجي ، كانت الحركة ستكون قوية وجماهيرية في منطقة القبائل .وكانت المقاومة ستدوم عدة أشهر أو سنوات وتتسع بالضرورة إلى الصومام والجزائر .ولكن المجزرة كانت ستكون رهيبة أيضا لأنه لا يمكن ان يقبل ديغول تلك الحوادث في الجزائر العاصمة التي أضحت معقلا سمح بتوحيد فرنسا واعادة بناء الدولة الوطنية الكبرى . لذلك كان من المنتظر ان يكون سخيا في حشد وسائل القمع مكلفا الجنرال كاترو ا بالعملية .

[2]- كان قادته المطاردون قد دخلوا في السرية .

[3]- شهران بعد مجازر الشمال القسنطيني والقبائل صرح أمين عام الحزب الشيوعي الجزائري خلال المؤتمر العاشر (26-30 جوان 45) :" ان الذين يطالبون بالاستقلال هم عملاء واعون أو غير واعين لإمبريالية لخرى ".وأثناءها قل ليون فيكس مسؤول الحزب الشيوعي الفرنسي المكلف بالشؤون الاستعمارية :" من الواجب التنديد بسلوك أولئك الذين يريدون تقسيم الجزائريين وزرع الشك بينهم وبين فرنسا الديمقراطية ". للتذكير فان القصف الجوي ضد القرى وعلى المدنيين كان بأمر من وزير الطيران شارل تين ، الذي أقصي فيما بعد من الحزب الشيوعي الفرنسي .

[4]- اغلب قادة جمعية العلماء كانوا رهن الاعتقال ولدى خروجهم من السجن بعد عفو 46 ضموا أصواتهم للأصوليين اليساريين ليندوا بنشطاء حزب الشعب المجانين "لن نضحي بأنفسنا من أجل

مسافة بينها وبين الحركة الشعبية. فالتيار الوحيد، وأنا استعمل هذه العبارة لأنني لم أجد أحسن منها، الذي تمكن من إدماج النزعة الراديكالية للثورة هو الإسلام الشعبي ، ذلك الإيمان.. إيمان البسطاء الذي تبنى عددا من القيم الثقافية والأحداث الحضارية التي أتته من الخارج .

ففي حين كانت الإدارة تسيطر بصورة محكمة على الأمور في المدن[1]، دخلت الجماهير الريفية في المعترك السياسي .

فالفلاحون الصغار، الفلاحون الفقراء الذين ازدادوا فقرا من جراء الحرب والنمو السكاني، أفرجوا عن طاقات ثورية جديدة، لها القدرة على بلورة التحولات التي حدثت في المجتمع الجزائري من منظور استراتيجي وتكتيكي. وليس من باب الصدفة أن مجال البؤس الاجتماعي كان من نصيب المعاقل التقليدية للمقاومة المغاربية. فهناك استمرار تاريخي راسخ في الذاكرة الجماعية من تاكفاريناس إلى عبد الكريم، مرورا بعبد القادر والمقراني .

وغداة تلك الانتفاضة- التي انطفأت قبل أن تنطلق- لم نكن نحن طلبة الثانوية قادرين على ذلك التحليل، ولكننا كنا نلمس تضامنا له دلالاته. فلم نسجل في منطقة بني واصف إلا وشاية واحدة للإدارة، كانت من فعل ساكن من قرية تيكيدونت مصاب بهوس سياسي. وقد أرسل إلى الإداري الرئيسي في ميشلي تقريرا هذيانيا حول المشوشين والحركات التمردية. وكاد أن يكون مضرب تفكه ونكتة لو لم يكن مليئا بالسموم: قصير القامة، مختبئ دائما في قندورة واسعة من القطيفة وبرنس من خيط المرمة وله شوارب ضخمة.

ووضعنا أنا وآيت حمو تصورا لعقاب لن ينساه أبدا،قررنا أن نجرده من ثيابه يوم السوق، ثم نلبسه فستان امرأة عجوز ثم نقص شواربه. ولما

علم أبي بمشروعنا سارع في إرسال الرجل إلى إقامة جبرية، بحجة أنه مثير للمشاكل. وقال للمسير الرئيسي:"قريتي في سلام، ماذا تريدون أكثر من هذا؟ إذا أردتم إعطاءه مكاني فأنا مستعد للتنازل له عنه. ولكنه

جهلة "، ذلك ما كانوا يقولونه . في الواقع كان رفضهم لحزب الشعب وسيلة لتغطية خوفهم ، فقد جعل السجن من بعضهم أناسا "عقلاء" جدا .

[1] - تم اعتقال الأغلبية الساحقة من إطارات مناضلي حزب الشعب وأيضا الوجهاء الذين كانوا يقودون حركة أحباب البيان والحرية .

إن بقي هنا فإنني غير قادر على ضمان سلامته. فهو لا يمكن أن يخرج دون إثارة سخط الأطفال[1]."

انقطع اتصالنا مع القيادة في الجزائر، لأن الكثيرين من الإطارات المحلية كان قد تم اعتقالهم. ومن أهم الإعتقالات التي قامت بها الشرطة هو اعتقال سيد علي حاليت، الذي كان قائد منطقة القبائل ويفترض أنه يعرف أسماء ومخابئ القادة العاصميين. ولجأت الشرطة القضائية في تيزي وزو فورا إلى التعذيب، لإجباره على الإدلاء بالمعلومات. وقد مورست ضده كل فنون التعذيب، من كهرباء ومغاطس الماء ، ثم حول إلى الجزائر بفيللا سوزيني (أو فيللا العصافير) التي بقيت مكانا للتعذيب حتى الاستقلال. كما بقيت كذلك للأسف سنوات بعد الإستقلال.

لقد قضى ثلاثة أسابيع تحت التعذيب كانت أياما من جحيم. ولما أوشك على فقدان كل قواه قرر أن يلعب ويخاطر. وقد قص علي أنه ذات أحد- وكان هناك حارس واحد بالمكان- لاحظ أثناء تنقله إلى المرحاض أن باب الفيللا كان مفتوحا. وطلب ثلاث مرات الذهاب إلى المرحاض، وتردد في الفرار ثلاث مرات. وفي المرة الرابعة، رفض الجلاد السماح له بالذهاب إلى المرحاض، ثم عدل عن ذلك، لأنه لم يكن يخشى أن يقدم إنسان منهك متهالك يعاني صعوبة كبيرة في أداء أية حركة على الفرار.. فلم يكن سيد علي قادرا على الوقوف، فكيف له أن يركض. لكنه ركض وركض.. لقد وجد في يأسه- وربما في أمله- الإرادة والقدرة الجسدية التي تخرجه من الجحيم.

ركض- وهو يترنح كالمجنون- من شارع برو/شارع الشهداء/ إلى شارع ديزلي/العربي بن مهيدي / أي ثلاث كيلومترات على الأقل. وهناك دخل إلى كشك تبغ يملكه مناضل صعب عليه التعرف على سيد علي من الوهلة الأولى، لأن وجهه كان منتفخا ومغطى بالكدمات.

بعدها تم نقله إلى منطقة القبائل، حيث اعتنينا به، وعانى خلال أسابيع طويلة من ليال مليئة بالكوابيس. ومازال أبناء عائلتي- الذين كانوا كلهم أطفالا آنذاك- يذكرون إلى اليوم فزعه.. كما يذكرون لطفه أيضا. لقد صمد تحت التعذيب.. وبعد أن تأكدنا أنه لم يفش سرنا- وكان ذلك

1- للإشارة فإن للأطفال دورا فعالا حينما يكونون مصممين . وسنرى خلال معركة الجزائر كيف تمكنوا من تضليل المطاردات بإطلاقهم الصفير الجماعي كي يغطوا على صفارات الضباط المنادين على جلودهم .

مطابقا لمعلومات اخرى حصلنا عليها- استخلصنا ان فريقنا المكون من طلبة الثانوية ليس محل بحث، وإن راودت السلطات الفرنسية بعض الشكوك.

وقرر مجلس المنطقة- الذي تمت إعادة تشكيله- انه يتعين علينا العودة إلى الجزائر العاصمة، والتقدم لامتحان البكالوريا. وتم استدعائي على جناح السرعة إلى /عزازقة/ لتبليغي القرار. ورفضت في البداية، لأن القرار يخصني أنا، كما أنني رأيت فيه استهانة بخطورة الخصم. وكان ما يحز في نفسي أكثر احتمال الفشل في الامتحان .

ورضخت في النهاية. ولم تكن عودتنا إلى ثانوية بن عكنون في يوم الامتحان لتمر دون أن تلفت الانتباه. اقترضنا من هنا وهناك بعض الأدوات الضرورية، من أقلام ومماحي وفراجير ومناقل، وركبنا الحافلة في اتجاه المعهد مع المترشحين الآخرين .

كان الامتحان الكتابي يحتوي على مواد الفرنسية والفيزياء والكيمياء واللغات وعدد من المواد الأخرى. أما الامتحان الشفهي فكان يضم نفس المواد إضافة إلى التاريخ والجغرافيا.

نجحت أنا والعيمش في الوصول إلى المسابقة الكتابية. ومن بين ثلاثة مواضيع كتابية اخترت روسو، روسو الثائر في نظرته للتعليم وبأفكاره الفلسفية والسياسية[1]. كما نجحت في حل مسائل الفيزياء والرياضيات، لكنني لم أفلح كثيرا مع الأسئلة المرتبطة بالدروس، التي كنت أعتبرها نوعا من "النحو" العلمي لا فائدة منها عندما نتمكن من الآليات؛ إذ تصبح مجرد عبء على الذاكرة .

فالنحو والإعراب والنظريات الرياضية تهم المختصين ، أما بالنسبة لعامة الناس فالمهم أن تعرف كيف تتكلم وتكتب وتحسب بطريقة جيدة .

حصلت على أسوأ نتيجة في الامتحان الشفهي، في مادة الجغرافيا. فعملية القرعة اختارت لي موضوع المقارنة الجغرافية والاقتصادية بين الحوض الباريسي والحوض الأكيتاني. ولم يكن لدي مجال للمراوغة أو التمويه، لأنني لم أكن أعرف شيئا في هذا الموضوع. وسئلت في مادة التاريخ عن حملة مصر النابوليونية. وانبريت أشرح في كلام مسهب

[1]- تنبأ لي رفقائي والمعلمين بالفشل لأنني في رأيهم أسأت اختيار الموضوع ولكنني تطرقت له بحماس كان في صالحي على ما يبدو .وفي الامتحان الشفهي سئلت عن الشاعر رونسار وراقني ذلك .

حتى لا يقاطعني المشرف على الامتحان بأسئلة دقيقة حول تواريخ الأحداث. وهكذا ذكرت بسرعة المعارك، وتوسعت في موضوع النقلة التي أحدثها نابليون في مجال البحث الجغرافي واللغوي والثقافي في هذا البلد.

وعندما حصلت على الجزء الأول من البكالوريا، أعطيت دون إرادة مني آمالا كاذبة لعائلتي[1]، إذ كنا- أنا والعيمش وولد حمودة وأوصديق- قد قررنا التخلي عن الدراسة[2].

لقد كنا في مواجهة مسألة أكثر عظمة، مسألة ملموسة : الكفاح التحرري الذي يفرض على الإنسان التعاطي مع الواقع، وخلق زوايا التحرك والتعامل.

لقد فتح الثامن من ماي 45 مرحلة تاريخية جديدة كانت تتطلب أشكالا جديدة في التنظيم والنضال. وكان لتجندنا الأثر المهم، لأن أعضاء مكتبنا السياسي- إطارنا القيادي- كانوا محل مطاردة في ذلك الحين. كما كانوا يواجهون كما هائلا من المشاكل العملية، منها صعوبة العثور على مأوى أو تمكين مناضل من الاتصال بمنطقة الجزائر أو منطقة أخرى. ففي ظل الرقابة الإدارية والبوليسية للجزائر يمثل عقد اجتماع فيها أمرا خارقا للعادة.

وكان هناك خلال تلك الفترة رجال عظماء بنشاطهم وشجاعتهم، أمثال عبد الله فيلالي وأحمد بودا. أما حسين عسلة فقد اعتقل في الفاتح من ماي، وحول إلى مستشفى بارني بسبب مشاكل عضوية في القلب[3]. وقام حاج شرشالي[4] مع فريق القصبة بجرأة وذكاء بتهريبه، إذ دخلوا إلى المستشفى في زي مسعفين ممرضين. وكان لهذا الحدث صدى عميقا عند المناضلين الشباب. أما محمد بلوزداد الذي كان موظفا في الحكومة العامة فقد قفز من النافذة عندما سمع وصول الشرطة إلى البيت، وظل

---

[1]- تقدمت لامتحان الجزء الثاني من البكالوريا بعد عشرين سنة من الامتحان الأول وكنت في سجن الحراش. أما الموضوع الفلسفي فكان :الاستسلام.

[2]- كنت أعلمت والدي بذلك. وقد كان نجاحي مفاجأة تامة بالنسبة له حيث كان يظن أنني كنت في جولة. وقد علم بذلك عن طريق جريدة أعطاه إياها أحد المواطنين في السوق.

[3]- انسداد في الصمام القلنسي أدى إلى وفاته في 1948.

[4]- انخرط في حزب الشعب سنة 39 في الجزائر وكان عضوا في المكتب السياسي من 42 إلى 51 وهو من المركزيين. واصبح فيما بعد عضوا ساميا في الحكومة المؤقتة .اعتزل السياسة بعد الاستقلال وهو في سن 69.

مختبئا في زاوية من شرفة الجيران. وكاد جميع القياديين أن يسقطوا صدفة بين أيدي الشرطة في ظروف غريبة.

سمعت بالقضية فيما بعد في أكتوبر/ تشرين الأول، عند أول عملية اتصال لي مع الجزائر العاصمة . وأرى أنه من الفائدة فتح قوس لسردها. كنت حينها عند بائع الخمور في القصبة حيث كنت أقضي الليلة. وانطلق عمار خليل[1] يحكي:"كاد معظم أعضاء المكتب السياسي أن يسقطوا وهم في هذه الغرفة. حول هذه الطاولة كان الدكتور مصطفاي[2]، وفيلالي[3] واثنان آخران يتسلون بلعبة الورق. فجأة رأيتهم يتجمدون كلهم. ولم يسعفني ثقل سمعي أن ألاحظ انقطاعهم عن الكلام قبل قليل. وإذ بهم يتسلقون النافذة الواحد تلو الآخر، في نفس الوقت الذي كان فيه الباب يطرق. عمد عسلة إلى تحوير صوته كي يبدو صوت امرأة وسأل: "من هناك". وجاءه الجواب: "شرطة". أنا لم أسمع شيئا، لكنني وجدت نفسي اتخذ نفس الطريق الذي سلكه الآخرون . وانطلقت راكضا أتسلق مدرجات القصبة نحو أعالي المدينة. عسلة - الذي فر معي - لم تسعفه علة قلبه فوقف يسترجع أنفاسه. سألته عما يجري، فصرخ في أذني:"الشرطة" ، ثم قفز جاريا".

وكانت البقية أطرف. قفز خليل جاريا.. وأخذ يركض ويركض حتى وجد نفسه أمام ثكنة أورليانس /ثكنة علي خوجة حاليا/ . وأمره الحراس السنغاليون بالتوقف لكنه لم يعرهم انتباها،وبدأت مطاردة عنيدة. عاد راكضا نحو القصبة،ورغم معرفته بأزقتها والجهد الكبير الذي بذله لم يتمكن من الإفلات من الجنديين اللذين واصلا مطاردته. واستجاب خليل إلى حدسه فدخل إحدى /الدويرات/، ليجد نفسه وسط مأدبة عرس. تخلص من بعض ثيابه واندس بين الحضور، آخذا ملعقة من أحدهم وانهمك يأكل بصورة طبيعية من قصعة الكسكسي. دخل الحراس إلى المكان وراحوا يتفقدون الوجوه.. لكنهم عجزوا عن تحديد ملامح الفار. واستجابوا لكرم الضيافة الجزائرية حين دعوا إلى أكل الكسكسي .

---

[1]- سألتقي مرات عديدة بعمار خليل الذي كان يدير مطعما صغيرا بالقصبة وكان دائم النشاط والوفاء.

[2]- الدكتور شوقي مصطفاي عضو الحكومة التنفيذية المؤقتة شارك في توقيع اتفاقيات إيفيان 62 . كما شارك في جوان من نفس السنة في المحادثات مع المنظمة السرية المسلحة .اعتزل السياسة بعد الاستقلال .

[3]- عبد الله فيلالي أحد قادة حزب الشعب منذ 37 مؤسس وقائد الحركة الوطنية الجزائرية .اغتيل في باريس سنة 57 .

وإذا كانت الحادثة تبدو اليوم مثيرة للضحك، فإنها كانت تؤكد أنه بدون حد أدنى من التنظيم والأمن لا يمكن لأحد أن يضطلع بمهام القيادة، والإلمام بالمشاكل التي تطرح على المستوى الوطني. وقبل أن أنتهي من سرد هذه الحادثة، تجدر الإشارة إلى أنه خلال اتصالي مع الجزائر اقترحت على القيادة أن تأتي إلى القبائل الكبرى لتستقر هناك. فقد كان بإمكانها التمتع هناك بأمن تام، مع كل إمكانيات الاتصال المطلوبة، في انتظار أن يعيد عناصرنا السيطرة على الأمر في الجزائر. لكن هذا الاقتراح لم يقبل نتيجة لأفكار مسبقة ولعوائق نفسية كانت أقوى. واندهشت فيما بعد عندما تأكدت أن بعض القادة في الجزائر- بما في ذلك من هم أصلا من منطقة القبائل- جاهلون تماما بأعماق البلاد.

ولأننا في تقاريرنا المالية كنا نكتب "لاشيء" في خانة مصاريف السفر، مع أننا كنا في تنقل مستمر[1]، كانوا يتصورون أنه في حالة مجيهم عندنا سيحتم عليهم قطع الجبال والوديان كالصقليين الخارجين عن القانون. مع أن حاليت قائد المقاطعة السابق، والذي كان ذو صحة ضعيفة، كان يتمتع ببحبوحة في المأكل والمسكن، وكان يقوم عندنا بمهام بيروقراطية، كمعرض الصحافة وحصيلة سياسية. لم يكن كل الناس مجبرين على التنقل ليلا عبر دروب الماعز!

كنت قد تكلمت فيما سبق عن تجندنا، وكان لنا ما يشغلنا في تحضير الانتخابات المحلية أو المجالس العامة المبرمجة لنهاية سبتمبر 1945. ومع أن القيادة لم تستشرنا في الموضوع، فقد قررت سياسة صائبة تمثلت في مطالبة الشعب الجزائري بمقاطعة هذه الانتخابات. كانت الجماهير متأثرة بشكل كبير من جراء مجازر سطيف وقالمة، وكانت الأرضية مهيأة لمثل هذا النداء. فالامتناع عن المشاركة هو الموقف الأقل ضررا، في ظل جو الرعب السائد، والذي كان غير موات للعبة الديمقراطية والتعبير الحر.

في ظل ذلك نزل علينا أمر بدا لنا عبثيا على المستوى السياسي، تمثل في طلب التصفية الجسدية للمرشحين للانتخابات المحلية. وقام عمر أوصديق بإبلاغنا هذا الأمر، وكان يبدو متحمسا لفكرة ردع "الخونة"[2]. وبعد مداولة لمجلس المقاطعة، أعربنا عن رفضنا القاطع لهذا الأمر، وأوفدنا مبعوثا إلى العاصمة للمطالبة بإلغائه. وقام واعلي بناي بتلك المهمة. وكان طرحنا أن الانتفاضة المجهضة قد خلقت لنا وضعية جد

---

[1]- كنا نتنقل مشيا على الأقدام بل حتى حفاة لأن صنادلنا المطاطية لم تكن لتعمر طويلا .

[2]- كان ذلك ربما فرصة سانحة لاستعمال الحزب قصد تصفية حسابا ت عائلية .

صعبة . فالطابور المغربي والجند الاستعماري واللفيف الأجنبي لا يكفون عن تطويق وتمشيط منطقة القبائل الصغرى. كنا نواجه صعوبة في إخماد أشكال معينة من المقاومة المسلحة. فكل عملية فردية يتبعها تمشيط واحتجاز رهائن /الزوجة أوالأخت /، لإجبار المتهمين بارتكابها على تسليم أنفسهم.

ولكي نتمكن من السيطرة على الوضع كان لابد من القيام بإعادة التنظيم والتأطير السياسي. فبعد العملية المبهمة لشهر ماي، هل كان يجب الدخول في مغامرة أخرى واستنزاف آخر لمجرد هدف انتخابي؟ كنا نرى أنه ليس من الضروري اللجوء إلى إجراءات خطيرة من هذا النوع لتحقيق نجاح حملة مقاطعة الانتخابات المحلية. وهكذا اخترنا إقناع المواطنين، عن طريق عمل تحسيسي من قرية إلى أخرى، وعن طريق إنشاء خلايا سياسية كالتي بدأت تتواجد في أغلبية الدواوير و المداشر. لقد انتهى الامتثال الأعمى. لن يكون هناك مرتزقة، وعليكم -أي قيادة الجزائر- أن تكفوا عن سلوك الانكشاريين. لم تطلق أية رصاصة في الجزائر العاصمة وفي باقي البلاد، وتريدون أن يحدث ذلك في القبائل فقط؟ ولم يتردد واعلي في استعمال الكلام المباشر، مما ترك مستمعيه بودا وفيلالي مشدوهين.

تصورنا أننا أقنعناهم. وكان بودا قد أعلن أنه سيأتي في مهمة مراقبة إلى منطقة القبائل مع نهاية شهر أوت. ولكن كان هناك تعنت من بعضهم. وبمبادرة منه أو بأمر من القيادة، قام فيلالي بتجاوز مجلس المقاطعة، واستقبل في 42 شارع القصبة زروال مسؤول منطقة دلس. وقام بشحنه وحثه على قتل الخونة الذين يقدمون ترشحهم. كان زروال وبللونيس[1] قائد منطقة برج منايل ناطقين بالعربية، وبدا اللعب على هذا الوتر في منطقة القبائل الصغرى - حيث يتكلم الناس العربية والبربرية- ضد القبائل الكبرى.

وأدت المزايدات إلى إشعال العمليات الإرهابية. وكانت العملية الأكثر إثارة- مع أنها لم تصب هدفها[2] بسبب التسرع والارتجال- تلك التي استهدفت البشاغا آيت علي، حليف وخادم كبار الإقطاعيين في منطقة تيغزيرت. شارك فيها الشاب معزوزي[3] بأمر من مسؤوله زروال طبعا.

---

[1]- الجنرال محمد بللونيس : الذي حارب جبهة التحرير باتفاق مع السلطات الفرنسية، وصار مبعث قلق لدرجة ان قام حلفاؤه بتصفيته سنة 1958 . وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقا .

[2]- أسيء اختيار مكان الكمين .

[3]- كما شارك فيها عمر حداد الذي سنلتقي به فيما بعد في هذا النص .

ولكنه قبل القيام بها أيضا لأن البشاغا عدو وراثي لعائلته، مثلما كان المترشح عبد السلام ب/ميشلي/ عدوا وراثيا لعائلة اوصديق.
ودخلت منطقة القبائل الساحلية في دوامة العمليات والقمع العسكري والبوليسي.

لقد تمت التضحية بمناضلين أفذاذ، ودخلوا في أعمال بطولية دون أدنى بعد سياسي. غير أن هناك حادثة مثلت نقلة نفسية هائلة، وتمثلت في تصفية قائد أحد دواوير برج منايل كان معروفا بحقده وساديته في القمع. وكان للحادثة صدى واسعا، لأن القايد كان قد تسلم رسالة تحدد يوم وساعة تصفيته. وكان ذلك عمل لوناس خطاب الذي تنكر في شكل متشرد يجمع أعقاب السجائر. وهكذا تمكن من التسرب من خلال شبكة الحراسة التي نسجها الدرك والشرطة، ووصل إلى هدفه وقتله. والأدهى ن ذلك أنه تمكن بعد ذلك من الإفلات، بفضل عامل المفاجأة وبرودة لدم[1]. غير أن الغطرسة الاستعمارية لم يكن لها أن تطيق تحدي بعض المقاومين، فأطلقت العنان- باسم المسئولية الجماعية- لآلة القمع ضد كل المواطنين. لم يسمع القادة في الجزائر عن ذلك ، كما لم يسمعوا باعتقال زروال[2] والعديد من المناضلين الذين بقوا في السجون 17 سنة ، أي حتى وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962.

متأثرا بإرشادات القيادة ، دخل زروال في دوامة. وقد فقد حريته لأنه ذهب بعيدا، حيث طلب من أحد المناضلين أن يقتل أباه. ولكي ينقذ أباه لجأ هذا المناضل إلى الشرطة وقام باعتقال قائده.

في المقابل، كانت المقاطعة قوية في منطقة القبائل الكبرى، ودون اللجوء إلى المسدسات. فالعديد من الدواوير والقرى أخذوا المبادرة وعزموا على نبذ كل من يخالف أمر المقاطعة. والنبذ عقوبة قاسية، بل حتى مجحفة، إذ تطال حتى نساء وأبناء المنبوذين الذين يحرم الكلام معهم، سواء في الطريق أو في نبع الماء العمومي.

لهذا يمكن القول أن المترشحين قاموا بحملتهم الانتخابية في صحراء خالية من السكان. ففي سوق بني بوشعيب/عزازقة/ قام فلاح مناضل بمجادلة قوية مع شقيق أحد المترشحين الشيوعيين. وفي ميشلي لم تكن

1- لقد كان في أفريل ضمن الكومندوس الذي هاجم مقر البريد بوهران .

2- لم تتم محاكمة هؤلاء" الإرهابيين" إلا عام 1952 وأغلبهم بقي في السجن حتى 1962 .سأتكلم في الجزء السادس عن محاكمة ال56.

متاعبنا مع عبد السلام وهو" بني وي وي" قديم أي إمعة، بل مع خالي شريف بن قداش الذي تمكن عن طريق استغلال علاقاته الشخصية وسمعة العائلة من تجنيد جزء من الناخبين. إنها حالة عجيبة لا يمكن فهمها جيدا، إلا عندما يعرف المجتمع القبائلي من الداخل. ابن قائد كان في نفس الوقت مرجعا روحيا وشاعرا كبيرا، قدم هذا المهندس في الأشغال العمومية/طرق وجسور/استقالته لكي يخلف أباه في القيادة. وسرعان ما دخل في نزاع مع المتصرف الإداري الاستعماري الرئيسي دومون[1]. وكان هذا الأخير يسير الأمور بتعسف كبير، مفشيا الفساد في هذه البلدية المختلطة التي كان يقطنها أكثر من مائة ألف نسمة. كما كان هذا الإداري يحول ويبيع لصالحه شاحنات المؤونة التي كانت ترسلها شركة الأهالي للاحتياط. وقد قرر بن قداش أن يتقدم كمترشح حر للانتخابات، حتى يقف في وجه هذا الطاغية. وعندما طلب استشارتي في الموضوع التقينا، وتمكنت من إقناعه بالعدول عن مشروعه. وقلت له أن الانتخابات لها اليوم معنى آخر غير الصراعات البائدة، بل المسألة هي صراع من أجل التحرر.

وفي يوم الثلاثاء الذي سبق الانتخابات- وكان يوم السوق الأسبوعي- التقينا في مخزن دكان بميشلي. وحضر اللقاء عمر اوصديق، ولد حمودة، وبعض المناضلين وأبي وخالي. وهنا تدخل خالي قائلا : "أعلمكم أنني شتمت المتصرف الإداري، وكدت أن أحطم وجهه. وأنني استقلت من مهامي كقائد وسأترشح للانتخابات. لهذا طلبت منكم المجيء. أنتم تعرفون تعاطفي مع حركتكم، لكن يجب مساعدتي في محاربة المرشح الإداري". وعد اوصديق بالمساعدة، ولكنني تدخلت بصفة مباشرة وذكرت خالي بحوارنا، مؤكدا له أنه لا يمكنه انتظار دعمنا. ومادمنا ندافع عن فكرة الامتناع عن التصويت، فإننا سنقاومه ككل المرشحين. وأدى هذا التدخل إلى خصومة عائلية دامت شهورا طويلة.

أعطت جهودنا ثمارها، حيث كان نجاح حملتنا من أجل المقاطعة يعود أساسا إلى الملصقات الحائطية التي كانت تعترض السائر في كل مكان؛ إذ غطت الطرقات والأشجار وكل الأسواق. وقد أتعبت رجال الدرك والخيالة والحرس الاستعماري، الذين كانوا مترددين بين واجب

---

[1]- يعود أول حكم قضائي ضدي إلى هذا المتصرف الإداري. فبايعاز من قائد دوار وقع عشرة شهود لائحة تتهمني بالقيام بنداء للثورة خلال اجتماع انتخابي بسوق ايلولة . وقد حكم علي غيابيا طبعا بسنة سجنا.

الصعود لإزالتها والرغبة في المحافظة على وقار البزة. كل ذلك كان يتم تحت أنظار جمع غفير من المتهكمين.

3

وثبة أمة.. يوميات معقل

كان الشباب الجزائري قد حمل مشعلا ركنه مؤقتا إخوانهم الكبار ممن ذهبوا للدفاع عن فرنسا، فقد كانت فرنسا تجد فيهم من المميزات ما يجعل منهم جنودا دون أن تمنحهم صفة المواطنة. فبرغم أن الجزائريين كانوا محرومين من حق التصويت في المؤسسات التمثيلية الفرنسية، إلا أنهم كانوا في المقابل مجبرين على أداء الخدمة العسكرية تحت رايتها.

ويجب- في هذا المقام- توسيع المجال التاريخي لكي نوضح الصلة بين ظروف السيطرة الاستعمارية في الجزائر وتطور حركات المقاومة الوطنية. فمن وراء الخرافة السياسية والقانونية التي كانت تجعل من الجزائر "أرض فرنسا في إفريقيا" تتميز بلدنا بكونها مستعمرة استعمارا استغلاليا واستيطانيا في نفس الوقت. لقد تم تجريد الجزائريين من ثلاثة ملايين هكتار لصالح السكان الأوروبيين الذين تم إدخالهم ومساعدتهم على ذلك لأغراض عسكرية واقتصادية، ولأسباب مرتبطة بالسياسة الداخلية. فعند نهاية عهدة الماريشال بيجو في 1847، كان في الجزائر 110 آلاف أوروبي /أقل من نصف هذا العدد من أصل فرنسي/ مقابل ثلاثة ملايين من السكان الأصليين. وقد شجع ماريشالات إفريقيا-الذين ساهموا في انقلاب 2 ديسمبر 1851- على الترحيل القصري لعائلات فرنسية "جمهورية" خاصة إلى منطقة الغرب /وهران/. وتمكن هؤلاء الماريشالات من انتزاع الحق لمستخلفيهم من الإمبراطور نابليون الثالث في مواصلة الغزو العسكري، وأيضا استقدام الوفود البشرية الضرورية للاستعمار المدني للمناطق المحتلة أو التي ستحتل.

وفي كتاب رائع حول "الأقدام السوداء" حكى دانيال لوكونت خيبات وويلات السكان الأوروبيين الذين وعدوا بالجنة، والذين تم التلاعب بهم بطرق شتى، حتى يصبحوا أعوانا للعسكر. أما المعمرون الأغنياء فقد استحوذوا على إقطاعيات حقيقية.

كان انتصار ألمانيا على فرنسا عام 1871، الذي أدى إلى ضياع الألزاس واللوران، قد تزامن مع قمع آخر ثورة شعبية في الجزائر. وكان ذلك في القبائل، وأدى إلى حجز 500 ألف هكتار لصالح العائلات اللورانية والألزاسية التي كانت ترفض العيش تحت الاحتلال الأجنبي.

وبعد 80 سنة/أرقام سنة 54/ كانت الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، وصلت إلى 984 ألف نسمة، أي أكثر بقليل من عشر مجموع السكان /8 ملايين و675 ألف نسمة/ .

وحوالي 5/2 من الأراضي الصالحة للزراعة كانت تحت تصرف 20 ألف معمر. ومن هذا الرقم، كانت هناك 6400 مستثمرة تفوق كل واحدة منها 100 هكتار. ويملكون وحدهم 87 /100 من المجال الزراعي الأوروبي. وكان السكان الأوروبيون متمركزين أساسا في المدن وفي الضواحي الحضرية، مستحوذين على القطاعات الصناعية والتجارية والإدارية.

والسمة الثانية للجزائر المستعمرة هي انتزاعها من دولتها خلافا لتونس والمغرب اللتين - برغم أنهما "محميتان"- إلا أن دولتيهما بقيتا مستمرتين في الوجود قانونيا.

وإذا كان ملكا البلدين المجاورين قد وقعا على معاهدة الحماية /الانتداب/- وكان ذلك عام 1881 بالنسبة لتونس و1912 بالنسبة للمغرب- فان الوثائق الوحيدة التي وقعها كل من داي الجزائر وبايي قسنطينة والتيطري وكذلك الأمير عبد القادر تمثلت في وثائق عسكرية للإقرار بالاستسلام. فالوجود الفرنسي في الجزائر لم يأت لا سلميا ولا قانونيا، وهو مبني على الغزو، أي أن يقوم المنتصر بالتشريع للمنهزم. وابتداء من جويلية 1834 صدر مرسوم يجعل من الوصاية العثمانية القديمة للجزائر "ممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا". وأصبح الجزائريون- بموجب ذلك-"رعايا فرنسيين". وقد أسندت الإدارة إلى ضباط المكاتب العربية بقرار صدر سنة 1844 .

وأقدم هؤلاء على عملية غزو عنيفة لمنطقة القبائل والجنوب الجزائري لاستكمال الاحتلال، مع أنهم كانوا يندّدون بأنانية المستوطنين وجشع الأوروبيين المتعطشين للكسب. وككل الأنظمة العسكرية يقوم أصحابها بإرساء نظام استبدادي مبني على الفساد، ثم يندهشون من وجود الفساد[1].

وبنفس الطريقة الانفرادية ووفقا لقانون الأقوى، قررت فرنسا إدماج "الانديجان المسلم". كان ذلك هو هدف قانون /سيناتوس كونسولت/14

---

[1]- نفس السلوك ظهر –وربما كان أصدق على المستوى الشخصي ولكنه ينطوي على أبوية خطيرة على المستوى السياسي- عند الضباط الفرنسيين الذين قاموا بانقلاب 13 ماي 1958 .

جويلية 1865 حيث أصبح بإمكان كل جزائري مسلم أن يتقلد مناصب مدنية أو عسكرية، شريطة أن يتنازل عن حالته الشخصية ويطلب "التجنس". ولاحظ المؤرخ شارل روبيرت آجرون أن 371 جزائريا اختاروا التجنس بين 1865 و1875. وكان القانون يعطي نفس الحق للجزائريين اليهود، الذين استعملوه بصورة أقل من المسلمين. وهذا ما يفسر مرسوم كريميو[1]/24 أكتوبر 1870/ الذي أعطى اليهود الجنسية الفرنسية بصفة جماعية.

وكان كبار المستعمرين قد أعربوا عن سخطهم حيال أفكار نابليون الثالث، الذي كتب عام 1863 أن الجزائر ليست مستعمرة بل "مملكة عربية". كما صرح للمسلمين خلال جولة قام بها في الجزائر سنة 1865 أنه "يريد إشراكهم أكثر فأكثر في تسيير بلادهم". وكان كبار الكولون /المعمرين/ يشكلون مجموعة ضغط لابد للحكومة أن تحسب حسابها، ولم يتقبلوا بسهولة مرسوم كريميو، الذي قد يضعف- باستحداثه فئة انتخابية جديدة- الاحتكار السياسي الذي يمارسونه على الجزائر.غير أنهم تمكنوا من فرض قوانين 25 أوت و29 ديسمبر 1900 التي تمنح للجزائر حكما ذاتيا يخدم مصالح الأقلية الأوروبية.

أصبحت للجزائر الشخصية المدنية وهو شرط ضروري للاستدانة، ولها عملتها /الفرنك الجزائري/، ولها أيضا ميزانية خاصة يصادق عليها مجلس مستقل منتخب يحمل اسم "المفوضيات المالية". وتركيبتها غنية عن التعليق: 24 ممثلا للمستوطنين و24 ممثلا فرنسيا من غير المستوطنين، وهم ملاك صناعيون وتجاريون و21 ممثلا للسكان المسلمين، وهم في الواقع موظفو الإدارة الذين يعملون وفق إرادة المستوطنين. وسنرى مستوى هذه الدولة الكولونيالية الملكية والطفيلية، عندما يجهض- خلال حكم الجبهة الشعبية- مشروع بلوم فيوليت[2] الذي تم إيداعه لدى الغرفة البرلمانية في 30 ديسمبر 1936.

وكان المشروع يهدف إلى إعطاء الحقوق السياسية لـ 20 ألف جزائري من المحاربين القدامى وأصحاب الشهادات والموظفين السامين. ولم يستفد هذا المشروع حتى من الدراسة على مستوى البرلمان. فقد كان

---

[1]- اتخذ بمبادرة من أودولف كريميو الذي أصبح نائب الجزائر في 1871 .

[2]- حاكم سابق للجزائر، كان موريس فيوليت نبه في تصريح أمام مجلس الشيوخ للوضع في الجزائر قائلا:"لا أريد ان أعطيكم درسا في القانون العمومي ولكن لا يسعني إلا أن أسجل أن وضعية الرعية اسوا من أن تكون أجنبيا .

أي تنازل يثير ردود فعل رافضة. وكان بعض كبار الملاك يستحوذون على القوة الاقتصادية والسياسية، وبكل الوسائل يناورون على الأقلية الأوروبية، ويزرعون الخوف من الانديجان مكرسين شعورهم بالتفوق الذي يعطيهم صفة المواطنة.

فقد انتزعت من الشعب الجزائري أراضيه، كما كان يفتقر إلى أي نظام تمثيلي، حتى لو كان على المستوى المحلي[1]. ووصل إلى حد منعه من استعمال لغاته الوطنية، الامازيغية والعربية. وقد كانت اللغة العربية لا تستعمل إلا في المعاملات الإدارية البسيطة. وإذا أضفنا السيطرة على المجال الديني، فإننا نجد أن الجزائري قد انتزعت منه كل مكونات شخصيته وأصبح مفككا تماما[2].

وإذا كنت قد قدمت مسحا سريعا لهذه الحقبة التاريخية، فإنني أهدف إلى توضيح الخلفية التاريخية التي نشأت فيها الحركة الوطنية الجزائرية وأيضا لماذا ظهرت.

كان بإمكاني الإشارة إلي "قانون الانديجينا 1881"، الذي يجعل من الانديجان مجرما محتملا فور ولادته، وكذا الضرائب الثقيلة التي كانت ترهق الفلاحين الصغار.

في الواقع كانت كل الإجراءات المتخذة تصب في اتجاه هدف واحد، هو الاستغلال الأقصى للبلد المستعمر. وكان الانديجان لا يمثلون- في أحسن الأحوال- إلا قوة عمل، وفي أسوأ الأحوال لا يمثلون شيئا، أي أقل من كادحين. لم يكن من الممكن للمجتمع أن يجد محورا لتهيكله القوي في البرجوازية التي كانت شبه منعدمة، ولا في البرجوازية الحضرية الصغيرة ولا البروليتاريا، اللتين كانتا تمثلان طبقتين ضعيفتين ومهمشتين للغاية. كما لم يكن للمجتمع الجزائري أن يجد ملاذا في جهاز دولة، كما كان الحال في المغرب وتونس. وتماما كما كان الحال أيام الاحتلال الروماني والوندالي، لم يتبق له إلا جباله يلجأ أليها.

---

[1]- خلافا للبلدية الكاملة الوظائف التي تجمع أساسا الأوروبيين والتي تتمتع بنفس النظام الساري في فرنسا ، كانت البلدية المختلطة ، وهي دوائر يمثل فيها الانديجان الأغلبية تسير من طرف إدارة معينة من السلطات الاستعمارية ولها صلاحيات واسعة .

[2]- في حين ان الدين الإسلامي ليس له مؤسسة دينية كالكنيسة .عمدت السلطة الاستعمارية على خلقه وهو الوحيد المؤهل لاداء الطقوس الدينية في المساجد . وقد تم تحديد عدد المدارس القرآنية والمؤسسات التعليمية الإسلامية العليا بينما تمت مصادرة أملاك الحبوس إذ أدخلت ضمن ممتلكات الدولة .

وهو ما يفسر ريادة الوطنية الريفية للمقاومة الشعبية الطويلة، ابتداء بحصار الزعاطشة 1849 بالقرب من بسكرة الذي دام 52 يوما. وجاءت هذه المقاومة بعد استسلام الأميرعبد القادر سنة 1847، ثم جاءت المقاومة العنيدة في القبائل التي استمرت عشر سنوات حتى 1857. وجاء ت بعدها حرب الوطنيين في الجنوب الوهراني 1864، ثم ثورة القبائل الكبرى 1871، وبعدها ثورة الأوراس 1878، والجنوب الوهراني 1881، وثورة مارغريت /عين التركي بالقرب من مليانة /في جبل زكار 1904. ومع بداية القرن الغليان في الأوراس 1916.

ونشأت أول حركة وطنية مهيكلة حقا في صفوف الهجرة الجزائرية المكونة من فلاحي الأطلس الذين تحولوا إلى كادحين. إنها نجم شمال أفريقيا التي نشأت في باريس عام 1923، وأصبح قائدا لها ابتداء من 1927 أحمد مصالي الحاج[1]. في هذا الوقت، كان أعيان المدن في الجزائر يحاولون فرض إصلاحات دون أن يطرحوا مطالب وطنية.

كان ذلك الحال بالنسبة لحركة الشباب الجزائري التي نشأت مع بداية القرن، وأعاد بعثها فرحات عباس والدكتور محمد بن جلول في 1927 تحت تسمية فدرالية المنتخبين الأهالي/الانديجان/. وكذلك كان الحال بالنسبة لجمعية علماء الإصلاح التي كانت ترتبط بحركة النهضة الإسلامية، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسسها ومنشطا لها. وسيحاول التياران- بصفة انفرادية أو معا، كما حدث في سنة 37 في إطار/المؤتمر الإسلامي الأول/الذي التحق به الحزب الشيوعي الجزائري- التفاوض من أجل أن تمنح صفة المواطنة الفرنسية للجزائريين، ولكن في إطار الحفاظ على الحالة الشخصية.

لم تكن خميرة الوطنية قد مست فلاحي الجبال وعمال الزراعة قبل الحرب العالمية الثانية بعد. هؤلاء الفلاحون الرازحون تحت وطأة البؤس والبطالة والضرائب ونسبة النمو. الديمغرافي الكبيرة /ارتفع عدد سكان الجزائر ب 2 مليون نسمة بين سنة 1920 و1939/. غير أن تلك الأفكار الوطنية بدأت تتنقل تدريجيا بين هؤلاء عن طريق العمال المغتربين المناضلين، أو المتعاطفين مع نجم شمال أفريقيا، ثم- بعد حله في جانفي 1937- مع حزب الشعب الجزائري الذي تأسس في 11 مارس 1937.

---

[1]- ولد في تلمسان في 1898 وكان عاملا في فرنسا . بعد مرور قصير في الحزب الشيوعي الفرنسي كرس نفسه كلية لحركة التحرير الوطني مما كلفه عدة مرات السجن أو النفي .

كنت قد تطرقت للهزات التي أحدثها إنزال الحلفاء لدى الجماهير الجزائرية، والحماس الذي استقبلت به الوحدة بين فرحات عباس وحزب الشعب والعلماء في إطار جمعية أحباب البيان والحرية. لقد نضج الوعي الوطني إلى حد أن الجزائريين لم يعيروا أي اهتمام لمرسوم 7 مارس 1944، الذي يمنح للمسلمين- أصحاب الدرجة الثانية- تمثيلا في المجلس الوطني الفرنسي يساوي تمثيل الدرجة الأولى، بمن في ذلك الإصلاحيون المدنيون، الذي كان هذا المرسوم يتجاوز المطالب التي رفعوها قبل الحرب. وقد احتوى المرسوم على تنازل مهم، إذ يلغي الإجراءات الاستثنائية المفروضة على الأهالي، ويفتح الهيئة الانتخابية لكل الجزائريين من الذكور ابتداء من سن 21 ، ويزيد في نسبة التمثيل "المسلم" في مختلف المؤسسات المحلية.

وهكذا نتفهم أكثر لماذا كان المستعمرون الكبار الرافضين لهذه الإصلاحات ينتظرون الفرصة السانحة لقمع سكان كانوا يخشونهم، خاصة بعد أن أعطي لهم- بصفة جد ضئيلة- حق في التعبير، وسيتم ذلك أثناء القمع الرهيب في ماي 1945، الذي سبق أن وصفته في الفصل السابق.

تحدثت من قبل عن حملتنا لمقاطعة الانتخابات المحلية في سبتمبر 1945. وتواصلت تلك الحملة في الشهر التالي خلال تنظيم الانتخابات لأول مجلس تأسيسي في21 أكتوبر. وكان نجاح الحملة حافزا للمناضلين في القبائل الكبرى، وفرصة لإرساء قواعد منهجية لتنظيمنا في القرى. لم يكن سلوكنا ينم عن مجرد رفض سلبي لسيادة أجنبية، بل- عكس ذلك- كان عملا من أجل استكشاف جديد لسيادتنا. لقد تملكت روح الثورة قلوب الشباب وظهر شعر حديث وجديد يتفجر من بين الوديان كما يطلع العشب عندما تتفجر السحب. كانت الأناشيد الثورية تغنى بالقبائلية في الجزائر. وتمت ترجمة بعض منها إلى العربية كنشيد /انهض يا ابن الأمازيغ / أو /نحن شباب الجزائر/[1]. كانت تلك الثقافة الشعبية المظهر الأكثر إعلانا عن السلطة المضادة الناشئة، سلطة الفقير، سلطة الشعب.

كما لم يكن من باب الصدفة أن تختار الحكومة منطقة القبائل لإرسال وزير الداخلية في زيارة رسمية، كانت الأولى من نوعها منذ أحداث 1945. وكان هدف زيارة /آدريان تيكسيي/ في جانفي 1946 هو

---

[1]- كتب النشيد الأول ايدير آيت عمران أما الثاني فكان من تأليفي .

تلطيف الأجواء السياسية، عن طريق اعتماد إجراءات عفو[1] وإصلاحات "خصوصية"، وهذه الأخيرة تدخل في سياسة اللعب الخفي لإحداث شرخ بين القبائل والعرب[2].

غير أن الوزير شهد عينة من الحالة النفسية السائدة. فقد تمت مقاطعة كل النشاطات العامة من طرف السكان. كانت "عملية تصحير" بادية للعيان في هذه المنطقة ذات الكثافة السكانية العالية. وخلال مروره في المدن والقرى وفي الطرقات، كان يلتقي بشعارات وطنية مكتوبة: "نعم للجزائر في الأمم المتحدة، لا لـ13 متسولا في باريس" و"ليسقط الإدماج ويحيى الاستقلال" و"حريات، ديمقراطية، لا للاستعمار" و"مواثيق ممنوحة لا، مجلس تأسيسي جزائري سيد". وقد قام المجلس المحلي لحزب الشعب الجزائري بتحضير دقيق للأمور. وحتى لا تتمكن السلطات المحلية من إزالة الشعارات المكتوبة كانت هذه الشعارات لا تكتب إلا في اللحظات القليلة التي تسبق وصول الموكب الرسمي. وكانت المعلومة تصل إلى المسؤولين المحليين بفضل تمركز الهياكل في كل مكان حول اتجاه سير الموكب الرسمي، ليتسنى لهم وضع اللافتات والكتابة عليها في الوقت المناسب. وكانت النصوص معبرة، وإن تخللتها بعض الأخطاء الإملائية التي تغير أحيانا من معاني الكلمات.

كما تظاهر التلاميذ أيضا بطرق مختلفة. ففضلا عن الرفض التام للمشاركة في لجنة الاستقبال أو التلويح بالأعلام الفرنسية أو إنشاد "لامارسييز"، حدثت مبادرات غير منتظرة منهم. ففي قرية "ايعزوزن" انطلق التلاميذ يغنون نشيد الكشافة الإسلامية، "من جبالنا طلع صوت الأحرار"، وهو ما أدى إلى رد فعل الهرم الكلاسيكي التراتبي، من المحافظ إلى نائب المحافظ ومن نائب المحافظ إلى مسؤول الإدارة، ومن مسؤول الإدارة إلى "القايد" الذي/فش غيضه/في أولياء التلاميذ، متخذا أيضا إجراءات طرد لبعض التلاميذ بقيت أجهل مدتها.

تهمني كثيرا معرفة الاستنتاجات السياسية لهذه الزيارة الرسمية، كما وردت في أرشيف الإدارة الاستعمارية. ولن أتفاجأ إن وجدت فيها أن بلاد القبائل توصف ببلاد "السيبة"، وهي عبارة مستعملة جدا عند أقلام

---

[1]- تمت المصادقة على قانون العفو العام في 9 مارس 1946 من طرف المجلس التأسيسي ودخل حيز التطبيق في 16 مارس.

[2]- اقتصرت تلك الإصلاحات على إلغاء وظيفة القائد في بعض الدواوير وتحويل القرى المكونة له إلى بلديات.

الموظفين الفرنسيين بشمال أفريقيا، من المتنقلين الدائمين بين البلدان الثلاث تونس والمغرب والجزائر. كما لن أفاجأ أيضا إن وصفت هذه المنطقة- التي تملك موقعا جيوسياسيا استراتيجيا حيث تتواجد على أبواب العاصمة- "بأن الجو فيها خطير". لأن دور القبائل كمعقل كان ناتجا عن بؤسها، وعن الضغط الديمغرافي، وكونها موزعا للأفكار عن طريق عمالها المهاجرين سواء في الداخل بالجزائر العاصمة ومتيجة أو في فرنسا. والمنحى الذي اتخذته السياسة الفرنسية في الجزائر كان ناتجا دون شك عن الخوف من العدوى الثورية. وكان لزاما أن تجابه بلاد السيبة باستراتيجية بلاد المخزن /أي البلد الشرعي/. ولكن كيف تتواجد الشرعية في الوقت الذي كان فيه كثير من المناضلين مسجونين. وكان فرحات عباس وراء القضبان منذ ماي 1945، ومصالي الحاج منفيا في أفريقيا الاستوائية منذ نهاية أفريل. لهذا كانت عملية العفو العام في 16 مارس 1946 وعودة مصالي بعد ستة أشهر من ذلك تتجاوز إجراءات التهدئة. إذ كانت هذه المبادرات تهدف إلى تحويل النقاش السياسي من الجبل إلى الشارع ومن القرية إلى العاصمة والمدن الكبرى. وكان هدف السلطة الاستعمارية هو إبراز التناقضات بين الأحزاب وأخطاء تكتيكية و استراتيجية لسريي الأمس الذين وجدوا أنفسهم صدفة في سكة الشرعية. وهي بالتالي تطمح أن تحقق بطريقة أخرى ما لم تستطع تحقيقه بالقمع. وسنرى أن تلك الحسابات لم تكن خاطئة تماما.

إنني أحاول أن أتفادى التحليلات التي تأتي ما بعد الحدث.. لأنني عشت من الداخل صيرورة الوعي على مستوى القاعدة؛ وبالتالي لا يمكنني أن أتصور أن يكون بمقدور قرار فوقي- وإن كان فذا- صنع أو إزالة الحركة الثورية. فالتحليل الذي قمت به كان نوعا ما بمثابة الشيء المرفوض بالنسبة لنشاطنا كمناضلين شباب في الميدان. في ذلك الوقت، لم نكن نعرف أن حزب الشعب سينزلق قريبا نحو "العمل الشرعي". وكنا نجهد أنفسنا لإقناع الناس بضرورة مقاطعة الانتخابات في المجلس التأسيسي الثاني /2 جوان 1946/. وكنا نتواجد باستمرار في جولات وفي اجتماعات إعلامية وتكوينية مع فلاحين متعاطفين وفي لقاءات مع الأعيان. كما كنا نتكلم أيضا مع المناضلين المحليين للاتحاد الديمقراطي[1]

---

[1]- بفضل خالي الشريف بن قداش تابعت عن كثب نشاة هذه الحركة التي ساهم فيها أحد الصناعيين الجزائريين القلائل "طيار" وكان يضمن الاتصال بفرحات عباس في السجن . وقام بحملة من اجل التهدئة باتصالات بأوساط رسمية من فرنسيين لبراليين .

للبيان الجزائري الناشئ حديثا، ومع الحزب الشيوعي الجزائري[1]. ومازلت احتفظ بذكريات حية لجدال أيديولوجي حول مواقد النار، أو حول قصع الكسكسي. وكان الجمع يتراوح عدده بين 15 و20 فردا- بمن فيهم أهل البيت والبقرة والحمار وزوج الثيران- وكانت عملية الاجترار لتلك الحيوانات الأليفة مرافقة دائمة لتلك الجدالات الحادة.

وكان يتخلل نشاطنا حوادث استثنائية، كذلك اليوم من أيام الثلاثاء الذي يصادف يوم السوق الأسبوعي في ميشلي، حيث ظهرت كتابات مختلفة من بينها لافتة ضخمة كتب عليها / تحيا الجزائر المستقلة. يحيا حزب الشعب/ بالفرنسية والعربية، وهو ما جعل توماس لوجان رئيس فرقة عمال مصلحة الطرق والجسور يصرخ بقبائلية قحة //قسما بجميع الإيمان كادوا أن يكتبوها على شنباتي//، عندما صادف هذه العبارات مكتوبة في كل مكان بما فيها أدوات عمله وعربته!

وأمام التحركات الكثيفة لرجال الشرطة في المنطقة، شعر أبى أن ابنه الذي دخل العمل السري هو محل الشكوك فتوجه إلى "القايد" وأمسك بخناقه مهددا " أنا لا أعرف المتصرف الإداري، والذي أعرفه هو أنت، أعلمك أنهم لو دخلوا بيتي فإن بيتك سيربط بالخيط[2]". وبالتالي لم تذهب الأمور أبعد من ذلك.

وعرف بناي والعيمش خطرا أكبر، عندما جاء عنصران من شرطة الاستعلامات العامة من العاصمة ونزلا على جماعة انصهاريج، طالبين مقابلة واعلي بناي. وتصورعمه أنهما من أصدقائه، فأوصلهما إلى المقهى الذي كان موجودا فيه. تعرف سي علي على واحد منهما، وأسرع إلى قلمونه وأخرج مسدسه النمساوي وأطلق عليه الرصاصة الأولى التي أخطأته بينما لم تخرج الطلقة الثانية. في الوقت الذي تمكن العيمش من شل حركة الثاني قبل أن تمتد يده إلى سلاحه إذ خنقه بذراعه. وهنا تدخل العم وطرح الاثنين أرضا مستعملا عصاه، ومعتذرا لابن أخيه عن إحضاره له اثنين من صعاليك الجزائر! ولم يكن حتى ذلك الوقت قد فهم أنه "بطح" اثنين من ممثلي السلطة الفرنسية، وهذا ما شفع له أمام المحكمة التي كيفت القضية على أساس //الضرب والجرح//.

---

[1]- وخاصة مع الأخ الأكبر لواعلي بناي الذي كان مناضلا نشطا في الحزب الشيوعي في باريس .

[2]- رمز لبيت نبذ أهله حتى يتحول إلى أطلال .

أما العيمش فلم يعدم وسيلة في التندر على قدرة واعلي بناي في التصويب. إذ عاب عليه كونه لم يكتف بأنه لم يتدرب على استعمال السلاح في حياته، بل أغمض عينه السليمة عند إطلاق النار وترك عينه الضريرة مفتوحة!

وأدى التداول السريع لهذه الحادثة إلى تقوية سمعة وسلطة فريقنا. كما لا يجب أن ينسينا المظهر الفكاهي للأحداث الجدية والتفاني اللذين كانا يطبعان مهامنا كمسؤولين شباب، نجوب الإقليم باستمرار، نتحادث مع الناس ونناقشهم. وللقيام بمهمة التفتيش، كنت أنا والعيمش وآيت مدري- الذي خلفني على مستوى ميشلي- وولد حمودة وبناي وعمر اوصديق نلتقي مرة في الشهر لنقيم الأوضاع في المنطقة، ونعد تقريرنا، ونرسل عنصر اتصال إلى الجزائر لننتظر عودته بعد يومين أو ثلاثة.

واتخذنا من ضيعة معزولة تبعد عن بلدة فريحة بحوالي عشرة كيلومترات مقرنا العام. وكانت هذه الضيعة ملكا لستة من أعمامي، يستغلها ثلاثة اخوة لا يعرفون إلا بأسماء مستعارة. كان أكبرهم يدعى "شعرا" (الأكبر) وقد اكتسب هذا اللقب أثناء وقوفه وراء إضراب عن العمل قاده عندما كان عاملا موسميا عند الكولون. وأثناء تفاوضه معهم حول زيادة في الأجور قدم نفسه باسم "شعرا" وكانت ابتسامته وبشاشته تفتح في وجهه كل الأبواب، بما فيها الأبواب الأوروبية، وحتى الدرك الذين استمالهم بروحه المرحة ودعابته الدائمة، ولغته الفرنسية المكسرة ولكنته القبائلية.

وحدث مرارا أن رافق رجال الدرك، وهو في طريقه متوجها إلى السوق لتسليم المسؤولين المحليين في المداشر النصوص التحريضية، وهو يمتطي ظهر بغله وشو"اله مليء بالمناشير وبدوريات الحزب. وقال لي بعد رحلته الأولى: "اليوم استأجرت حراسة. تصور أنني أقسمت لهم أنني جالس على منشورات حزب الشعب، لكنهم لم يصدقوني" !

وقد خرج "الشعرا" حيا من حرب التحرير بعد أن سجن وزج به في المعتقل، وأصبح بعد الاستقلال أحد أعيان الحزب الواحد.

كما نجا الثاني من ويلات الحرب. وكان قد وصل إلى رتبة ملازمَ أول في جيش التحرير الوطني؛ غير أن وجهه الذي شوه بالنابالم كلية ظل يعذبه طويلا. وقد احتفظ باسمه المستعار في الجبل "الحبشي"، الذي أطلق عليه لشدة سمرته.

وكان "أوكردوش"، أي القصير أصغرهم. وكأخويه كان أميا ومثلهما كان ذكيا فطنا وكان يتولى مهمة الرعي واستشهد في الجبل، غير بعيد عن المكان الذي كان يرعى فيه قطيعه.

أوكردوش هو من دلني على أفضل مكان لقطع وادي سيباو، وعلمني أنه عندما أريد الخوض في مياهه الهائجة علي أن أضع نصب عيني الهدف، أي الضفة المقابلة. في الحقيقة، فقد تخلصت بسرعة من ذلك الخوف الرهيب الذي يبعثه الوادي في قلوب الجبليين. لكنني كنت أخشى برودة المياه أيام الشتاء القارص. ومع ذلك كان يتحتم قطعه مرارا للوصول إلى الضيعة أو للالتحاق بالحافلة المتجهة إلى الجزائر، أو لمواصلة جولاتنا النضالية. وكان هذا المسار ثقيلا علي رغم تغيره مع تعاقب الفصول. فمن الثلج الذي يجمد الأوصال إلى الشمس الحارقة التي تفرض علينا تغيير الطريق، بحثا عن بركة ماء بارد في منعرجات الوادي. كما ارتبطت رائحة الأرض المحروثة في الخريف بملذات الصيد. وكان للربيع سحره بمباهجه وأسراره، حيث يعد "كل ربيع ربيعا" حسب المثل القبائلي. كما كانت كل طلة قمر أجمل من الأخرى.

وتتولى المشاهد الأليفة التي تقابلك عبر المسافات الطويلة، من شجرة معمرة أو قمة جبل أو صخرة تذكيرك بتعبك وتعلن عن صعود صعب ينتظرك، مما يجعل الأقدام ثقيلة. وكانت تلك المسيرات الطويلة تبدو بلا نهاية، حتى وإن كنت تحظى بصحبة رفيق. نظر أحمد بودا[1] عضو المكتب السياسي عندما زارنا أول مرة إلى قدمي الحافيتين في عز الشتاء، وقال: "لك قدمي فيل" وعلى أية حال، فلم تكن صنادلنا المطاطية لتقاوم عوامل الطبيعة كما كان جلدنا الطبيعي يفعل. وحسب الطبيب الذي

---

[1] ـ كان ذلك أول لقاء لي معه وفهمت عندها لماذا هذا الممثل للحرس الوطني القديم يثير الرعب في نفوس الشرطة التي كانت تطارده . كما غذت أسطورته قصة ذلك الشرطي الذي كان مكلفا باعتقاله والذي ولى هاربا عندما تعرف عليه واقفا أمام كشك . كانت له عينان بارزتان في وجه أكله الجدري . وكنت أرى فيه دائما مزيجا من سبارتاكوس وتيلوار .كان وقورا في تصرفاته اليومية وكان بإمكانه ان يتكلم أياما طويلة ان وجد آذانا صاغية . وحتى سن المراهقة كان أميا مزدوجا وتمكن بمفرده اكتساب ثقافة شعبية رائعة في صفوف نجم شمال افريقيا الذي شهد نشأته . تغذت لغته بالإسلام الشعبي الذي تلقاه في المدارس القرآنية والجمعيات الدينية . كما كان يحمل ايضا تراثا شعبيا يتجلى في طريقة صياغة أفكاره واستعماله للأمثال والأسلوب غير المباشر لفلاحي منطقة القبائل . ورد مرة على زميل في اللجنة المركزية اتهمه بالكلام في الفراغ :" لن أتكلم دائما في المليان" . كان احمد بودا هو التفاني بعينه ، كما جعلت منه التضحيات التي فرضها على نفسه وعلى زوجته وأبنائه محط احترام الجميع . اصبح من المركزيين عند انشقاق الحزب سجن في نهاية 54 والتحق بالجبهة في مارس 56 . كما مثل جبهة التحرير في كل من بغداد وطرابلس .

قام بفحصي، فان المشي حافيا "مفيد للطحال" وعلى كل.. كان الفحص مجانا!

وفضلا عن ذلك، أصبحت ابتداء من أوت 1945 رجل اتصال مع القيادة في الجزائر العاصمة. وكانت تلك الزيارة الشهرية مرهقة جدا. وكنت أفضل أن أتبلل في وادي سيباو بدل المخاطرة بالوقوع في نقطة تفتيش للدرك، إن أنا اتخذت جسر فريحة في اتجاه موقف الحافلة. وكان جابي الحافلة الملقب بـ"الأسد" يتوقف عند المنحنى، حتى وإن كانت الحافلة ممتلئة ثم يصفر آذنا للسائق بالتحرك. كان هذا العملاق الذي يرتدي قبعة باسكية واحدا من رجالنا وكانت تكفيني إطلالته لأشعر بالأمان. ولم تكن الرحلة تخلو من عمليات المراقبة في الطريق، إذ يأتي الدرك والشرطة والاستعلامات في كل محطة مهمة يحومون حول الحافلة ويتحققون ممن فيها، حتى وإن كان ذلك بطريقة روتينية. وكان التوقف في كل من برج منايل وتيزي وزو يسببان لي التعرق البارد. والأدهى من ذلك أنني كنت أعرف معظم أفراد الشرطة أو المخبرين. كان قلبي يخفق بشدة ، رغم أنني كنت أمتلك بطاقة هوية "مزورة جيدا" ومسدسا، إذ كانت التعليمات تحتم علي أن لا أعتقل. وعندما نصل إلى "الباستيون" /محطة المسافرين بالعاصمة/، يسلمني الأسد الأمانة التي استودعتها لديه عند الصعود، والمتمثلة في التقارير والهبات المالية الشعبية في المقاطعة[1].

وكانت اتصالاتي بقيادة الحزب قصيرة ودقيقة تتم عبر محطتين. ألتقي بشخص واحد /خليل أو بودا أو فيلالي / لأسلم له التقرير"الأدبي" أي السياسي، ثم التقرير التنظيمي والتقرير المالي. وكنت أكمل هذه التقارير شفهيا بتفسيرات واقتراحات. وفي المحطة الثانية يعود المسؤول الذي استقبلني ليبلغني بالتعليمات والأجوبة عن الأسئلة المطروحة.

أعود بعدها إلى جبالنا، يسبقني شوق كبير إلى العمل، والدخول مرة أخرى في الجو الجديد الذي كان ينمو وينتشر هناك. وبالفعل، ونظرا لعدد مناضلي حزب الشعب وصلابة بنيانه، بدأت تظهر سلطة مضادة. سلطة مدنية أكثر مما هي سياسية. وبالطبع لم تكن هناك إدارة موازية أو

---

[1]- ساهمت بعد أفريل 1946 في اجتماعات المكتب الوطني للتنظيم كممثل للقبائل وهناك وجدت ان من 14 الف منخرط كان 10 آلاف من القبائل وذلك دون حساب المتعاطفين . وعرفت ان الحزب تمكن من الاستمرار بفضل مساهمتنا المالية .ففضلا عن نقود المناضلين كانت للتجار مساهمة طوعيه منتظمة.

بديلة للإدارة الاستعمارية، غير أن هذه الأخيرة كانت تدور في الفراغ، ولم يكن لها تأثير حقيقي على المواطنين. وتواصلت التسجيلات في الحالة المدنية، كما تواصل دفع الضرائب،لأننا كنا نريد ذلك. أما المحاكم الرسمية فكانت شبه مقاطعة تماما. وعندما يعجز المسؤولون المحليون للحزب أو المناضلون في القاعدة عن حل مشكل ما، كنا نقوم بتشكيل "تاجماعت" خاصة للتحكيم أو الوساطة أو للمساعي الحميدة. وكان هذا يتم في المسائل الخطيرة المتعلقة بشرف العائلات أو القرية أو الدوار. وعادة ما كنا أعضاء في هذه التجماعت، وكانت سمعة وبركة جدي عاملا مساعدا لي. ولم يكن هذا ليمنع المشتكين من إعادتي إلى موقعي، قائلين لي بلطف "ابق في مكانك أيها المرابط، ولن ننقصك احترامنا". هناك عبارات لها دلالات قوية عن ثقافة ما، ومع ذلك لم أكن لأترك الميدان وقد علمني الوالد كيف أكون عنيدا. فبالنسبة له لاتهم أن تطول مدة التفاوض والمناقشة مادام ذلك يسمح بتفادي مأساة. "لوجه الله فحياة إنسان لا تقدر بثمن" .هكذا كان يقول. وقد شجعنا دائما الشباب على المشاركة في تاجماعت القرية، أو تاجماعت المشكلة خصيصا لأمر طارئ.

حتى ذلك الحين كانت تلك المؤسسات يسيطر عليها الشيوخ، وكان التقليد المتبع هو أن يقوم الشاب الذي سمح له بالكلام أمام القدامى أن يبدأ بالاعتذار مسبقا عن الكلام الخفيف والهزيل الذي سيصدر عنه: "إن شؤون القرية مهمة جدا، وأنا لا أمثل إلا الشيء القليل...". أما الآن فبدأ مناضلونا الشباب يطبقون مبدءا آخر " أن الرأي أو وجهة النظر كالمرمى، يمكن للكل أن يصوب نحوها بغض النظر عن سنه وقوته وحالته المادية ". وهكذا وجدنا أن أحسن وسيلة للتغلب على الهياكل الاجتماعية والذهنية المحافظة ليس بمحاربتها في مبارزة كلامية، بل في إدماجها في الحركة المتنامية للمشاركة المسؤولة والحماسية.

وقد تمكنا بذلك من إبطال مفعول استفزازات كان يمكن أن يترتب عنها تبعات دامية. ففي/ايتورار/- وهي قرية جنوب شرق ميشلي- احتدم الصراع بين سكان /الفوق/ وسكان/التحت/ حول موقع السوق الأسبوعي. وكان كل طرف يدفع رشاوى للمتصرف الإداري لتحقيق غايته، إلى أن قام مناضلو حزب الشعب من /الفوق/ ومن /التحت / بتنظيم جمعية عامة في الدوار تمت فيها تصفية الخلاف.

وفي وادي آخر وصل دوار بني واصف ودوار بني صدقة إلى حد الصدام لسبب يبدو تافها. فقد قام أربعة أو خمسة من سكان الدوار الأول بضرب شاب ثمل من الدوار الثاني. وقد اعتبر أهل بني صدقة هذا الفعل مساسا بشرف القبيلة التي- رغم فقرها- تعتبر نفسها مكافحة. كما رأوا في ذلك تعديا وانتقاصا من ريادتهم /القتالية/ من قبل جيران لم يكتفوا بريادتهم /المالية/. وكان آل بني واصف أكثر حظوة اجتماعية، بسبب تجارة الجملة التي يديرها عدد من رجالهم موزعين في الجزائر.

ونتجت عن ذلك حالة من الغليان، زاد في تأجيجه أعيان الإدارة الذين كانوا يبحثون عن أحداث يضفون عليها صبغة سياسية. لكن السلطة الموازية لشباب الحزب كانت أسرع وأذكى. وبدعوتهم إلى جمعية عامة تمكنوا من عزل العناصر الهائجة، كما تمكنوا من تعقيل الأعيان الذين كانوا غير مسيسين لكنهم كانوا حريصين على مصالح السكان.
وفضلا عن نشر جو السلم المدني والوئام، تم التوصل إلى تقليص العنف، وزوال أعمال السرقة والإجرام[1].
في هذه الحركة الثورية الصاعدة، لم يعد الإحساس بالشرف يعتمد على الكبرياء والعنجهية، بل تحول إلى بلورة الحس الإنساني. فكان على كل عائلة وكل قرية واجب التكفل بالمحرومين والمهمشين، بل حتى بالأبناء الضالين. وكانت كثافة الاجتماعات الليلية للخلايا- على كل المستويات- جد مركزة إلى حد شلت معه حركة عصابات الأشرار. كنا نحوم في نفس التلال الاستراتيجية ونسلك نفس المسالك. وصار "العمري"- الخارج عن قانون الشرف المعروف- لا يوقف الحافلات إلا للصراخ في وجه المسافرين بعبارة" يحيا حزب الشعب، يحيا الاستقلال ". وكانت بالنسبة لي مرحلة كل الآمال. كنا- نحن المناضلين الشباب في منطقة القبائل- نتمتع نسبيا باستقلالية عن قيادة حزب الشعب، وعشنا لحظات

[1]- كانت أسباب سياسية – عائلية – وراء المبادرة الفردية والشخصية لكريم باغتيال شامبيط /حارس بلدي/ دواره. حصل ذلك في عام 1947 وكان قد انخرط في حزب الشعب سنة قبل ذلك. وكان يجب علينا التكفل به في الجبل وامتثل للنظام ولم تعهد له أية وظيفة محلية أو جهوية إلا سنة 48. وقد حضر محاكمة وإعدام عمار امساح. وكان هذا الأخير قد التحق بالجبال بعد ان اقترف جنايات في الحق العام وأمرناه بالانضباط وان لا يقوم بأي عمل مشين. وكان له رفيق من أيام المدرسة التحق بالشرطة، وطلب اسماح لقاءه. وظن هذا الأخير انه في إمكانه استدراج رفيقه معطيا له وعد شرف إذ أتى لوحده ودون سلاح. أما اسماح فجاء الموعد مسلحا وقتل رفيقه. وأمام محكمة مكونة من مسؤولي الحزب اعترف اسماح انه قتل مفتش الشرطة دون سبب فقط تلبية للذة استعمال السلاح. وحكم عليه الحزب بالإعدام. وكان هذا القرار بمثابة درس أدى دون شك إلى الوقاية من ظاهرة تصفية الحسابات.

مثالية انسجمت فيها الأفعال والأفكار. ومنذ ذلك الوقت وأنا أرفض طغيان الطقوس على الإيمان، وطغيان الأفكار المتحجرة على ملكة التفكير، أو طغيان الكلام على التجربة المعاشة .

ولكن من يستطيع أن يذكر لي بلدا أو حركة حصلت فيها لحظة تاريخية حيث تمكن الشباب- ولو لمدة قصيرة- من تأطير من هم أكبر منهم سنا، من أولئك الذين أعلنوا أنهم "يدركون"، والذين فضلوا محاولة تكييف الواقع مع أفكارهم بدل الاعتراف بأنهم مخطئون؟

4

عصب في السلطة، مؤتمر الأمل

في هذا الوقت كان مصالي الحاج لا يزال منفيا في الكونغو، والقيادة السياسية متمترسة في الجزائر، بينما كنا نحن في الجبال تمور أنفسنا بالحماس، مكبلين عن الفعل.

عرفت العلاقة بين الجزائر والقبائل التوتر. ولم يكن ذلك نتاج أخطاء استراتيجية وسياسية فحسب، بل كانت هناك أخطاء بسيكولوجية أيضا. كانت القرارات الأحادية، وانعدام الاتصال الدائم بين القادة الوطنيين والقاعدة، وانعدام المعلومات والتوضيحات تتفاقم نتائجها السلبية بفعل البعد الجغرافي.

سأذكر هنا باختصار بعض الأحداث ذات الدلالة: أولها كان رفض القيادة السياسية الموافقة على قيامنا بعملية التوغل السياسي في منطقة القبائل الصغرى وهيكلتها. فمن المعروف أن تسمية القبائل الكبرى أو القبائل الصغرى تصنيف اعتباطي ابتكرته الإدارة الاستعمارية، بهدف محاولة التفريق بين سكان حافتي جبال جرجرة. وكان من نتائج هذا التقسيم الإداري ربط وادي الصومام بمنطقة قسنطينة. كنا نريد إعادة توحيد ذلك الكيان الاستراتيجي الذي أثبت تماسكه على مدى التاريخ[1]، حيث كان هنالك واقع بشري واجتماعي وثقافي يسخر من كل التصنيفات والأنظمة الإدارية[2].

فإذا كان مسؤول الإدارة في بجاية يذهب إلى قسنطينة لتقديم عرض عن إدارته، وإذا كان عامل الجباية يأخذ غنيمة زيارته من بيوت الفلاحين الفقراء والمنهكين بالضرائب إلى سطيف، فان هذا لم يضعف من نسيج الروابط التقليدية العريقة بين الدواوير والقرى المحاذية لسفحي جرجرة.

---

[1] - خلال الانتفاضة الجماهيرية التي أعلنها في وادي الصومام الشيخ الحداد في عام 1871 ، لم تتحرك جبال البليدة وشرشال إلا بعد أن أخذت السند من القبائل الكبرى وكانت هذه ظاهرة تاريخية وسوسيولوجية لم تأخذ طابع المطلب الانفصالي.

[2] - في عام 1954 وبغض النظر عن الأوهام البيروقراطية للاستعمار والإيديولوجيا الوطنية ، فرضت عوامل عدة توحيد سفحي جرجرة وإنشاء الولاية الثالثة.

لهذا السبب، قمنا في أكتوبر 1945 بصياغة تقرير إلى القيادة في الجزائر عن الوضع في وادي الصومام. أشرنا فيه إلى أن وجود الحزب منعدم، لأن الخلايا القليلة التي كانت تنشط في المراكز الحضرية أو في قانزات[1] قد سحقتها عمليات القمع، ولأن آثار مجازر خراطة وجيجل ماثلة للعيان بثقل أكبر بسبب قرب تلك المدن. وأشرنا إلى أن بلدية "مايو" الكبيرة /مشديلة/- التي تحتل موقعا استراتيجيا في وادي الصومام- مرتبطة إداريا بدائرة تيزي وزو. وإذا كانت التعليمات الشفهية والمكتوبة للحزب تم تبنيها تلقائيا من طرف المناضلين، فإننا بالمقابل كنا نمتنع عن اتخاذ مبادرات سياسية وتنظيمية في هذه المنطقة دون موافقة الجزائر، وكنا نطلب هذه الموافقة.

لقد ظهر لنا جليا أنه من السهل التوغل سياسيا في منطقة القبائل الصغرى، وأن هنالك إمكانيات قوية لتحقيق ذلك، بعد زيارتنا لزاوية سيدي عبد الرحمن، هذه المؤسسة المعلقة في أعالي جبال جرجرة، بين السفحين.

كان للزوايا في المنطقة المغاربية الأثر القوي في الحياة السياسية والاجتماعية. وكانت غاية هذه الزوايا تدريس القرآن والتعاليم الدينية لسكان الريف والصحارى؛ كما شكلت أيضا مراكز إيواء للفقراء والهاربين والمسافرين والزوار. وكانت تمثل معاقل لإسلام شعبي رفعت وساندت الكثير من السلالات الحاكمة، ومثلت بشكل من الأشكال عامل توازن ثقافي للبؤس الاجتماعي في بعض المناطق، بل وحتى واقيا ضد النزعات الثأرية والإجرام التي كانت سائدة.

فتقاليد المغاربيين تمنعهم من ترك عابر السبيل والمتسول أو الجار أو ابن العم يموت جوعا أو يضرب ويعنف. وهذه العادات جعلتهم يساندون هذا النوع من المؤسسات ذات الروح الجماعية والأخوية[2].

وكانت سمعة وإشعاع زاوية سيدي عبد الرحمن تتجاوز حدود المنطقة، لتقر لها دوائر العارفين ببعد مغاربي. ففضلا عن الفقه، كانت تعطي دروسا في الأدب والتاريخ، وفي بعض الأحيان والصدف تعقد

---

[1] - قانزات ، قرية تبعد بحوالي 30 كلم عن برج بوعريريج وأصبحت معروفة بسبب أحد أبنائها ، ارزقي كمال الذي دخل من فرنسا في عام 1938 ليتكفل بقيادة حزب الشعب بعد سجن قيادييه. وتوفي في العام الموالي في سجن بربروس.

[2] - كان أبي جد متمسك بمبدأ الضيافة هذا ورفض أن تقوم زوجة كريم بلقاسم بالأشغال المنزلية خلال السنتين التي نزلت فيها ضيفة عندنا.

فيها دروس علمية. فقد درس بها الشيخ مولود الحافظي الحاصل على شهادة في علم الفلك. وكان هنالك مئات الطلبة من فئات اجتماعية مختلفة يقيمون فيها. ولم تكن للزاوية أية مساعدة مالية من الإدارة بل كانت تعيش من الهبات والمساهمات الطوعية للسكان. ففي تلك القرى التي لا يحدث فيها شيء يذكر، كانت مسيرات الطلبة لجمع الهبات من الحبوب والبقول الجافة وزيت الزيتون تمثل حدثا مهما. وكان التحضير الجماعي "للفطير" و"الخفاف" يمنح النساء فرصة المساهمة في الجهد الجماعي لدوام صيرورة الزاوية.

وبالمقابل، لم يكن التقليد أمرا روتينيا، والثقة الممنوحة ليست مطلقة للزاوية؛ فعلى هذه الأخيرة أن تقدم باستمرار أدلة نجاعتها، وهو ما يفسر الحياة شبه الزاهدة للطلبة، والطابع الديمقراطي لتنظيمها الداخلي، حيث تقتسم الأعباء بعدل، بما في ذلك عملية تحضير الكسكسى[1].

وكانت المبارزة، وهي نوع من الفن الحربي الموجود في كل منطقة من الجزائر، تعد نشاطا شبه إجباري. إذ كانت هذه الرياضة بمثابة تنفيس لا تلغي بل تؤكد قاعدة الزهد السائدة. وكان يحضرها زوار مدعوون بعد تناولهم الطعام جماعيا مع الطلبة والمعلمين.

وبدعوة من السي رزقي، خريج جامعة الأزهر[2]، قضيت مع بناي والعيمش ثلاثة أيام في زاوية سيدي عبد الرحمن. وألقينا خلالها محاضرات حول الحركة الاستقلالية وتاريخ المقاومة الجزائرية، وخاصة دور طلبة سيدي عبد الرحمن في انتفاضة 1871. وقد عبر الطلبة عن استعدادهم لخدمة الحركة. كان هناك شباب من معظم دواوير المنطقة، وكان أيضا طلبة من مناطق وهران، عنابة وباتنة. وبفضل هؤلاء، كان يمكن أن يكون لنا إطارات (ولم نكن نريد أن يكون في كل مكان أطر دينية) أو على الأقل، أناس يعرفون الأمور على الأرض يوفرون لنا لقاء المتعاطفين والمناضلين المعزولين، وأيضا الأعيان الذين لا يتقلدون مناصب رسمية؛ بل ممثلين عن السلطة الشعبية، وهم أناس يتمتعون باحترام الجميع ومعروفون بتفانيهم في خدمة مصالح الدوار والقرية. وفضلا عن هذه الآفاق الواعدة، كان هناك عدد كبير من التجار

---

[1] ـ كان الطلبة ينتخبون الذين يصبحون القداش المكلفين بالإدارة لمدة تتراوح بين 3 و6 أشهر وخلالها يتمتعون بطاعة واحترام في داخل الزاوية كما في خارجها.

[2] ـ رغم أنه خريج هذه الجامعة المهمة لم يكن السي رزقي ، الذي هو من مواليد قرية الشرفة ، جنوب عزازقة ، عضوا في جمعية العلماء المسلمين.

الصغار من أبناء جرجرة الذين تمركزوا في معظم المراكز الحضرية في وادي الصومام. فحركتهم الدعوبة تبدو طبيعية للسلطات الأمنية، وهو ما سيسهل علينا عملية الاتصال.

كان التقرير الذي رفعناه للقيادة يرتكز على هذه الحيثيات والمعطيات. وجاء الجواب من الجزائر: "أمر قاطع بأن لا تتكفلوا بالقبائل الصغرى".

والتبرير الوحيد الذي قدم بصفة غير رسمية، بل بصفة سرية[1]، هو أن هناك تخوفا من ظهور جهوية قبائلية. وهذا بالرغم من أننا كنا قد أوضحنا أنه بعد أن يتم الانتهاء من هيكلة "جهاز" القبائل الصغرى- التي كانت تابعة حسب تنظيم الحزب لقسنطينة- سنجعله تحت تصرف الجزائر العاصمة. فضمه المحتمل إلى منطقة القبائل لم يكن من صلاحياتنا. ولكن أن يكون هذا السلوك بمثابة الوقاية من خطر مفتعل وغير موجود، أي الجهوية القبائلية، فهو ما لم يكن يخطر ببالنا.

ببساطة كان يبدو لنا من العبث بمكان أن تأتي مبادرة تنظيم أو إعادة تنظيم وادي الصومام من قسنطينة، في وقت كان النشاط فيها مشلولا، بسبب إطلاق العنان لقوى القمع والبطش. وقد قضى المرحوم بلوزداد وقتا طويلا كي يتحكم في بعض الأنوية في قسنطينة وسطيف ومراكز حضرية أخرى.

كنا نرى أن أسلوب المناضل المسافر، الذي يتوقف في كل محطة ليبحث عن بعض العناوين، فيه نوع من البطولة؛ ولكنه بلا جدوى وتجاوزته الأحداث. وهذا الأسلوب لا يسمح- في أحسن الأحوال- إلا بالاتصال بسكان المدن، أما الفلاح فلديه ريبة في الرجل الذي يأتي من المدينة، خاصة عندما يكون الوضع متوترا وصعبا. فالتوغل في الريف عن طريق الريفيين كان الطريقة الوحيدة للخروج من جوف الموجة، وتجنيد الطاقة الثورية الكامنة في الجماهير الريفية. فالحركات التي تخرج من أعماق الوعي الشعبي لا يمكن فصلها عن البيئة القروية، حيث تجد جذورها وأسباب انطلاقها. أما ما يأتي للريف عن طريق السكة

---

[1]- لم يأت التأكيد الرسمي إلا بعد أشهر عدة.

الحديدية أو عبر الطريق المعبد، فهو يمثل سلطة سياسية بعيدة، مركزية ومهيمنة[1].

جانب آخر من جو الشك والريبة اتجاه منطقة القبائل تمثل في رفض طلبات رفعها مجلس المنطقة لتزويده ببعض التجهيزات، كآلات الرقن والنسخ لاستخدامها في نسخ أدبيات الحزب في عين المكان، بدل المجازفة. لقد كان رجال الاتصال يخاطرون كثيرا بنقل المناشير في حقائب وأكياس من الجزائر نحو الداخل. وكان الخطر قويا بسبب وجود نقاط تفتيش للشرطة ودوريات متحركة لمكافحة السوق السوداء.

وقد كاد مثلا أن يلقى القبض في الجزائر- أمام محطة المسافرين- على عمر حداد[2] الملقب بالعيون الزرق (ليزيو بلو). عندما كان يتهيأ للصعود إلى الحافلة بحقيبة مليئة بالمناشير؛ ولم يفلت من مطارديه إلا لأنه كان أكثر سرعة في الركض. كان نقل الصحافة في العاصمة يشكل متاعب كبيرة. والشاهد على ذلك الحادثة التي كادت أن تودي بحياة مناضل شاب من حي بلكور، "أحمد كابا"[3] كان يئن تحت ثقل كيس مليء بنسخ من جريدة "صوت الأحرار" عندما أوقفه شرطيان دراجان كانا في دورية لمراقبة نشاط السوق السوداء. ردة فعل أحمد كابا كانت سليمة، حيث أخرج محفظة أوراقه ليتفاوض مصرحا أنه يحمل تبغا، وأنه مستعد "أن يدفع".غير أن الشرطيين طلبا منه فتح الكيس، وأصر أحمد كابا على مواصلة التفاوض دون جدوى، لكنه كان يربح الوقت لتحضير الهروب. وفجأة رمى بالكيس في وجه أحد الشرطيين، وألقى بنفسه من مرتفع الكاف نحو الكاريير في أعالي الجزائر.

أطلق عليه الشرطيان النار دون أن يصاب، إذ تمكن من الفرار والعودة إلى حيّه ببلكور. ومكث عدة أسابيع طريح الفراش، حيث تورمت مفاصل أطرافه الأربعة نتيجة السقطة. قال لي: "اخترت

---

[1]- بالمقابل إن نجاعة النقل عبر السكة أو الطريق بديهية ، وقد أخذت القطار كثيرا لأداء نشاطاتي على المستوى الوطني وفعلت ذلك دون حرج فالسكة الحديدية تبقى بالنسبة لي غنية بلقاءات مع رجال ومناظر المناطق القسنطينية و مناطق العاصمة ، وهران والجنوب. وكان هذا الإحساس يرافق الإحساس المثير بأن الثورة أصبحت على السكة .

[2]- حكم عليه بالإعدام غيابيا لمشاركته في العملية الثأرية الفاشلة التي قام بها زروال ضد البشاغا آيت علي وكان قد لجأ إلى الجزائر العاصمة. وسنلاقيه في قضية بريد وهران حيث عوض عنصرا تخلف عن العملية في آخر لحظة.

[3]- كان محل بحث مركز ولم يقبض عليه ، ثم اعفي عنه، وكان هو الذي رافقني في السفينة نحو فرنسا في نهاية 1951 كما سنرى ذلك في الفصل التاسع . بعد الاستقلال اصبح من "فريق اهل بلكور" الذي تسلم قيادة الشرطة.

الارتماء في الهاوية بدلا من أن أعذب. من يدري، ربما كنت سأبوح بعنوان إحدى المطابع. أما صوت الرصاص فكأنه منحني أجنحة لأفر بأكبر سرعة".

كان واضحا وبديهيا أنه من الأسلم والأكثر حذرا أن تنسخ أدبيات الحزب في عين المكان. وفضلا عن ذلك كنا نريد أن نقوم في عين المكان بعمل إعلامي عن طريق طباعة منشور للمناضلين يشاركون في صياغته. فجريدة محلية تسمح بتغذية وإعلام الرأي العام بصفة منتظمة، كما تسمح بإثراء الحياة الداخلية للتنظيم.

ومرة أخرى قوبل الطلب بالرفض. وقالت القيادة أنها الوحيدة "المؤهلة" لصياغة أدبيات الحزب. وهذا يعني بتعبير آخر "عليكم بالطاعة العمياء، وإياكم أن تأخذوا أية مبادرة". فالشك والريبة كان يعقد الأمور البسيطة، في حين أن الحوار كان بإمكانه إظهار زيف الحكم على النوايا. وعلى كل حال عندما أتى عمار خليل في مارس 1946 لإضفاء وقار رسمي على ذكرى نشأة الحزب وجد أن الدائرة قامت بتزويد نفسها بآلات طباعة خفيفة. واعترف أن الأحكام المسبقة التي كان يغذيها عدد من زملائه في القيادة غير مؤسسة تماما. إنني أذكر هذه الجولة، لأنها- وللمفارقة- أدت إلى أخطر حادثة ميّزت علاقتنا مع العاصمة.

مكث خليل أسبوعين بيننا، ولاحظ نشاط المناضلين الحماسي وتعاطف المواطنين وتبجيل الشباب لمصالي الحاج، واحترامهم الكبير للقيادة. كما لاحظ تفاني المناضلين وروح التفتح لدى المسؤولين، وتعطش الشباب للتعلم والتكوين حيث كانوا يريدون بناء مستقبل آخر غير ذلك الذي يصيرون فيه عمالا موسميين.

وشده أيضا جدية الفلاحين المسنين ذوي الشوارب الطويلة المعقوفة، الذين كانوا يحضرون الاجتماعات مصحوبين ببنادق الصيد التي لم تكن تفارقهم. ومن خلال مناقشاته بالقبائلية، تمكن من سماع وفهم كل شيء، وهو المنحدر من " تيرميتين"، وهي قرية في بلدية ميرابو (ذراع بن خدة) المختلطة؛ وإن لم يجد قط أثرا "للمشكل القبائلي"، كما لم يغفل عن"الحل" المحلي الذي أوجده المناضلون لاستقبال وزير الداخلية خلال جولته عندنا، وذلك دون أن تعطي لنا القيادة أية تعليمة رسمية عن هذه الزيارة، مع أنها كانت معلنة في الصحافة بالجزائر. عرضنا على خليل

الصعوبات التي تواجهنا، ووجهنا انتقادات لقادتنا، واعترف أن أغلبها كانت مؤسسة قائلا أن للقيادة أيضا ظروفا مخففة.

وعشية مغادرته طرحنا مباشرة- في مجلس المقاطعة- مسألة "المشكل القبائلي"، ما معناه؟ فالجزائر بربرية من الناحية الإثنية، وفيها ناطقون بالعربية وناطقون بالبربرية، وننتمي نحن للفئة الأخيرة. ولسنا ضد الإسلام الذي نعيش يوميا قيمه الإيجابية و الديناميكية. لكننا نعارض الديماغوجية الدينية كعامل في التكوين السياسي.

كنا نرى أنه يجب أن نستفيد من القيم التقليدية لرفع مستوى الوعي والذكاء السياسي للمناضلين. وطرحنا في هذا السياق مسألة اللغة البربرية. وكان محمد أمقران خليفاتي[1] حاضرا وكان خليل يعرفه منذ زمن بعيد حيث التقى به في السجون وخارجها. وكان يعرف أنه قضى حياته في رسم وإعادة رسم الحروف البربرية الأصلية. وطلبنا ألا تبقى هذه القضية من الطابوهات، وأن يفتح النقاش فيها. فعندما نتناقش حول السرطان، فإننا لا يمكن أن نتجاهل طابعه الخبيث، كما لا يمكن تجاهل خطر المواد السرطانية مع الإعلان أننا نريد استئصالها. فالسرطان الحقيقي يتغذى من اللاتسامح والجهل، واسمه التسلط والقمع.

كلفنا خليل بأن يبلغ للقيادة عددا من الأسئلة المرتبطة بالآفاق الإيديولوجية والسياسية، وأضفنا إلى ذلك مطلبا يتمثل في أن تكون لنا كلمة في مستوى ما في مداولات وقرارات الحزب. وحددنا موعدا معه لكي يعطينا الأجوبة في مجلس المقاطعة.

وفي اليوم المتفق عليه، رجع خليل وأبلغنا عموما بما يلي: "أولا: كلفتني القيادة أن أبلغكم وأن أبلغ كل المناضلين إشادتها بالعمل المنجز، وخاصة النجاح السياسي المحقق خلال زيارة تيكسيي.

ثانيا: قررت القيادة الاعتراف بكم.

ثالثا: عينت آيت أحمد ليمثل القبائل في المكتب الوطني للتنظيم[2].

---

[1]- مناضل قديم في نجم شمال أفريقيا وقلم بموازاة ذلك ببحث حول اللغة البربرية وخاصة حول مسألة كتابتها. كان نموذجا في الوطنية وكان يعيش في السرية منذ ماي 1945 وقد اعتقل بعد هذا الاجتماع مع ولد حمودة بالقرب من بوغني إثر وشاية من قايد. أطلق سراح ولد حمودة قبل خليفاتي بكثير الذي تحمل كل الأعباء حتى يخفف عن رفيقه الشاب. وقد حكم على خليفاتي بعامين سجنا.

[2]- كان المكتب الوطني للتنظيم مجرد هيكل تبليغ بين القيادة في الجزائر والمقاطعات.

تحت هذا الشلال من الورود المنثورة كانت النقطة الثانية كأنها غير مرئية. طلبت من خليل أن يوضح لنا معنى عبارة: "الإعتراف بكم" فبدا مرتبكا جدا، وتملص من خلال جملة عاطفية كنا لا نشك في صدقها ومفادها أن القيادة تعمل على تطبيع الأمور، وأننا ننتمي كلنا لعائلة واحدة.

ولما كان خليل الوفي موجودا بيننا كمجرد حامل رسالة، فقد تلقينا تفسيره العائلي من دون أن نعلق عليه[1]. ولكن بعد ذهابه كان الاستنكار عارما. العيمش ، الذي كان كعادته دقيقا ومباشرا في سرد حجته، قال: "بما أن القيادة تعترف بنا اليوم فهذا يعني أنها كانت بالأمس تعتبرنا في الهامش، خارج الحزب! فالعائلة تعطف علينا بالاعتراف بأبنائها غير الشرعيين! ماذا يحسبون أنفسهم ؟ هل يظنون أنهم سلاطين الباب العالي؟". قررنا بالإجماع رفع احتجاج، وكان يجب أن نفعل ذلك لأن حتى النقطة الثالثة أثارت استياءنا: منذ متى يعين مندوب مقاطعة من فوق؟ فمجلس المقاطعة له الأحقية المطلقة في تعيين ممثله. وفي هذا المجال لا يقبل أن تفرض عليه القيادة ممارسة أحادية تذكر بطريقة فجة بتوزيع البرانس التي كانت سائدة في مصلحة شؤون الأنديجان لدى الحكومة العامة.

لم نكن نعرف بعد مبدأ القرار الجماعي، ولكننا كنا نعيشه فعليا في فريقنا: لا يوجد قرار يتخذ بدون نقاش، ولا أحد يفرض إرادته على الآخرين. كنا نتقزز من فكرة القائد الأكبر أو فكرة الزعيم المطلق. ففي حياتنا كخارجين عن القانون، كنا نختلط دوما بالمناضلين والمواطنين .

وفي العلاقة مع القاعدة، كنا لا نخرج أنفسنا عن نطاق النقاش والنقد. كنا نطالب بالديمقراطية، لأننا كنا في ممارستنا اليومية نتعلمها على الأرض.

غير أنه ما كان يجب أن نخطئ في تحديد الخصم. كان "التململ" محصورا على مستوى المسؤولين، أما المناضلون فقد كانوا يجهلونه. لم يكن مناسبا أو مفيدا إعلامهم بذلك. فالأهم يكمن في تسليح وتقوية صفوف الحزب، ومواصلة مهام التنظيم والتربية السياسية التي سهلتها، وهي مفارقة سياسية، عمليات القمع المنتهجة من طرف السلطات

---

[1]- وقد عمل فيما بعد جاهدا لتحسين الأمور. وجاء الدكتور الأمين دباغين بنفسه إلى القبائل ليعتذر عن استعماله في الجواب المرسل إلينا عبارات تجاوزت أفكاره.

الاستعمارية. كما نشهد نشوء سلطة شعبية مضادة لمسنا قوتها في ظروف مأساوية، تمثلت في وفاة العيمش في 2 أوت 1946.

توفي العيمش بنوع حاد من التفوئيد الذي انتقل إليه عن طريق واعلي بناي، الذي كان أول من أصيب به ولكن بصورة أقل خطورة. عند مرورنا بالبيت في طريقنا إلى الضيعة وجدنا أنا والعيمش، واعلي بناي يصارع الحمى. ولم تفد معه لا الأسبرين ولا الأدوية التقليدية من مشروب الأعشاب والخل. ولكنه وجد القوة والشجاعة الكافيتين لقطع العشرين كيلومترا التي كانت تفصلنا عن الضيعة[1]. حيث كان سيعقد مجلس المقاطعة. وأذكر عن هذه الرحلة الأخيرة التي قمت بها مع العيمش مشاكساته وفكاهته على الخصوص. كان يستفز كبرياء المريض لكي يسرع خطاه، أو يجعله يقبل المساعدة في قطع الوادي، والقفز من حجر إلى آخر. كان يداعبه مازحا: "أيها المرابط، آكل القرعة(الكوسة)! أدع جدك لنجدتك! تشجع!"

غير أنه في المساء، خلال اجتماع مجلس المقاطعة، لم يكن بناي هو المتضرر بل العيمش الذي صار في وضع مزر. ورجاني أن أقدم التقرير المالي عوضا عنه (كان هو المكلف بالمالية) قائلا أنه يحس بتعب كبير. وقضينا الليل كله نبلل رأسه بضمادات باردة حتى نخفف عنه وطأة الحمى. وتحولت المشاكسات إلى الصف الآخر، وبدأ واعلي بناي يمازح ويداعب المريض قائلا له" يا وكال الكرموس (التين) ، وكان يفعل ذلك محاولة منه إخفاء القلق الذي انتابه.

في اليوم الذي كنت متوجها إلى الجزائر، نقل العيمش لأسباب أمنية إلى قرية آيت زلال التي كانت تبعد حوالي 10 كيلومترات. وفي اليوم التالي، وصلتني برقية عن طريق خليل يعلمني فيها بوفاة علي العيمش، طالبا مني العودة على عجل. طلبت من المكتب السياسي أن يوفد قياديا لحضور مراسيم الجنازة. التحق بي في السهرة أحمد بودا عند خليل، وأخبرني أنه سيرافقني بمعية حسين لحول، وهما عضوان في المكتب السياسي.

---

[1]- سبق لي أن تكلمت عن الضيعة في الفصل السابق. كانت الضيعة غير بعيدة عن فريحة وكانت بمثابة مقر وملجأ لنشاطاتنا السرية. وكونها موجودة في الضفة المقابلة لوادي سيباو كان يلزمنا قطعه سباحة وسط مياه هائجة لهذا الوادي الذي يصب في البحر قرب دلس.

تم نقل جثمان العيمش إلى مسقط رأسه في قرية إشراي يوان، في دوار تيزي راشد، في يوم 3 أوت 1946 على الساعة الثانية زوالا. وهناك حظي بتقدير وعرفان كل القبائل الكبرى و الصغرى.

وصلت إلى القرية عشرات الحافلات والشاحنات ومئات السيارات من كل مكان، حاملة المناضلين والمتعاطفين والأعيان. ونزل الآلاف من الفلاحين رجالا ونساء، ، وأطفال كثيرون من أعالي الجبال، وتدفقوا عبر الوديان إلى سيدي راشد[1].

قام زكال بنقلنا أنا وبودا ولحول على متن "طاكسي الوطن". عندما نزلت من السيارة شدني من بعيد مشهد عظيم: كانت أمواج من البشر سمرتها أشعة الشمس وأجواء الخشوع حول القرية وبين أزقتها مغرقة بساتين التين والزيتون. ولم يكن الإحساس بالقوة ناجما عن العدد الكبير فحسب، بل من الانضباط الذي كان يميز سلوك السكان[2]. ولأول مرة، ظهرت عشرات الرايات الجزائرية إلى العلن. وتحرك الموكب الجنائزي على أنغام الأناشيد الوطنية بالعربية والقبائلية التي كان يرددها إطارات شابة للحزب، ويعيد إنشادها الحضور. بعد كلمات تأبين ألقاها بودا بالعربية، ثم لحول بالفرنسية، ارتجلت خطابا طويلا بالقبائلية بطريقة لا تحصل إلا في ظروف الالتحام العميق.

استقبلت اشراي يوان، قرية العيمش، في القرن السابق ولادة الشاعر القبائلي الكبير سي محند أو محند. شاعر غنى الحب والحياة والصداقة، وأيضا رفض الخضوع والخنوع. "ننكسر ولا ننحني". هذا ما قاله في قصيدة شهيرة. ذلك الرجل الذي وصل إلى حد الرغبة في المنفى، لأنه كان ساخطا ومتمردا على " أولئك الذين يقبلون أن يصبحوا قوادين، مرضاة لسادتهم الجدد"[3]. كان رمزا للمقاومة الصامتة والسلبية بعد اليأس الذي أعقب هزيمة القبائل في عام 1871.

---

[1] - نساء تيزي راشد اللاتي كان يعرف العيمش كيف يتحدث إليهن بحياء عن قيم الحرية والمساواة تجندن لكي يحضرن الأكل للجميع وكثيرات منهن قطعن الكيلومترات لاستقبال النعش مولولات.

[2] - حوالي 50.000 (50 ألف) شخص حضروا حسب مصادر إدارية. وكانت السلطات فكرت في أمر الدرك ثم الجيش لمنع مراسيم الجنازة وتفريق الجموع. غير أن الإدارة قررت في الأخير ترك المراسيم تمر بهدوء.

[3]- لم يذهب إلى المنفى ولكن هذا المسافر الأبدي تحرك كثيرا-انظر مولود فرعون: أشعار سي محند-باريس-

أما العيمش فكان هو أيضا رمزا للمقاومة، ولكنها مقاومة فاعلة تتمحور حول مشروع مجتمع يناضل من أجله إلى جانب الجماهير الشعبية. كانت المقارنة والمقاربة بين الرجلين موضوع كلمة وداعي للرجل. ولم يسجل أي حادث خلال تلك الجنازة المهيبة.

كان هنا توافق في الحزن والأمل. وأدى المكلفون بتأمين الهدوء والأمن دورهم جيدا، حيث تمكنوا من إحباط عدة محاولات استفزاز قام بها عملاء محليون.

لدي الكثير لأقوله عن العيمش، صديقي ورفيقي في السرية، المتوفى في سن الواحدة والعشرين. ففضلا عن ثقافته السياسية الواسعة كان خطيبا وممثلا بارعا. وكان يمكنه أن يقلد غاندي ورابندرانات طاغور ولينين (كان يقرأ كثيرا كتب ماركس وإنغلز ولنين). كما كان يقلد تشرشل وروزفلت. كان يحسن استعمال الأكليشيهات السياسية والإيديولوجية ليبني عليها خطبا طويلة. وكنا نسعد بزيارة صاحب مطحنة في تيزي راشد الذي كانت له القدرة على السرد- عن ظهر قلب- فقرات من ميثاق الأطلسي وميثاق الأمم المتحدة وخطب كبار رؤساء الدول المتحالفة.

وكان كلما طلب منه علي العيمش أن ينطلق في إحدى خطبه، كان عليه بالمقابل أن يقلد رمز اللاعنف (غاندي) أو أب الوطن الاشتراكي .

في كل منطقة فور ناسيونال سقط رفقاء العيمش بالعشرات في ميدان الشرف. وبعد نوفمبر 1954، دفعت عائلته ثمنا رهيبا من أجل الاستقلال.

شنق الجيش الفرنسي أباه علنا ببوسهل، وهي قرية أخرى من دوار سيدي راشد. أما أخوه الأكبر الذي كان السند الوحيد لعائلته الكبيرة فصار مقاوما كبيرا. كانت مهنته البناء، وسيتخصص في بناء مخابئ تحت الأرض لجيش التحرير ولجبهة التحرير. كانت القوى الاستعمارية تبحث عنه بإصرار، وتم تحديد مكانه في مغارة حيث تم تمزيقه بقذفه بقنابل يدوية[1].

---

[1]- هناك شيء مؤلم علمت به عن طريق اصهار اخته التي تزوجت وتعيش في فرنسا: لقد رميت جثته لكلاب القرية الجائعة ولم يتعرف عليه إلا عن طريق وشم كان في يده.

أما أم العيمش فقد ذهبت بعقلها المصيبة الأولى، ولم تضف إليها بقية المصائب- بما في ذلك الموت البشع لزوجها وابنها الأكبر- أكثر مما كانت فيه[1].

بعد أيام قليلة من رحيل علي العيمش توفي رفيق آخر بنفس المرض، وهو علي أوصالح في سن 22 من قرية بوسهل الموجودة تحت إشراي يوان.

وكان هذا المناضل الذي كونه علي العيمش عضوا في الفريق المكلف بالاتصال وتوزيع أدبيات الحزب. نقلناه إلى مستشفى القطار بالجزائر العاصمة، عند ظهور الأعراض الأولى للمرض. ولا أزال أذكر وجهه الحزين- من وراء اللوح الزجاجي للمرضى المعزولين- وهو يحاول التغلب على حسرته وخجله وراء ابتسامته. الأصعب عند المصاب، أن هناك أمورا عملية يجب حلها على الفور. كنت أعرف أم أوصالح الذي كان سندها الوحيد، ولم أكن أتصور أن لا تعاد إليها جثة ابنها قبل أن يوارى التراب.

ولكن في حالة الوفاة بسبب مرض معد، كان لا يمكن إخراج الميت من المستشفى إلا بترخيص خاص، وأن يكون في صندوق مشمع، وأن تعطي بلدية الجزائر التصريح بنقل الجثة عبر ترابها؛ وهذا التصريح مشروط بإجازة للدفن تأتي عن طريق برقية من بلدية تيزي راشد.

وأمام هذه المشاكل الإدارية، العادية عموما، ساعدني رجلان ومدا لي يدا كانت مفيدة للغاية في ذلك الجو من القلق والتوتر، إنهما الدكتور نور أو صديق، طبيب أمراض باطنية في المستشفى، وأحمد زميرلي، صديقي في الثانوية لمدة خمس سنوات، وكان ممرضا في المستشفى. بعد أن فوجئا بلقائي، قام الاثنان بكل الإجراءات بما في ذلك الاتصال بشركة "خدمة الجنائز ونقل الموتى".

وكانت صدمتي كبيرة حين وجدت أنه- بدل السيارة السريعة- أرسل إلينا "كاليش" عربة تجرها أربعة أحصنة. وتم إصلاح سوء الفهم

---

[1] ـ كانت من حين لآخر تأتي لتعيش معي في الجزائر بعد الاستقلال لكي " تستنشق رائحة ولدها" عسى أن تصبر نفسها . بطلب منها وجدت لها شقة في فورنا سيونال لأن بيتها كان قد دمر خلال الحرب ولكنها كانت لا تمكث في مكان. وقالت :" مات على من أجل الجزائر فلا أريد حقي من الجزائر العاصمة". في الواقع كل الناس كانوا يريدون حقهم منها مما زاد في قوة الزحف الريفي.

"بكارثة" أخرى، إذ أرسلوا لنا شاحنة على شكل (fourgon) مترهلة كأنها خرجت من حظيرة حطام السيارات.

وبهذه الشاحنة قمنا برحلة دامت ست ساعات، مع سائق مخمور ومصباح واحد. وهو ما أدى إلى تزايد عدد المرات التي تم إيقافنا فيها أمام نقاط التفتيش. وكانت هذه العمليات لا تقلقني، لأنني كنت أبدو من دافني الموتى، ولأنني كنت أفكر كثيرا في الرفيق الذي أعيده في كفن. كما كانت تشغل بالي مهمة صعبة، وهي كيف أجعل أمه تتحمل وتصبر على أن لا ترى ولا تقبل ابنها.

وصلنا إلى قرية بوسهل وسط مشاعل تبدد الظلام، وجمع كبير من المناضلين وسكان القرية. وأحسست بالارتياح لأنني تمكنت من إعادة الشاب علي إلى أهله. دفن في إشراي يوان، قرب علي العيمش. وكانت أمه قد فتحت الصندوق الذي كان مسجى فيه، دون أن يكون في مقدور أحد أن يمنعها من ذلك.

في هذه الصائفة من عام 1946. لم يكن التململ من العراقيل التي تواجهها مبادرتنا ليثبط عزيمتنا وحماسنا. ولكن هذه العزيمة عرفت امتحانا عسيرا، خلال انتخابات المجلس التأسيسي الثاني التي حقق فيها الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لفرحات عباس أحد عشر مقعدا من مجموع ثلاثة عشر. وفي مجلس الشيوخ الفرنسي (قصر بوربون) ، كان عباس وأصدقاؤه يعملون على التصديق للجزائر على مشروع دستور ذي أسس فيدرالية، في إطار الوحدة الفرنسية، وذلك وفقا للشعار المرفوع: "لا إدماج ولا انفصال ولا استعمار ولا أسياد جدد".

كان حزب الشعب يواجه بعنف طروحات الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، متهما إياه بخيانة العهد المقدس الذي أبرم حول البيان الجزائري. وكان يندد بحضور حزب فرحات عباس في الغرفة البرلمانية الفرنسية معتبرا ذلك خيانة لمبدأ السيادة الجزائرية.

في أكتوبر، عشية انتخابات المجلس الوطني الفرنسي (10 نوفمبر 1946) ، سمح لمصالي الحاج الذي كان منفيا في برازافيل بالعودة[1]. وغداة عودته، حيث استقبل باحتفال كبير في الجزائر، علمنا عن طريق الصحافة بمنعطف في سياسة الحزب لم نكن محضرين له تماما: أعلنت

[1] - سمح له بالعودة ولكن فرضت عليه الإقامة الجبرية في بوزريعة.

جريدة "صدى الجزائر"(l'Echo d'Alger) مشاركة حزب الشعب في الانتخابات التشريعية، ونشرت قائمة مرشحينا الذين تقدموا تحت شعار "من أجل انتصار الحريات الديمقراطية". صدمنا لهذا التسرع في اتخاذ قرار لم تتم استشارة المسؤولين والمناضلين فيه، والذي لم يكن الرأي العام الجزائري مهيأ له. أوفدني رفاقي إلى الجزائر لكي "أضرب على الطاولة"، وأطالب بتفسيرات في الموضوع. طبعا، كنا واعين بما فيه الكفاية بأننا لن نتمكن من منع هذا الخط السياسي الجديد، ولكن كانت لي مهمة واضحة وهي أن أقول للقيادة بأننا لا نقبل مسايرتهم في اللعب، إلا إذا تم بالمقابل وفي أقرب الآجال دعوة مؤتمر ديمقراطي للحزب، يكون من مهامه تحديد التوجهات، تجديد أو تغيير الهياكل القيادية، وبصفة عامة فتح مناظرة عامة داخل الحزب.

وفور وصولي إلى بوزريعة، تم إدخالي على "الزعيم الكبير"، كما كنا نلقبه آنذاك. كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب وأتكلم معه. كنت بصدد التحدث مع أسطورة، ولكنني كنت محصنا من جاذبيته الكارزماتية بتوصيات وتحذيرات الرفاق. كنت في وضع الإنسان الذي لم يبق له سوى أن يعلق تميمة في رقبته، حتى يفلت من سحره ويبلغ رسالته بأمانه.

كثيرا ماكان يقارن مصالي الحاج براسبوتين، في حين أنه- باستثناء اللحية- نقيضه تماما. كان يحظى بهذه الجاذبية لإيمانه الوطني، إضافة إلى تحضره ولطافته التي لا نظير لها.

وها أنا أمام الأسطورة، ذلك الذي يبدو منزها عن الخطأ وفوق الأمور الدنيا. وحاول بنبرة أبوية طمأنتي وإقناعي. وكانت حجته الأساسية في الدفاع عن فكرة مشاركة حزب الشعب في التشريعيات قد أخذها عن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية، حيث كان يقول أن القضية الجزائرية غير معروفة بل مجهولة من طرف الرأي العام الفرنسي والدولي. ويمكن ان تكون غرفة الشيوخ الفرنسية منبرا إعلاميا ودعائيا جيدا. وكان بديهيا أن الأوضاع الجزائرية لم يكن لها وزن يذكر في قرار مصالي الحاج. فهو لايملك نظرة منسجمة حول المستقبل السياسي للبلد والحزب. كل ما يهمه الآن هو أن يحرص على تحقيق انتصار في هذه المعركة التاريخية. قد تكون هناك تحفظات وحتى انتقادات، ولكن ما وزنها أمام سمعة هذا القائد الذي زادت في شعبيته المحاكمات والسجون والمنافي.

بقيت إجابته مبهمة في مسألة دعوة مؤتمر للحزب، فهو لا يرفضه بصفة مسبقة، ولكنه قال "انه علي أن أتحدث في الموضوع مع "الرفاق" وهو يعني أن أرفع القضية إلى القيادة السياسية. وفي المساء نفسه استقبلني ثلاثة أعضاء قياديين في حزب الشعب، وهم لحول، عسلة وفيلالي. أقسموا أن قرار المشاركة الانتخابية لم يتخذ بسهولة ورحابة صدر. واتخذ بالإجماع (باستثناء صوت واحد وهو صوت لحول الذي أصر على المقاطعة حتى النهاية) بعد يومين من المناقشات الحادة. قلت عندها: "إذن كان لكم متسع من الوقت كاف لاستدعائنا ومعرفة رأينا".

كنت أرفض تقبل هذه الحجة التي تستند إلى تسارع الأحداث، التي- كما سنرى فيما بعد- أضحت "الصيقة" بالإيديولوجية الوطنية. لكنني حصلت على وعد علني أن تاريخ المؤتمر سيتم تحديده غداة الاقتراع.

وإذا كان المنعرج السياسي حادا، فإن التوترات التي أحدثها في صفوفنا خفت وطأتها بسبب الحماس العام السائد. فالحملة الانتخابية حركت السيل الشعبي الجارف، وكانت بمثابة تنفيس جماعي. وإذا كان شعار الاستقلال في خطاب القادة يعبر عن آلية تعويض لهذا المنعرج، فإن عبارة الاستقلال المتبوعة بنعوت "التام" و"الثوري" كانت تثير حماسا فياضا لدى الجماهير الشعبية المهمشة اجتماعيا وثقافيا. وكانت الجماهير الشعبية لا تفرق آنذاك بين الحل السياسي التوافقي والتورط السياسي. لهذا كانت تتمسك بصخب الخطاب العنيف. أما بالنسبة للإدارة الاستعمارية، فهي بسماحها انتخاب نواب تحت قائمة "من أجل الحريات الديمقراطية" تحافظ شكليا على صورة الانتخابات، وتعطي لنفسها ضمانات ضد التهديدات المستقبلية بخصوص التزوير الذي يحوم حول الاقتراع[1].

[1]- كنت أراقب عمليات الاقتراع في عزازقة (مقر البلدية المختلطة لسيباو الأعلى) وفي أزفون. وكان جليا أن الإداري السيد باتيسيني لا يحظى بالثقة في تسيير عمليات التزوير حيث كانت في أماكن عديدة شاحنات الشرطة تتوعد المواطنين عن طريق مكبرات الصوت "بويلات الحرب إن هم اتبعوا الرعاة الضالين". في عزازقة قام أعوان الإدارة البوليسية الذين أتوا من الجزائر باعتقال ممثلي الحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية الذين كانوا يحاولون الدخول إلى مكاتب الاقتراع. وتدخل باتيسيني لاطلاق سراحهم. ولما كانت لي أوراق مزيفة جيدة تمكنت من حضور عمليات الفرز على مستوى المكتب المركزي. السيد باتيسيني الذي كان يعلن بصوت عل أوراق الاقتراع أصبح يختصر ليقول "انتصار الحريات الديمقراطية". كان الناس يضحكون وينظرون باحترام إلى الرجل الذي كان يعلن عن فوزهم. فمن وراء قبعة الدركي والزي العسكري ، كان هذا السيد يعطي صورة أخرى لفرنسا.

وهكذا فُتحت مرحلة الشرعية للحركة التحررية، وظهر حزب الشعب للعلن تحت تسمية الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. وخرج قادته من ظلمات المجهول، ليظهروا على الساحة السياسية إلى جانب قائدهم مصالي الحاج، الذي رفضت الإدارة ترشحه للانتخاب. وأصبح لنا- نحن مقاطعي الانتخابات بالأمس- خمسة ممثلين في مجلس الشيوخ الفرنسي أي ثلث المقاعد المخصصة[1].

بعد مرور الموعد الانتخابي توجهت مع بناي وآيت مدري وأوصديق إلى العاصمة، لاستلام الجواب الموعود بخصوص استدعاء مؤتمر الحزب. فوجدنا قادتنا منغمسين في مهامهم الجديدة. كانت بوزريعة، مكان إقامة مصالي، تعج بالمناضلين والمتعاطفين والمواطنات والمواطنين الذين جاءوا للتحية أو لطرح مشاكلهم. وكنا من هذا الصنف. توغلنا وسط الجمع الغفير، ووصلنا إلى مصالي الحاج الذي منحنا لقاء قصيرا. قلنا له إن المناضلين يرون أن انعقاد المؤتمر أمر ضروري، وأنه يستوجب أن نكيف إيديولوجية وهياكل الحزب مع تطوره الحقيقي.

كما قلنا، إنه آن الأوان للقيام بتحليل جدي للوضع السياسي، وأن نفتح سويا آفاقا للجماهير الشعبية التي تعقد آمالا كبيرة على الحزب. فيجب أن تقيم الأمور من مرحلة ماي 1945 حتى لا تتكرر بعض الأخطاء. وكنا جد متمسكين بهذا المطلب الأخير.

بطريقته المتمدنة واللطيفة وجهنا مصالي الحاج مرة أخرى نحو "الرفاق". أما هو فكان يرى من الضروري أن يستطلع آراء المناضلين والشعب. بعد ذلك وببساطة قدم لنا زوجته وأبناءه علي وجنينة، كما عرفنا بإبراهيم معيزة ، محامي شاب من أصول سطايفية جاء معه من باريس في عام 1946، ثم طلب منا بعد زيارة المجاملة هذه أن نتركه يرتاح قليلا قبل أن يمنح لنا لقاء عمل آخر.

وفي هذه المرة أيضا، لم نتمكن من عقد اتصال جدي مع المكتب السياسي الذي لم يكن لديه الوقت ليبت في مسألة اقتراحنا بعقد مؤتمر الحزب. غير أن جولتنا في الجزائر العاصمة لم تكن عديمة الفائدة، حيث سمحت لنا بالتعرف على عدد من أعضاء اللجنة المركزية، الذين كانوا في الغالب معينين وليسوا منتخبين، كما يفترض أن يكون الحال في كل

---

[1]- وهم الامين دباغين ، مسعود بوقادوم وجمال دردور في قسنطينة وأحمد مزغنة ومحمد خيضر في الجزائر العاصمة. اغتيل خيضر في 1967 بمدريد.

هيئة تمثيلية. فبعد عودة مصالي الحاج تكون المكتب السياسي- المشكل بطريقة اعتباطية- حول نواة من القادة المعروفين. وتفاجأنا بوجود جو من عدم الرضى لدى الحرس القديم للحزب. ومن بين أسباب الخلاف طريقة تشكيل اللجنة المركزية، والمحاباة في تعيين المرشحين للانتخابات التشريعية. وفي المقابل، لم يكن هناك انتقاد يذكر لمبدأ المشاركة في الانتخابات، مادام قد زكاه وقرره مصالي الحاج نفسه.

كانت هناك مجموعتان تتنازعان القيادة على شاكلة العصب التقليدية. فلم تعد المسألة بين صف "أصحاب الفوق" وصف "أصحاب التحت"، بل كانت بين أصحاب "الدوزيام"[1](الدائرة الثانية، أي القصبة) الذي يقوده عسلة، وأصحاب بلكور[2] الذين كانوا يتبعون الدكتور الأمين دباغين.

وكان الخلاف بينهم لا يرتبط بأمور طوبوغرافية أو جغرافية، حيث كان فيلالي من جماعة بلكور في حين كان يسكن ويتجول في القصبة أكثر الوقت. وأما لحول وبن مهل من جماعة القصبة فكانا من سكيكدة والبرواقية. والاختلاف لم يكن سببه علاقات طبقية أو صراع أجيال. الحرس القديم من جهة والجيل الصاعد من الشباب ذوي الأصول البرجوازية الصغيرة من جهة أخرى . فكل فريق له مثقفوه وأبناء العائلات المعروفة وإطاراته الشابة "من الذين خرجوا من صفوف الأميين".

في جماعة بلكور، كان هناك بودا و فيلالي وخليل، و هم مناضلون قدامى من العصاميين من أصول شعبية، وصلوا إلى المسؤوليات بكدهم وعملهم وبثباتهم ووفائهم لقائدهم. أما الدكتور لامين دباغين، فلم يكن من العامة، ولكنه كان قريبا منهم براديكاليته والنبره الروحانية لتصوراته الدينية التي تقربه من الإسلام الشعبي، فضلا على أنه كان شخصية صارمة. وكانوا يمثلون معا تيار النشطاء الشعبويين.
بالنسبة لمجموعة القصبة، وباستثناء المناضل القديم حاج شرشالي، كان عبد الحميد سيد علي وسعيد العمراني القبائليان يتمتعان بنسبة من التعليم. أما عسلة، ففضلا عن تكوينه الجيد في اللغة الفرنسية فقد حافظ من خلال مسيرته الطويلة مع جمعية العلماء على نظرة إصلاحية في

---

[1]- وهم على الخصوص عسلة ولحول وبن مهل وخيضر وشرشالي وسيد علي والعمراني ومحمد طالب.
[2]- وهم الدكتور الامين وفيلالي وبلوزداد وبودا وخليل .

الدين ومعرفة جيدة باللغة العربية. وكان مناضلا استقلاليا متحمسا، ولم ينكر أبدا أصوله البربرية.

في حالة كهذه تكون الاتهامات المتبادلة مبالغا فيها، ولا تؤدي إلا إلى خلق بؤر من التوتر الشديد. أما نحن، فكنا نرفض أن نتخذ موقفا من هذا الخصام، لأن همنا الأساسي كان تمرير فكرة استدعاء مؤتمر ديمقراطي للحزب. كنا نتردد على حي بلكور، لأننا وجدنا فيه المأوى والاستقبال الحار والبسيط والأخوي. كان مصنع السدادات الفلينية- الموجود بالقرب من حي "العقيبة" الشعبي المكتظ والمقبرة الإسلامية- هو مكان إيوائنا ولقاءاتنا. كنا نثير اهتماما لدى الشباب وإطارات الحي عندما كنا نتكلم عن المؤتمر. كان رد الفعل الأولي للإطارات حذرا، حيث كانوا يثقون في القمة: "ومادام هؤلاء يتدبرون أمرهم دوما فليستمروا".

كانت الصراعات الداخلية للحزب- والتي يجهلون خفاياها- لا تبدو لهم أنها تهمّ مستقبل البلاد. ولكن عندما تخرج هذه الصراعات إلى الساحة العمومية، وتصبح معلنة فغالبا ما يتساءلون عما إذا كان الوقت لم يحن بعد حتى يكون النفس التطهيري للقاعدة الوسيلة الوحيدة لإخراج حركة التحرر من قوقعة الصراعات الشخصية ومن دسائس العصب. والغريب أن العصبتين المتصارعتين اتفقتا على معارضة استدعاء مؤتمر للحزب، وكأن الطبقة السياسية رصت صفوفها أمام خطر خارجي يهدد احتكارها وصلاحياتها. ولما أعدت الكرة في بداية ديسمبر، أعلمني المكتب السياسي أن ندوة الإطارات ستنعقد في بوزريعة في نهاية الشهر. وكان هذا يعني ضمنيا رفض استدعاء المؤتمر. وكانت المناورة تهدف إلى امتصاص الضغط المتصاعد للمناضلين من أجل انعقاده.

ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه اتجاه هذا الموعد الكاذب؟ بعد أن أخذت أراء بعض المسؤولين في الجزائر، عدت لتقديم عرض حال أمام مجلس المقاطعة. قرر هذا الأخير أن نكون حاضرين في ندوة الإطارات لأن عدم المشاركة قد يكرس طروحات عدم الانضباط والعمل الانشقاقي المأخوذة من "شكشوكة" أدبيات المركزية الديمقراطية.

وكنا نرى أنه من الإيجابي أن نخرج من النقاش المحصور مع القيادة، ستكون لنا الفرصة لنشرح لمندوبي مناطق الجزائر الأخرى أن

مشاكلنا هي مشاكلهم، ونوسع بالتالي النقاش السياسي حول مسألة المؤتمر.

انعقدت ندوة الإطارات في نهاية ديسمبر في إقامة خاصة في غابة باينام بالقرب من بوزريعة، تحت رئاسة مصالي. حضرها حوالي خمسين مشاركا تم تعيينهم بصفة غامضة، حيث أن كلا العصبتين عملت على إدخال عناصرها، إلى جانب الرجال الذين اقترحهم القائد الوطني لحزب الشعب. أذكر بعض المشاركين الذين أصبحوا معروفين مثل بن يوسف بن خدة، سعد دحلب والطيب بولحروف والدكتور شوقي مصطفاي والهواري سويح. وفي المقابل لم يحضر محمد بوضياف ولا أحمد بن بلة.

لم تدم الندوة أكثر من سهرة واحدة، وكان برنامجها هزيلا، تخللتها تدخلات بلاغية لمصالي ولحول. باستثناء صدق مشاعره الوطنية كان قد تدخل إبراهيم معيزة الذي يمتاز بأسلوب يصلح لمستمعين من باريس ، وليس لآذاننا المحنكة كمناضلين مسؤولين. ثم طلب مصالي من الحضور إذا كانوا يريدون طرح أسئلة، فأخذت الكلمة حينها وقلت أننا سعداء بوجودنا هنا، ولكننا لم نكن نطلب هذا النوع من الندوات[1].

كنا نريد مؤتمرا، وأعطيت لنا وعود حازمة بهذا الخصوص. أما الآن فهذه الندوة تبعد إلى أجل غير مسمى الموعد المرجو...

وتدخل بعض المندوبين ليصبوا في نفس الاتجاه؛ وهم مناضلون قدامى من الجزائر والحراش وعنابة وتلمسان. وهنا رمى مصالي بكل ثقله في النقاش؛ وبلهجة مفعمة بالأحاسيس طلب منا أن نبقى موحدين قائلا:" تذكروا سيدنا علي ومعاوية بن أبي سفيان ، لم يرفع الإسلام رأسه منذ تلك الفتنة". ودعا بعد ذلك إلى الحكمة والثقة وهو ما يعني أن القمة تدرك ما هو مفيد للحزب. ركز بناي وأوصديق على موضوع الوحدة، مؤكدا على "أن الوحدة الحقيقية للبلد و الحزب تلك التي يعود بناؤها للمناضلين والقاعدة". وكانت العبارة لا تخلو من الإيحاء الذكي خاصة عندما نعرف أن القيادة منقسمة.. أما نحن فقد أعلنا أن مقاطعة القبائل ستمتنع عن تعيين ممثلين في المكتب الوطني للتنظيم، طالما لم يتم تحديد تاريخ انعقاد المؤتمر. وأننا لن نقدم تقارير، ولن نبلغ أوضاع حال بخصوص الأمور المالية.

---

[1] - كانت صيغة الجمع نحن تعني آيت مدري ، لوصديق ، سيد لحمد ، بناي وأنا.

قام أفراد كلا العصبتين المتصارعتين في الحزب بلومنا على "عملنا المخل بالانضباط"، ولكننا لم نفعل إلا أن قلنا جهرا ما كان يقوله كثيرون بطريقة خافتة. وفي نفس المسعى قام مناضلون إطارات من الجزائر بإنشاء لجنة يقظة ثورية وطالبوا هم أيضا باستدعاء المؤتمر. ورغم أن هذه اللجنة طلبت منا الانخراط، إلا أننا رفضنا أن ننظم إليها لأننا لم نستشر بخصوص إنشائها، وأيضا لأننا كنا نخشى أن يحوم حولها صراع الأشخاص. وهو ماكان يفتح الباب أمام احتمال انقسام الحزب.

أعرف أنه وجهت لبناي تهمة تحريك تلك اللجنة، لكنه كان اتهاما خاطئا، لأن صاحب المبادرة ومنشطها كان آرزقي جمعة، ذلك الرجل الذي أبلغ مجلس مقاطعة تيزي وزو المجتمع في 16 ماي 1945 أمر القيادة بخصوص القيام بالانتفاضة.

وبتدعيم قوي من كل مسئولي القبائل، تمسكنا بمواقفنا. وأدت المشاورات والنقاشات إلى إقناع العصبتين ومصالي نفسه بأن لهم الكثير مما يرجونه، ولاشيء يخسرونه من انعقاد مؤتمر وطني، وقرر أخيرا مصالي استدعاء المؤتمر لشهر فبراير 1947.

كما تقرر أن يكون عدد المؤتمرين محدودا، لأنه كان يتوجب أن يحاط الحدث بسرية تامة، وأن تمثل المقاطعات الخمس بخمسة عشر مندوبا مع دعوة الإطارات المهمة للحركة منذ نشأتها. أما وفق أية معايير سيتم ذلك ؟ كنا نجهل هذا. كان يمكن أن نعترض على هذا النمط في التمثيل لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار عدد المناضلين في كل مقاطعة[1]. وكان يمكن أن نناقش مسألة اختيار الإطارات "التاريخية"، ولكن كانت القيادة سترى في ذلك مساسا بسلطتها.

ولم تكن الساعة للوم أو طرح مثل هذه المسائل، حيث أن الإعلان عن استدعاء المؤتمر كان من أثره أن تحسنت الأجواء. ولأننا شاركنا في تحضيره أعطانا ذلك الحرية في صياغة تقريرنا بصفة مستقلة (يجب الإشارة إلى أنه لم تكن لدينا أدنى تجربة في هذا النوع من المواجهات، رغم أن قراءاتنا كانت قد لفتت انتباهنا بأهمية أشكال التحضير، باعتبارها حاسمة). لم نكن نفكر إلا في شيء واحد : انتصار القضية

---

[1]- ليس من الجدل أن نسجل عاملا مؤكدا حتى إنشاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية - الحركة الشرعية- أن عدد المناضلين في منطقة القبائل كان أكبر من مجموع المناضلين في مناطق الجزائر الأخرى كلها.

الوطنية[1]. فبعد أن اخترنا مندوبينا لمنطقة القبائل[2]، ركزنا جهودنا على تحضير تدخلنا في المؤتمر.

لم يشارك علي حاليت، القائد السابق للمقاطعة، شخصيا بسبب المخاطر المحدقة به إن انتقل إلى بوزريعة[3]، لكنه شارك معي إلى جانب أوصديق وآيت مدري في صياغة تقريرنا السياسي (وكان قد تنكر في زي مرابط وبقي في بيتي في القبائل ليؤدي نوعا من المداومة). أما التقرير العام فقد قدم كل مندوب مساهمته فيه. والتقينا قبل يومين أو ثلاثة من انعقاد المؤتمر لوضع اللمسات الأخيرة لتدخلنا وتحديد خطوط أساسية لاستراتيجية الحزب.

كلفنا واعلي بناي أن يجد لنا مكانا هادئا لنقوم فيه بمداولاتنا. ورغم أنه من أبناء العاصمة إلا انه رمى بنا في أحد أهم مفترقات منطقة "الكاليتوس"، هكذا يسمى نسبة إلى أشجار "الكاليتوس" الباسقة (الكينا) الموجودة هناك، والتي تشير بوضوح إلى التقاء خمس طرق كبيرة. وصحت فورا "أن هذا الاختيار غير حذر". كنت أصغر المجموعة. وكنت أرى أنه من حقي أن أخاف . إذ أنني لم أضح بمثلي الأعلى من أجل رفاهية الحياة، لكنني لا أقبل أن أضحي به بسبب تصرف ساذج. غير أن أغلبية المجموعة لم تجد سببا للاعتراض على هذا المأوى في غرفة خلفية لدكان بقال من أبناء إيتورار (قرية من البلدية المختلطة لميشلي). كان رفاقي يجدون فيها ملجأ بعيدا عن الأنظار بما فيه الكفاية، كما أعجبتهم سعة المكان، لأن ذلك كان يسمح لنا بالعمل والنوم في نفس الغرفة. واستحسنوا أكثر أطباق الكسكسي المزدانة وقوارير الحليب المروّب التي قدمها لنا مضيفنا المحتاط.

وفي اليوم التالي وكان يوم سبت، توقفت في منتصف النهار سيارة "جيب" أمام الدكان ونزل منها دركيان. وعند دخولهما رأيا الجمع من خلال الستار الشفاف الذي كان يفصل الدكان عن الغرفة الخلفية . أطلق

---

[1]- آخر فصل من كتابي " الحرب وما بعد الحرب" كان عنوانه " عشرة أسئلة ، جواب واحد : المؤتمر". وفي أحلك أوقات المقاومة في 1963 كانت مسألة انعقاد مؤتمر ديمقراطي لجبهة التحرير الوطني مطلبنا الأساسي. وعندما يتم الإعلان عن المشاكل أمام الرأي العام فهذا يعني أننا نقوم بقطيعة مع رواسب الصراعات العصبية الدفينة. وليس مفاجئا أن غاية كهذه تؤدي كما سماها المؤرخ توينبي إلى" ردة فعل أوديب" أي منع النتائج الحتمية لحدث يمنع هذا الحدث أن يحصل.

[2]- آيت مدري ، ولد حمودة ، سي حمود ، أوعمران ونائبه عمي علي ، زايد ، سيد احمد ، بوداود ، بللونيس ، مهنى ، أوصديق ، آيت أحمد ، بناي ، محمد بلحاج المدعو ستالين وسعيد أوبوزار

[3]- لقد رويت من قبل الظروف التي تمكن فيها من الهروب من جلاديه في الاستعلامات العامة.

أحد الدركيين صفيرا أردفه قائلا "ما الذي يحدث؟". ومما زاد الطين بلة أن صاحب المحل كان غائبا في تلك اللحظة، فسارعت نحو المحسب حتى أغلق عليه زاوية النظر مستفسرا عن طلباته بعد أن أفهمته بكلام قليل بأننا طلبة من عائلة التاجر القبائلي، وبأننا جئنا لحضور خطبة ابنة عم لنا. أما الدركيان فجاءا لتسلم دورهما مع نهاية الأسبوع في نقطة التفتيش عند مفترق الطرق لمطاردة السوق السوداء. وهما يقومان بزيارتهما الودية المعتادة للبقال والتي تنتهي عادة بأخذ "حصتهم" المتمثلة في قطعة صابون وكلغم من السكر ورطل من القهوة.

ولحسن الحظ وجد الدركيان تفسيراتي مقنعة. كما لم يلاحظا المسدسات المتناثرة فوق الطاولة والتي رمينا فوقها على عجل بعض الأقمشة الموجودة في المكان. كنت شديد الغضب للمأساة التي كادت أن تحدث، وعبرت عن ذلك على ما يبدو بكلام فظ. ولكن عندما استعدت هدوئي، لاحظ آيت مدري أن كل هذا جيد، ولكنه يتعين علينا أن نجد البنت التي ستتم خطبتها والنساء اللائي يزغردن في الفرح !.

انعقد مؤتمر حزب الشعب الجزائري في 15 فبراير 1947، وهو الأول منذ نشأته، في سرية مطلقة، بحي بلكور في معمل كبير للمشروبات الغازية تمت تهيئته لهذا الغرض. أما المدة المحددة والمحترمة للمؤتمر فهي يومان. وكان على 120 مندوبا وأعضاء الجهاز أن يدخلوا دون لفت الأنظار إلى هذا المحل الذي كان يحتوي على عدة مداخل. وحتى يصل إلى الجلسات عمد مصالي الحاج إلى تغيير سيارته في منتصف الطريق، كي يفلت من متتبعيه المحتملين؛ مع أننا كنا نشك في مخادعة مصالح البوليس بذلك.

أما الجو فكان متوسطيا، ميزه الجدل الحار والحاد. ففضلا عن المشاكل التي تراكمت خلال عشرية كاملة، عرفت الحركة تحولا نوعيا وكميا. وكانت الحزازات الشخصية وصراعات الشرعية قد تأججت خلال المراحل التاريخية، خاصة في مرحلة السرية. فالمؤتمر ليس مكانا للقاء من أجل مجاملات بروتوكولية. تدخل المشاركون كثيرا، وكانوا يسألون بحرية ذلك القائد أو القيادة كلها. وكانت هناك انتقادات للنزعة نحو "التبرجز" (من البرجوازية) عند هؤلاء والميول الإصلاحية عند أولئك.

كان من الأفضل أن يقوم المناضلون بتفريغ ما في أنفسهم، وأن تتم المكاشفة أو كما يقال " فقع الدملة". وكان صدقهم الثوري يحمل فرامله

حيث كانوا يعون أن الذهاب بعيدا في هذا المنوال قد يجعل الحزب والقضية في خطر. كان الجو العام مفعما بالحرارة وباليقظة أيضا.

بدأ المؤتمر بنصين أساسيين، كان الأول تقريرا مطولا قدمه لحول باسم القيادة. وانطلق بعرض حال لنشاط الحزب، واسترسل بنظرة تبسيطية في سرد التطور التاريخي للحزب. وبعد عرض تحليلي للأوضاع في الجزائر، قيّم تطور العلاقات بين حزب الشعب والتشكيلات الأخرى، أي الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والحزب الشيوعي الجزائري وجمعية العلماء. ثم قدم تبريرا مطولا لسياسة المشاركة في الانتخابات التشريعية الفرنسية. لم يقدم لنا النص قبل انعقاد المؤتمر ولا بعده، وهذا مالم يسمح لنا بدراسته بصفة جدية، ولا أن نجعل منه مرجعا.

أما النص الثاني، فكان تقرير مقاطعة القبائل الذي تمت صياغته جماعيا. ولا أزال أحتفظ بذكرى دقيقة لخطوطه العامة، لأني كلفت بالصياغة النهائية وبقراءته أمام المؤتمر. وكان يتشكل من ثلاثة فصول. الفصل الأول كان بمثابة تقييم صارم لعمل القيادة، حيث سرد الأحداث والمشاكل التي تخللت الحياة السياسية وعلاقاتنا بالقيادة، ابتداء من الأمر بالانتفاضة والأمر المضاد، وصولا إلى قرار المشاركة في الانتخابات، ومرورا- دون أن نركز كثيرا على ذلك- بجو الشك والريبة الذي كانوا يحيطون به المناضلين في منطقة القبائل. ثم تطرق إلى تحليل الأوضاع، مركزا على ظاهرتين: التحول الراديكالي للرأي العام نتيجة للقمع، وبروز الجماهير الريفية كقوة سياسية أصبحت تغير الهياكل الاجتماعية للحزب وتغير محور نموه. وفي الأخير تطرق إلى الآفاق الإيديولوجية والسياسية والتنظيمية.

فعلى المستوى الإيديولوجي، اقترحنا تعريف الأفكار التي يجب- حسب رأينا- أن تميز الوطنية الجزائرية: وطنية تحررية وثورية وديمقراطية. تحررية أي مبنية على الوطنية التي تتنافى مع الأفكار التوسعية والحربية التي كانت تتميز بها الوطنية الهتلرية والموسولينيه، وتتعارض أيضا مع النظريات التوسعية للإمبريالية والاستعمارية. ثورية على أساس أنها ترفض وبشكل راديكالي النظم الاستعمارية، مستعملة كل أشكال النضال المناسبة، بما فيها الكفاح المسلح. وديمقراطية في وسائلها وغاياتها.

وعلى المستوى السياسي كان نصنا يقترح كفاحا إيديولوجيا ضد الحنين إلى الوحدة المقدسة مع كل التشكيلات السياسية الجزائرية،

ويقترح خلق حزب ثوري قادر على تجنيد الجماهير الريفية التي همشها النظام الاستعماري. وكان النص يكشف النزعة الانتخابية والمشاركة البرلمانية وكل أشكال النضال الإصلاحية. ولكنه كان يوصي بالمقابل باستغلال إمكانات العمل الشرعي من أجل توسيع وتقوية الدور التجنيدي والتنظيمي للحزب.

وعلى المستوى الهيكلي اقترح تقريرنا إعادة نظر كلية لهياكلنا ومناهجنا، من أجل تحقيق النجاعة الثورية. وخلص التقرير إلى ضرورة خلق منظمة خاصة شبه عسكرية، تتكفل بالتحضير للكفاح المسلح، عن طريق تنمية المستوى التكتيكي والتقني لإطاراتنا ومناضلينا.

في الواقع كان تقرير مقاطعة القبائل متوجها كليا نحو هذه الخلاصة: فإذا كان في جانبه النقدي قد تحامل على الارتجال اللامسؤول وعلى المغامرة السياسية، كان هذا للتأكيد أكثر على ضرورة أن تكون هناك نظرة إستراتيجية منسجمة وعقلانية سياسية. وبالتالي، كان يترتب عن ذلك القيام بتكوين سريع وصلب لإطارات من نوعية جديدة.

أثارت نقطتان من جدول الأعمال نقاشات جد حادة ، وهما التحول الانفرادي نحو العمل الشرعي، ونمط تعيين أعضاء اللجنة المركزية. وخلال هذا النقاش ذكر لينين والدوما[1] الثانية، وعلى وجه الخصوص الثورة الايرلندية، حيث أن هذا البلد، كالجزائر، كان ضحية لسياسة استعمارية من استيطان، وضم الأقاليم ونزع الأراضي. كان يمكن للمستودع الكبير بصناديقه المليئة بزجاجات المياه الغازية، والتي كنا نستعملها ككراسي، أن يكون مستودعا للبيرة في "دبلن" بجوه التآمري الوطني وبخطاباته الحماسية.

كان يذكر إيمون دوفاليرا والشين فان[2] وممارسة "الفيليبوستورينغ" (Filibustering) أي سياسة شل العمل البرلماني بالاستحواذ على الكلمة دون انقطاع ، كأمثلة يحتذى بها. ألم يقبل دوفاليرا- الذي كان مناصرا عنيدا لمواصلة الكفاح المسلح- المشاركة في المعارك الانتخابية

---

[1]- الدوما مجلس ممنوح من طرف القيصر وكان لينين قد حث على مقاطعة الدوما الأولى (1905) ثم قرر مشاركة حزبه في انتخابات الدوما الثانية (1906) لاستغلال إمكانيات الدعاية والنشاط والتنظيم التي تتيحها الشرعية وإن كانت محدودة .

[2]- ايمون دو فاليرا (1882 – 1975) الذي قاد في 1918 الحركة الوطنية الايرلندية الشين فان يمثل رمز الكفاح الاستقلالي ضد انغلترا .

في إطار نظام الحكم الذاتي "Home rule" وهو نتاج لإصلاح كان ينتقده بحدة.

كان هذا المثل كفيلا بإدخال نوابنا الخمس المساكين في خانة "الدور الثوري"، حيث سيذهبون إلى المجلس الفرنسي ليقوموا بالدعاية والشوشرة، على شاكلة النواب الأيرلنديين في مجلس وستمنستر. فعلى خلاف نواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، فنوابنا لن "يتواطئوا في المشاركة".

كان بن عمر، وهو مندوب لامع من تلمسان، متفقا معي على ضرورة التمييز بين مشاركة برلمانية تعني الاعتراف بسيادة الآخر، وبين حضور ثوري في برلمان أجنبي غايته الوحيدة هو النقض في سيادته، ولتأكيد عدم أهليته أو صلاحيته للتشريع نيابة عن الشعب الجزائري . ومع تطور الأحداث يبدو لي هذا التمييز غير مؤسس بل هو ضرب من البيزنطية .

صودق بالإجماع على اللوائح التي تم تحضيرها في اللجان. وكانت مفاهيم سيادة الشعب الجزائري واستقلال الأمة الجزائرية مؤكدة بقوة. ولم يتم تعريف "الأمة" الجزائرية، حيث اعتبر ضمنيا أن أسسها بديهية. وكانت الفكرة الأساسية تتمثل في مفهوم الثورة كغاية ووسيلة للكفاح، تستلزم أن يعيد الفكر الوطني تمحوره حولها.

فالثورة كغاية برزت في التوصيات الخاصة بالطموحات الاجتماعية والاقتصادية لعمال المدن والأرياف. وقد صودق على توصية، ضمن وسائل الكفاح، بخلق مركزية نقابية عمالية وحركة لترقية وتحرر المرأة وخلق منظمات طلابية. وبما أن التحضير للعمل المسلح كان اختيارا أساسيا، تقرر إنشاء "منظمة خاصة" تتكفل بالتحضير التكتيكي والتقني للثورة.

في مجال السياسة الدولية، ألحت التوصيات على ضرورة توحيد حركات التحرر الشمال إفريقية، وأن نبحث عن مساعدة ومعونة من البلدان العربية والإسلامية، وأن يتم التعريف بالقضية الجزائرية لدى الرأي العام والمؤسسات الدوليين.

ومن المشاركين الذين تدخلوا كثيرا وبصفة متميزة، أذكر الدكتور الأمين دباغين ولحول وعسلة والطيب بولحروف وبن عمار والدكتور شوقي مصطفاي.

وفي رده على النقد اللاذع الذي قدمته باسم القبائل، حاول الدكتور مصطفاي- وبنوع من الحنكة- أن يبرر الأمر الذي أعطته القيادة بخصوص الانتفاضة: "يمكن أن تلام القيادة لأنها أخطأت في تقدير الوضع، ولكن يجب الاعتراف بالشجاعة الكبيرة التي تحلت بها لاتخاذها هذا القرار"[1].

تراجع الإجماع الذي كان سائدا عند المصادقة على البرنامج عندما وصلنا إلى كيفية تعيين من سيقومون بتطبيقه، أي أعضاء اللجنة المركزية الجديدة. ولأسباب مرتبطة بالسرية والأمن، تم التخلي فورا عن التعيين عن طريق الإجراء الديمقراطي.

اقترحت مجموعة "الدائرة الثانية" (القصبة)- وكان يساندها عدد كبير من المندوبين-أن يوكل الأمر إلى اختيار رئيس الحزب، مصالي الحاج[2]. قدمت اقتراحا مضادا- باسم مقاطعة القبائل- وهو أن تشكل لجنة حول مصالي الحاج، على أن تكون مكونة من بودا وفيلالي ولحول والدكتور دباغين وبوقادوم. وسيتم الأخذ بهذا الاقتراح في النهاية عوض الاقتراح المقدم من طرف مجموعة القصبة والذي كان ينطوي على مناورة. فالاعتراف لشخص واحد بالسلطة المطلقة في اختيار القادة يشكل سابقة وممارسة خطيرة. وكان ذلك يعني إهانة للدكتور الأمين دباغين، الرجل الذي قاد الحزب خلال الغياب الطويل لمصالي الحاج، وكان مرتبطا بجماعة بلكور.

بكل صراحة، لا أظن أن الدكتور الأمين كان يتحرك بنزعة الطموحات الشخصية، وبالمقابل لم يكن يتظاهر بالتواضع. فالتظاهر بالتواضع هو في الحقيقة سمة أولئك المرضى بحب المناصب والترقيات. وعلى غرار القصة القبائلية، فهو لم يكن لديه المجال التاريخي الكافي "لكي يكون طبلا كبيرا، ولكنه لم يبق مجرد دربوكة"، مجرد مرافق. كان عميق الاستياء من انعدام القدرة الفكرية والسياسية لدى القائد في التحكم بالمشاكل، وفتح آفاق منسجمة ومتكاملة[3]. كما لم يكن مرتاحا لأنه

---

[1]- حتى اليوم لازال الضباب يحوم حول هذا "الأمر والأمر المضاد". كانت هناك إشاعة قوية تفسر الامر المضاد بأنه تقرر بعد أن تمت اتصالات ديبلوماسية أقنعت القادة أن الحلفاء لن يتنصلوا أبدا من تضامنهم مع فرنسا وأنهم سيؤيدون سياستها في الجزائر مهما كانت.

[2]- و الملفت أن هؤلاء هم الذين سيعارضون بشدة في 1953 مصالي الحاج منتقدين سياسة عبادة الشخصية. وسيسمون "المركزيين" لكي يتم تمييزهم عن "المصاليين".

[3]- لا أذكر أي تدخل لمصالي خلال المناقشات التي جرت في المؤتمر و لا أذكر أنه تطرق أو حتى لمح لأفق العمل الحزبي.

كان يعرف الدسائس التي كانت تحاك ضده من أجل الإساءة إليه لدى القائد الكبير.

وذلك ما يفسر على ما يبدو تدخله المفعم بالمشاعر خلال المؤتمر، ليرد عن نفسه تلك التهم. وكان شلل الوجه الذي ألم به وهو في مقتبل العمر- قد أعطى لعباراته نبرة الصراحة الحزينة. لم يكن مرضه ناتجا عن سنوات الإنهاك الجسدي والمعنوي، بقدر ما كان نتيجة للمناورات الفتاكة التي ميزت العلاقات بين القادة[1]. كان الرجل مثقفا كبيرا ذا دقة وقوة في التحاليل، وكان له تأثير فكري حقيقي وأكيد. وفضلاً عن ذلك، لم يكن يمثل بالنسبة للحرس القديم وبالنسبة لنا أيضا رجل فكر فقط بل ورجل فعل[2] أيضا.

كنا كثيرين متفقين على أن مصالي الحاج- رجل المرحلة التاريخية- لن يكون رجل المرحلة الثورية، وأنه لم يبق له ما يعطيه غير سمعته. ولم يكن هذا بالشيء اليسير. فعندما تحركنا ضد فكرة إعطائه كل الصلاحيات لتشكيل اللجنة المركزية - واحتفظ بضغينة ضدي بسبب ذلك - قلت إنه ليس صحيا ولا حكيما أن نترك الأمور لشخص واحد مهما كان، ولكنني أكدت على ضرورة الحفاظ على دوره كحكم فوق النزاعات.

وبما أن الثقافة البربرية ليست لغة فقط بل سلوكا ملموسا[3]، كنت بذلك قد أدرجت الجواب المهذب الذي كان يردده القرويون على

---

[1]- ذكر خلال تدخله أنه ولجه مجلس التأديب لأن رفاقه في القيادة حملوه مسؤولية أحداث سطيف في 8 ماي 45. وكانت التهمة مبنية على حجة واحدة وهي تواجده في سطيف في تلك الفترة.

[2]- لم نكن نتبنى الصراعات بين العصبتين ولكننا كنا نرى أنفسنا أقرب إلى جماعة بلكور مثل بودا وبلوزداد والأمين. كنا نرى فيهم أناسا قادرين على الانسجام بين القول والفعل . وأنهم قادرون على الالتحاق بالجبال ومشاركة الجماهير الريفية في حياتها ونضالاتها. وبالمقابل لم نكن مقربين من "البرجوازية الصغيرة المتمدنة" التي تمثلها عصبة القصبة وكان اغلبهم من أصل قبائلي.

[3]- إلى المطالبين الشباب باللغة البربرية الذين يلوموننا بأننا لم نطرح - لو لم نحسن طرح هذا المطلب - خلال هذا المؤتمر أجيب أننا فعلا لم نكف عن فعل ذلك . فالبربرية كنا نعيشها . ومسألة العودة إلى الأصول لم تكن تطرح للوثبة الشعبية التي خرجت منها كما لم تطرح للهياكل التي كانت متجذرة فيها . فترقية الفكر الثوري والممارسات الديمقراطية كانت طريقة لرد الاعتبار للثقافة البربرية . وان لم نكن -وربما ذلك خطأ -نطالب بالحق في كتابة وتعليم اللغة البربرية فكان ذلك يرجع لكون ان الحزب وان اراد ذلك لم تكن له السلطة الفعلية لمنح ذلك . ولا يجب ان نخفي انه حتى وان كنا نستعمل القبائلية و العربية الدارجة في المناطق الناطقة بالعربية فاللغة الفرنسية كانت الأداة الأساسية ان لم نقل الوحيدة عندما نصل إلى نوع ما من التجريد والاتصال الشفهي والكتابي لدى المؤسسات القيادية في منطقتنا وداخل الحزب .

المرابطين لكي يحاصروهم في الجانب الروحي ويجنبوهم "مشاكل القرية".

كنا ننتظر من المؤتمر أن يعالج "مشاكل القرية"، وأن يجد حلا للصدع والتناقض بين العصبتين المتنازعتين على مستوى القيادة.

وسنرى فيما بعد ما حدث بخصوص هذا المشكل. كانت المساهمة الكبرى للمؤتمر أنها حركت في ذهنية الإطارات والقوى الاجتماعية جدلية التحرر الوطني، وأنه بدأ في بلورة نظرة جماعية حقيقية ورسم الخطوط الأساسية لحركة التحرر الجزائرية.

وفي الوقت الذي عدنا فيه نحن إلى جبالنا، لمواصلة عمل تكوين الإطارات والمناضلين وفقا لتوصيات المؤتمر، قامت " لجنة الستة" بتعيين اللجنة المركزية الجديدة.

استدعيت أنا وبناي وولد حمودة وأوصديق لحضور الجلسة الأولى لهذه الهيئة في نهاية فبراير في الجزائر، على أساس أننا أعضاء في اللجنة المركزية. وكان جدول الأعمال يتمحور حول تجسيد التوصيات التي صادق عليها المؤتمر. وفي هذا الإطار، عملت اللجنة- التي تكفلت بتعيين أعضاء اللجنة المركزية- على القيام بمشاورات بهدف تشكيل المكتب السياسي. طلب مني مصالي والامين وبودا أن أدخل المكتب السياسي، لكنني اقترحت أن يكون أحد من رفاقي بدلا مني. ثم قبلت تحت ضغوط هؤلاء بعد أن أعطيت لنفسي مهلة تفكير. وفضلا عن ذلك كان المؤتمر قد وقع على عقد ولادة المنظمة الخاصة، وكان يتحتم بناؤها منذ ذلك الوقت وبالتالي كان علي أن أغادر منطقة القبائل إلى الجزائر العاصمة.

لم أكن أعيش في بحبوحة في القبائل، ولكن مغادرتي لها كانت بالنسبة لي قطيعة. وكانت تلك القطيعة، للأسف، مرتبطة بنمط الحياة الذي كنا نعيشه. وبما أننا اخترناها فكان علينا أن نتحملها، وإن كانت في بعض الأحيان تصل إلى حدود احتمال الطاقة البشرية.

شعب متحمس، قادة حذرون

تشكل المكتب السياسي الجديد، المنبثق عن مؤتمر فبراير 1947، من اثني عشر عضوا، منهم أربعة برلمانيين من أصل خمسة، وهم بوقادوم ومزغنة وخيضر والدكتور الأمين. وفضلا عن ترأسه المجموعة البرلمانية كان الدكتور الأمين مسؤولا عن العلاقات الخارجية. وكلف لحول بالإعلام والدعاية بينما أصبح بودا مسؤولا عن التنظيم في الحزب وكلف الدكتور مصطفاي بفدرالية فرنسا، أما فيلالي الذي لم تعهد له مهام محددة، فكان يتكفل بتسيير آلات الطباعة. وأصبح بن مهل- المندوب السابق للحزب في البرواقية- سكرتيرا خاصا لمصالي الحاج، وكانت وظيفته تشبه إلى حد ما وظيفة الحاجب. وقام بلوزداد بتأسيس المنظمة الخاصة. أما أنا- الذي أصبحت عنصرا كامل العضوية في القيادة- فلم تكن لي مهام محددة ، وهذا ما حدا ببودا إلى طلب إلحاقي به للعمل على إعادة تنظيم الحزب. وبعد شهرين من ذلك، "قذفت" مسؤولا عن المالية.. مع خزينة فارغة أو شبه فارغة.

ولم يعد ضمن القادة الكبار أعضاء من جماعة "القصبة"، مثل شرشالي ومحمد طالب وعسلة وسيد علي والعمراني. وحسب رأيي كان إقصاؤهم خطأ جسيما[1]، خاصة بالنسبة للثلاثة الأوائل، نظرا لمكانتهم السياسية وتجربتهم الكبيرة. وعرفت فيما بعد أن مصالي الحاج عارض تكليفي بمسؤولية المنظمة الخاصة. مفضلا محمد بلوزداد الذي كان مؤهلا تماما لذلك، ولكنه منهك من العمل الجبار الذي قام به لإعادة تنظيم المنطقة القسنطينية خلال مرحلة القمع السوداء؛ إضافة إلى معاناته من مرض السل الذي تمكن منه بصورة خطيرة وكان يخضع للعلاج بالأشعة منذ 1945 وكثيرا ماكان يحدث أن ينتابه سعال يمزق الأوصال خلال اجتماع المكتب السياسي ويبصق دما.

وبتكليفه بمهمة المنظمة الخاصة، كان الدكتور الأمين يأمل دون شك أن يقتلعه من مسؤولياته في المنطقة القسنطينيه ويعيده إلى القبة، حيث كانا يقطنان وبالتالي يتسنى له متابعته طبيا. ولكن في الواقع لم يتمكن

[1] - كان للحول الفطنة والحنكة حيث ضمهم إلى لجنة " الصحافة والدعاية".

بلوزداد من الخروج منها، حيث أصبح هناك شخصا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه.

كان يكبرني بعام أو عامين، كما كان الحال مع العيمش. وكنت أرى فيه هذا الأخير مع تطور علاقاتنا. عندما كان لا يزال موظفا شابا لدى الحكومة العامة، قام بلوزداد بتنشيط خلايا الحزب في بلكور، وأوصل إلى قيادة الحزب كثيرا من الوثائق السرية ومعلومات ثمينة، إلى أن جاءت مديرية حماية الإقليم لاعتقاله يوما. لقد سردت في الفصل الثاني كيف تمكن برشاقة الهر التي كان يتمتع بها من أن يقفز إلى شرفة الجيران. ومع أنه لم يدخل الجامعة إلا أنه كان يتمتع بثقافة مميزة ، ولم يكن يتظاهر بها حيث لا يظهرها إلا في حالات نادرة. كان يتميز بدقة ووضوح منقطعي النظير. لم يشك قط من مرضه ولم يفقد أبدا هدوءه[1]. كان الرجل الأكثر ذكاء والأقل كلاما في المكتب السياسي. وكان تحفظه لا يعني عدم الاكتراث، بل كان ذلك ينم عن اهتمام مشبع بالتواضع والمحبة. كان من أصول شعبية، غير أنه كان يتمتع بسلوك أرستقراطي رفيع، ناتج عن إحساسه بالمسؤولية وبرودة أعصابه.

بلوزداد- الذي مثل لمدة طويلة "المثقف التابع " لبودا- عمل هو أيضا على مساعدته في إعادة تنظيم الحزب، وهذا ما سمح لي بأن ألتقي به مرارا. ويجب القول أن مهمة بودا لم تكن بالسهلة. فحتى تتم إعادة تنظيم الحزب يجب تحديد الهياكل الجديدة. ولكن ما جدوى الهياكل بدون مناضلين ودون تأطير؟ ماذا سيتبقى له من الخلايا القديمة والإطارات الكفأة القليلة، في وقت بدأ يتجسد فيه الفرع الشرعي" للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية"، وفي وقت تزاحمه المنظمة الخاصة في الاستحواذ على أحسن المناضلين؟

كان بودا متمسكا بكل قوة بالجذع الأصلي، فهو مسمر_إلى هلال حزب الشعب السري. وكان يرفض امتحان الوقائع التي كانت تناقض تصوراته. فهو لم يكن يريد النظر إلى الشيء الذي ينقص بكثرة وسط الغليان الجماهيري المتنامي، وهم الإطارات. بلوزداد كان جد واع بذلك، وفي المنطقة القسنطينية الواسعة- حيث كان بمثابة ممثل لبودا- عمل

---

[1] ـ فقد هدوءه مرة واحدة كما قص علي. وكان ذلك في السرية حيث كان يحضر اجتماعا للقيادة تميز برداءة النقاش السياسي والمشاعر الشخصية. هنا صاح بلوزداد باللغة الفرنسية:" إن لم تسكتوا استدعي الشرطة!".

على إيجاد إطارات للفروع الثلاثة[1]. في حين أنه لم يكن قد توصل إلا إلى خلق بعض الأنوية. وكان يجد صعوبات جسيمة حتى في استخلاف الوجهاء الذين انغمسوا في دوامة العمل السياسي الشرعي.

طلب مني بلوزداد أن أفكر في توجيهات وهياكل المنظمة السرية، وأن أرصد حين أذهب إلى القبائل، المناضلين والإطارات الذين يمكن إدماجهم في التنظيم الجديد.

لم أكن في حاجة إلى ذلك العذر للذهاب إلى منطقة القبائل. ولكنني ركزت على الجزائر العاصمة، حيث عينني بودا لأواصل بحثي الدؤوب عن عناصر يمكن إدماجها في المنظمة الخاصة.

وفي الواقع كان إنشاء المنظمة الخاصة يطرح مشكلتين حساستين ومرتبطتين :

أولا : تحديد استراتيجية ، لماذا إنشاء منظمة خاصة؟ لأي غرض ولأي هدف.

ثانيا : تشكيل فريق أو قيادة أركان على المستوى الوطني.

خلال المحادثات والمناقشات التي أجريتها مع بلوزداد، وأيضا مع الأمين دباغين في الأوقات التي كان يعود فيها من باريس حيث كانت تربطه مهمته النيابية، كنا نجد أنفسنا أمام حلقة مستعصية.

كان يجب تحديد مفهوم المنظمة الخاصة، ونوعية الإطارات التي يمكن أن تشكل قيادة أركانها من جهة، ومن جهة أخرى كان يبدو من الصعب تحديد استراتيجية قبل تشكيل فريق كفء. وكما سنرى فيما بعد، أدت تأثيرات الأحداث الخارجية، الدولية والفرنسية، إلى فرض التعجيل بتشكيل المنظمة الخاصة في نوفمبر 1947.

ولكن في بداية شهر مارس فقط ، بدأ مصالي الحاج جولته الشعبية الأولى في منطقة القبائل. ولقي هناك وفي كل مكان استقبالا وحفاوة منقطعي النظير. وقام مجلس المقاطعة بتجنيد كل الإمكانيات، كما قام

[1]- يجب التذكير أن فدرالية المنتخبين الأهالي (الأنديجان) ، أي فدرالية فرحات عباس كانت محور التقاء جيل من حاملي الشهادات والعاملين في الوظائف الحرة وكانوا قد ملئوا صفوف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أما الإطارات المتخرجة من معاهد جمعية العلماء المسلمين والمنخرطين في حزب الشعب فكانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة منهم الشيخ حامد روابحية من تبسة والشيخ بلقاسم البيضاوي من عين البيضاء وعبد الحميد مهري. كان هذا الأخير يتردد على مسجد تونس الكبير وكان يرفع العلم الاستقلالي في مواجهة عبد الرحمن شيبان ممثل جمعية العلماء.

بتنظيم رهيب لإزالة الأفكار المسبقة التي غذتها قرون من الحيطة اتجاه سكان بلاد " السيبة". وشارك في الجولة أربعة أعضاء من المكتب السياسي، هم أنا وفيلالي ونائبان برلمانيان، كان يمكن أن تفيد حصانتهما البرلمانية وهما بوقادوم والأمين دباغين. (وكان مجلس المقاطعة قد حرص على أن يكون الدكتور الأمين حاضرا في الجولة).

خلال الزيارة كلها، بقي الدكتور الامين منتحيا جانبا، ولم تظهر أية شائبة تعكر على مصالي الحاج الإحساس بأنه "القائد الوطني". لم تكن قوته الكارزماتية نابعة من خطبه، بل من قدرته "التمثيلية" الفائقة. كان اورسون والس في أرض الإسلام يلعب أدوارا شكسبيرية بمواقف وأنغام فاغنيرية. واستمرت أصداء هذه الزيارة التي حركت ولمدة طويلة سيلا جارفا من الآمال[1] في وديان جرجرة[2].

كان الرجال والنساء والأطفال ينطلقون قبل طلوع الفجر ليقطعوا أحيانا عشرات الكيلومترات، حتى يحضروا مهرجانات مصالي، أو لمجرد رؤيته يمر. كان هذا التكريم الجماهيري موجها لفكرة الجزائر المستقلة، وإلى الرجل الذي كان يجسدها. كل شيء يشخص في وعي رجال ونساء المغرب الكبير، حتى الدين كما تؤكد ذلك التقاليد المرابطية العريقة.

وإذا كانت القرى والمداشر والعشائر المهمشة من السلطة والعلم، والسهول الخصبة المحاذية، حتى ذلك الوقت، قد اختلقت لنفسها أولياء لتتهرب من رجال دين الدولة، تسيرها في الغالب قوى أجنبية، فهل هذا يعني أنها تخلصت في أعماقها من ذلك الانتظار الروحاني للمهدي المنتظر؟ ذلك المنقذ الأكبر؟ كان يمكن لمصالي أن يمثل ذلك. فلم يكن

---

[1]- في ديسمبر 49 في وقت كان الحزب في أزمة وكانت حجة" المؤامرة البربرية" تستعمل لأغراض دنيئة . التقيت لو عمران والشيخ عمار لمحاولة الاستفسار. وفجأة قال الشيخ عمار :" أذكر أنه في خطابك الذي ألقيته في ميشلي خلال جولة مصالي الحاج سنة 47 ذكرت أبياتا كنت تعبر فيها بصفة مبهمة عن تحفظاتك اتجاهه. كان عليك أن تعلمنا بذلك صرلحة. بالفعل كنت ألقيت أبياتا أصبحت مأثورة :

أيها السيد الذي ينادينا.
إننا نجيب حاضرون !
ان سلكت الطريق السوي.
سنكون معك إلى النهاية
وعن ضلالتك ستكون وحدك المسؤول.

وأجبت الشيخ عمار:" في السياسة يجب دوما أن يكون الدعم مشروطا".

[2]- في بعض المناطق وحتى عام 1958 لم تتمكن جبهة التحرير من قلع جذور المصالية رغم الاستماتة الخارقة التي عملت بها من أجل ذلك.

بعيدا- في نظرة الناس- عن ذلك "السلطان احنين" تلك السلطة الأسطورية المليئة بالحنان التي لا تكف القرويات عن ذكرها في السراء والضراء.

غير أن آيات القدر كانت تتجلى أكثر في كون أن بيوت الفقراء المتواضعة هي التي كانت تخلى لكي يملأ ساكنوها الاجتماعات ومواكب الاستقبال. بالنسبة لهؤلاء، كانت عبارة "غدا الاستقلال" لا تعني العلم فقط، بل الخبز اليومي والسكن والمدرسة والعمل والآمان القانوني، أي ذلك الكل المترابط المكون للكرامة الإنسانية.

في عملهم المستميت للخروج من غياهب النسيان، كان هؤلاء السكان- وهم يشكلون نموذجا من اليأس الاجتماعي والثقافي- يستعملون طرق تعبير تحمل المعالم الروحية الدينية وأيضا أشكالا من الوثنية القديمة.

نادرون هم القادة الذين يتمكنون من قراءة وتفسير تلك الرموز التعبيرية، والاستجابة لها بصفة ملموسة، لأنه من الأسهل أن تتقمص دورا بدل القيام بمهمة.

أعتقد أن مصالي الحاج لم يكن غير حساس تجاه هذه التطلعات نحو تحرر اجتماعي واقتصادي، ألم تولد الحركة الوطنية في رحم العمال المغتربين في فرنسا، واختمرت هناك؟ ولم يفته أن يسأل عن العائلات والقرى التي كان ينحدر منها أقدم رفاقه من الطلائع الأولى لنجم شمال إفريقيا، وهم محمد دوار، أول منتخب للحزب، والذي انتخب في عام 1939 في منصب مستشار عام بالجزائر العاصمة، وقد اعتقل في نفس السنة وتوفي في السجن بعد أربع سنوات، وأيضا رابح موساوي الذي نجا وخرج حيا من اعتقالا ته المتتالية[1].

كانت الإدارة الاستعمارية قد تهيأت لكل الاحتمالات. ولكن الزيارة مرت دون أحداث، حيث أعطيت للمكلفين بالأمن من المناضلين تعليمات صارمة لتفادي أي تحرك مشاغب إن وجد. بل ذهبنا في ميشلي إلى حد المبالغة حيث قام أحد الوجهاء الأزليين بتحويل سير المواطنين نحو شبه نفق، ونظمهم في أربعة صفوف، وسيرهم على الشكل العسكري،

---

[1]- قال لنا مصالي أن رابح موساوي كان يعتز بشواربه ويحملها كالعلم الجزائري و انه كاد حقا أن يموت عندما قامت إدارة السجن بحلقها له. مشبها آلة الحلاقة كأنها بيلدوزر مر على فحولته وأخرجه في نفس الوقت من نادي أصحاب الشوارب المشهورين كالمارشال فوش و جوزف ستالين.

بل لبس ذلك السيد زيا عسكريا لا ندري إن كان من بقايا الحملة العسكرية في إيطاليا أم ابتدعه. كان سلوكه ذلك يذكر بأن بذور النزعة العسكرية موجودة دوما عند الريفيين، ولكن مع دوائها المقابل ألا وهو روح المزاح والنكتة. ومنذ ذلك اليوم صار يعرف هذا الوجيه سريا ثم علنيا، بعبارة: "نظام أي آثماثن"، أي النظام أيها الاخوة.

في تيزي وزو، منع في آخر لحظة المهرجان الذي كان منتظرا أن يقام في قاعة، يوم السوق الأسبوعي. قيل أن هذا المنع كان سببه تفادي حصول أحداث شغب، في وقت كان فيه ضابط عسكري كبير،/الجنرال لوكليرك/، يقوم بتفتيش عسكري بالمنطقة. ولكن مصالي ليس من الذين يتنازلون، فصعد فوق سقف سيارته وخاطب الناس.

كنا قد استمعنا إلى خطاب الرئيس الأمريكي ترومان (12 مارس 1947) ، وعقدنا ليلة قبله اجتماعا مصغرا للمكتب على سطح مسكن عائلة العيمش، بايشرا يوان التي كانت جد معتزة بزيارة تلك الشخصيات الشهيرة. وكان الرفاق من العاصمة قد أوفدوا لنا مبعوثا خاصا يطلب مني ومن الدكتور الأمين العودة على عجل.

كانت أطروحة الأمين التي لم يتزحزح عنها هي أن استقلال الجزائر سيأتي "نتيجة التقاء عوامل داخلية و عوامل خارجية".

و منذ إنزال الحلفاء في الجزائر عام 1942، كان ينتابه ما يمكن تسميته داء الفرص الضائعة. كان مسكونا بهاجس الخوف من تضييع فرصة تاريخية. كانت نقاشات مجلسنا جد هادئة، وذلك غريب نوعا ما إذا ماقسناه بالتحولات الدراماتيكية في الوضع الدولي[1].

وعلى ما يبدو، كان جو الالتحام الحماسي مع المواطنين قد انتقل إلى علاقتنا التي أصبحت أكثر انفتاحا، بل أكاد أقول أكثر مرحا.

قررنا أن يوم القيامة لن يكون غدا، وأن الجولة ستستمر كما كان مبرمجا لها، بينما أعود أنا و الأمين إلى العاصمة. ومن النتائج الإيجابية لخطاب ترومان أن المكتب السياسي قرر تشكيل لجنة لدراسة كيفيات التعجيل بالتحضيرات الثورية. وتكونت اللجنة مني ومن الدكتور الأمين ومرافقه الدائم بوقادوم وبودا وبلوزداد.

---

[1] - بتقديمه نظريته كان الرئيس ترومان يعلن فعليا عن بداية الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشيوعي وسيأخذ الحضور الأمريكي في أوروبا شكل المساعدات الاقتصادية الضخمة التي أتت بها خطة مارشال.

في الواقع لم تعط لنا تصورات إستراتيجية منسجمة، مما حدا بنا إلى التأكيد على الأولويات التي حددها المؤتمر، وعلى بعض الإجراءات العملية.

كان على بلوزداد أن يسارع في عملية البحث واختيار الإطارات للمنظمة الخاصة، بينما كان مطلوبا من الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وهي الواجهة الشرعية- أن تتهيكل وأن تتوسع لكي يتسنى لها تجنيد الجماهير في العمق. خلال الاجتماع، حرك بودا أحصنته، وطلب أن يتم انتداب بصفة مؤقتة أوصديق وولد حمودة المسؤولين في منطقة القبائل بالمنطقة الوهرانية. ثم أكد أن عمل إعادة تنظيم منطقة الجزائر الكبرى التي كلفني بها يجب أن تحظى بالأولوية على الأعمال الأخرى.

بالطبع كان هناك معقلان مرتبطان، هما القبائل والجزائر العاصمة، اللذان كانا يمثلان أرضية سياسية صلبة بالغة الأهمية في حالة ما إذا تقرر الانتقال إلى العمل الثوري.

شخصيا لم أكن أشاطر جو الاحتقان والقلق السائد حول احتمال تدهور الوضع الدولي. لا يمكن المراوغة مع التاريخ وإن أعطى الوهم أنه يتكرر على مستويات عدة. ودون أن أقلل من أهمية "العوامل الخارجية"[1] فإنني كنت أصنفها في المرتبة الثانية بعد نشاطنا وعملنا في الميدان. ولهذا السبب كرست كل طاقاتي لإعادة التنظيم السياسي في منطقة الجزائر الكبرى. بالطبع، في مثل هذا العمل، يجب تفادي مسح كل ما على الطاولة، و تجاهل ما هو موجود. وذلك لأننا لا نتعامل مع آليات تتحرك تحت الطلب، بل مع رجال إن لم يتأثروا بالهياكل التنظيمية التي عاشوا فيها فإنهم متأثرون- على الأقل- بنمط تفكير. في البداية وبرفقة سيد علي المسؤول السابق للجزائر، الذي لم يكن ليفارقني قيد أنملة، حضرت كملاحظ أكثر الاجتماعات الممكنة، من القاعدة إلى القمة .

[1] - كان هدف وفودنا في الخارج /فرنسا و القاهرة/ تحسيس الرأي العام الدولي وجلب الدعم و التضامن لقضيتنا. كما كان إنشاء لجنة تحرير شمال إفريقيا في القاهر عام 47 مصدر تشجيع بالنسبة لنا كجزائريين. و قد أنشئت اللجنة من طرف الطيب سليم و رشيد دريس (تونس) و الشاذلي المكي (حزب الشعب الجزائري) و عبد الحق طوراس بالنسبة لحزب الإصلاح والاستقلال (المغرب تحت السيطرة الإسبانية). وكان لوصول قادة معروفين إلى هناك كبورقيبة وعبد الكريم وعلال الفاسي تأثيرهم الإيجابي. غير أن عمل ومساعدة الاخوة المغاربيين كان لا يمكن أن يحل محل نضالاتنا الشعبية.

وما لفت انتباهي فورا هو وجود ثلاثة تصنيفات متوازية مبنية على طبقات العمر: فكان هناك الشباب ثم الشباب الكبار وأخيرا الكهول.

والملاحظة الثانية تمثلت في أن صراعات العصب بين جماعة بلكور وجماعة "الدوزيام" كان له تأثير، أحيانا بصورة خطيرة، على مسئولي الأحياء.

ومن جهة أخرى، كان واضحا أن الميول الشخصية والصداقة، بل حتى العشائرية، تتغلب على المعايير الحديثة في التنظيم. فكان التنافس على الحشو في عدد المناضلين لا يواكبه عمل سياسي تكويني. كان الناس "يناضلون" بالثرثرة في الدكاكين والمقاهي الصغيرة، بالغناء و الخطب خلال حفلات الزفاف التي تقام في الحي، ولو لم تكن ترسخ وجود الحزب في الأذهان فإن هذه الشعبوية الإجماعية والعاطفية لاتضيف شيئا في التكوين السياسي للمناضلين. كان الكهول المنغمسون في هياكل شبه إقطاعية أقل تجنيدا بكثير من الشباب والشباب الكبار. كان على رأس الشباب الكبار رجل منهجي ومنظم تكون في مدرسة النقابة وهو الجيلالي رقيمي وكان أمين نقابة الخبازين آنذاك.

كانت له حركات راقية ولغة منمقة، تصورت- للوهلة الأولى- أنه موظف لدى الحكومة العامة؛ ولكنني تأكدت بسرعة أنه النقيض الكلي لرجال الصالونات. كان مندمجا تماما مع العمال والبطالين في الأحياء الشعبية، من الوطنيين وذوي الضمائر الحية كالآخرين، رغم أنهم كانوا أميين في الغالب. المفاجأة الطيبة جاءتني من فئة الشباب، الذين لمست لديهم مستوى سياسيا رفيعا ومناهج عمل حديثة. حسبت في أول لقائي بهم يوم 30 أفريل1947[1] أنني أخطأت العنوان لو لم أكن برفقة أكبر مسؤول عن تنظيم الحزب، أحمد بودا. تم الاجتماع في صالون كبير جدا من أجمل صالونات الجزائر العاصمة. كنا عند عائلة حفيز، إحدى العائلات البورجوازية القديمة في الجزائر[2]، حيث استقبلنا محي الدين حفيز الذي كان طالبا آنذاك، وأصبح فيما بعد جراحا للأسنان. كان محي الدين عضوا في اللجنة المركزية لفئة الشباب الذين كانوا مجتمعين

---

[1]- هذا يوم قدري، ففي 30 أفريل 19 سنة بعد ذلك كان يوم فراري من سجن الحراش.

[2]- أحد أعضاء العائلة عبد الرحمان حفيز. كان أحد مرشحينا في انتخابات المجلس الوطني في نوفمبر 1946 و لم يلق ترشحه ترحابا لأسباب متناقضة تماما فكان من يأخذ عليه أصوله الإجتماعية مع أن مساره في الحركة الوطنية قاده إلى السجون مرارا. و كان هؤلاء يرون في ذلك دليل على انحراف الحزب نحو اليمين أما آخرون فكانوا يأخذون عليه طباعه البروليتارية وميوله نحو العراك و المشاجرة. وهو ما كانوا يرونه لا يليق بممثل الشعب الجزائري .

بكامل الأعضاء، /عبد الرحمان طالب، شرقي، عبد الرحمن(الخياط)، مراد ديدوش، محمد تازيغت الملقب بالباشا ومضيفنا.

وحسب بودا، فان كل هؤلاء باستثناء باشا الذي كان مناضلا في بلكور "من عصبة الدوزيام" أو جماعة القصبة، وبالتالي يشكلون جماعة مثقفين برجوازيين خطرين. وأجبته بأنه يرى دسائس العصب في كل شيء، وأن الحزب ليس مقسما إلى خندقين كما يتصور بصفة كلية، أي الثوريين والإصلاحيين. فرد علي: أنت لا تفهم شيئا. من المستحسن أن تعود إلى زاويتك[1]!

أما الذي فهمته، فهو أن هؤلاء الشباب لهم تفوق واضح- تفوق سياسي واضح- بل أقول تنظيمي- على أحمد بودا وعلى معظم قادتنا، بمن فيهم المهمشين كسيد علي والعمراني اللذين واصلا فرض سلطانهما على هؤلاء.

لقد اكتسبوا تكوينهم ومناهجهم من محمد طالب[2]، وهو رجل كادح ذو ذكاء حاد، و مناضل متفان في نجم شمال إفريقيا. كان من أصول مغربية على ما يبدو، من منطقة مراكش، لأن بشرته كانت سمراء جدا وله عيون سوداء كالفحم ونظرة متقدة كالجمر.

كان طالب في صراع دائم ضد المناهج والأساليب البالية، وضد المقاربات العاطفية للمشاكل السياسية. وقد واجه أول إقصاء من الحزب عام 1936، لأنه عارض شخصنة الحركة في مصالي الحاج، ونظم إنطلاقا من بوفاريك هياكل مستقلة. ووقع إقصاؤه الثاني، بعد الحرب العالمية الثانية ورافقه في الطرد شرشالي، بسبب الاتصالات التي قاما بها مع لجنة الهدنة لدول المحور (ألمانيا- إيطاليا) في الجزائر العاصمة، من أجل الحصول على السلاح.

وإذا كان قد أقصي من المكتب السياسي في عام 1947، فإن طالب واصل إيواء الاجتماعات في بيته، في قلب القصبة. وكان هادئا بشوشا تلازمه دائما ابتسامة مضيافة. وكان متمسكا هو وعائلته بطقوس فريدة في تحضير الشاي بالنعناع. وعندما فتح له المكتب السياسي الباب مرة أخرى ليلتحق بصفوفه، رفض ذلك مؤكدا أنه سيكون مناضلا دائم الاستعداد، ولكنه يرفض أن يكون مجرد بيدق شطرنج يحرك ويعاد وفق

---

[1] - سمعت كثيرا هذه الجملة و كان يظن الذين يرددونها أنها حجة سياسية كافية !

[2]- طالب عبد الرحمان المذكور من قبل هو أخوه.

النزوات. وكان أعضاء اللجنة المركزية لفئة الشباب الذين كانوا كلهم تقريبا من أصول شعبية فقيرة قد صقلوا على صورته، غير أن الانغلاق بين فئات السن والسلوكات العصبية كان من شأنها أن تؤدي في أمد قصير إلى شل هذا الشاب اللامع والمنظم في أشكال من النخبوية البيروقراطية. لماذا- على وجه الخصوص- تم إنشاء لجنة مركزية للشباب التي كانت مجرد تسمية لا ترتبط بتجسيد مادي لتواجد وطني؟ قالوا أن ذلك كان يهدف إلى تحقيق مركزية كل النشاطات الشبانية في الجزائر العاصمة، من المناضلين الحزبيين الشباب والطلبة والثانويين وكانوا على اتصال بالنساء اللواتي كن يحاولن إنشاء جمعية نسائية تحررية مع الكشافة الجزائرية الإسلامية التي كان من أهم قادتها عمر الآغا وهو من أبناء القصبة. كان الشباب يأمل في أن يسمح المكتب السياسي بخلق حركة شبابية على المستوى الوطني؛ وقد واجه بودا هذا الطلب برفض قاطع.

أما فيما يخصني، فقد شرحت لهم أنه لا يجب أن تتحدد الهياكل لمجرد المتعة. فدور المثقف "الانتلجنسيا" والشباب هو أن يندمج بدل أن ينعزل، لرفع المستوى السياسي والتنظيمي لنقابات العمال والمنظمات الطلابية والنسائيه.

واقترحت- في تقريري حول إعادة تنظيم الجزائر الكبرى الذي قدمته لبودا- إدماج تلك الهياكل الهرمية الثلاثة المبنية على السن: الشباب، الشباب الكبار والكهول، وكانت غاية هذا الإدماج هو أن يتشكل أحسن تأطير ممكن من القاعدة إلى القمة. إذ كان يتحتم أن لا نفرق بين الكفاءة والمسؤولية من جهة وبين الشجاعة والوفاء من جهة أخرى. بل على العكس، كان يجب جمعهم وإشراكهم في شكل فرق تنشأ على كل المستويات.

قبل بودا بهذا المشروع شريطة.أن يقرر المكتب السياسي حل اللجنة المركزية الشبانية كما اقترحت. وقد استقبل قرار الحل كعمل انقلابي من "رفيق بودا"، وكعمل قمعي[1]. أما عند الكهول، فقد أثارت التغييرات بعض التململ أيضا[2]. وستتاح لي فرص أخرى فيما بعد كي ألاحظ أنه-

---

[1]- لكون كل فريق تحت إمرة قائد معين نظرا لحجم المشاكل المطروحة من فقر ونزوح عشوائي نحو المدن، كان ذلك سيكون من باب الديماغوجية لو مر تعيين هؤلاء المسؤولين عبر انتخاب ديمقراطي .

[2]- وسيأتي في وقت قريب أن يفسر الإجراء على أنه مؤامرة قبائلية تهدف، غداة انعقاد المؤتمر، إلى التحكم الشامل في كل الأجهزة.

على مستوى الدولة والحزب- لا هم للقادة أو القادة الصغار غير غاية واحدة، وهي أن لا يتغير شيء فيهم ومن حولهم .

كنت أتفهم أن يكون القادة "الكهول"- على مستوى الأحياء- غير راضين عن فكرة من شأنها أن تنتزع منهم مناضلين ذوي قيمة عالية كانوا يحضنونهم هناك. ومن المؤكد أن رفضهم كان سيكون أشد لو عرفوا أنني كنت- في نفس الوقت- أترصد بصفة شاملة بحثا عن العناصر والمسؤولين الذين سيشكلون مستقبلا المنظمة الخاصة. لكن الأحداث أثبتت لهؤلاء الرجال الأوفياء، والذين كنت أقدرهم لأنهم كانوا قد أعطوا أفضل ما عندهم، أنه لم يكن هناك أي مساس متعمد بكرامتهم[1].

واستمر بقائي على مستوى المنظمة السياسية- في الجزائر العاصمة- حتى نوفمبر 1947 إلى أن كلفت بالمنظمة الخاصة .. وباتفاق مع بلوزداد الذي كنت على صلة وثيقة به، اغتنمت الفرصة لتجنيد الجيلالي رقيمي بعد أن تحرر من هيكل الشباب الكبار. وعملت معه على اختيار أحسن العناصر. فبعد حل اللجنة المركزية الشبانية، طلبت من مراد ديدوش أن يتكفل بالمهمة بالغة السرية والمتمثلة في إنشاء هيكل عسكري. ولم أكن أتصور آنذاك أنه سيصبح قائدا للولاية الثانية، أي الشمال القسنطيني.

كانت الاجتماعات تنعقد مرتين في الأسبوع، على مستوى المكتب السياسي، تحت تأثير التنامي البالغ لكل الأنشطة. وبطلب مني تم إعفائي من "حقيبة "المالية؛ أما الخزينة التي سلمت مفاتيحها إلى فيلالي فلم تكن في الواقع إلا "حصالة" بها خمسون ألف فرنك قديم. كان ذلك المدخول الوحيد ولم يصرف منه شيء. ولازلت أتساءل عن جدوى ذلك الصندوق في وقت- وبسبب الحملة الانتخابية- كان الحزب يئن تحت ثقل ديون تصل إلى عدة ملايين من الفرنكات. وسيصبح المشكل المالي أكثر حرجا مع الأيام، رغم الاشتراكات والتبرعات. وكانت التجارة الصغيرة في حالة ازدهار، إذ كانت القصابات والمخابز والمطاعم ومحلات الحلاقة

---

[1]- كان هذا النوع من المقاومة ضد التغيير قد واجهنا سنة قبل ذلك في منطقة القبائل . خلال عملية تفقد قمت بها رفقة العيمش عند بللونيس قائد ناحية في برج منايل عملنا كل ما في وسعنا على تنبيهه أن أسلوبه الخطابي هو بمثابة ممارسة للإنعاش الطبي في حين أنه عليهم خلق روح جديدة وهياكل ناجحة . ورد على ذلك في اجتماع مجلس المنطقة: "ومن أنتم. أتحسبون أنفسكم أطباء أو مهندسين. أنتم لا تحسنون حتى كتابة حروف الأبجدية الفرنسية وتأتون لإعطاء دروس". استخلص العيمش بصفة فلسفية من الحادث أنه في حالتنا علينا أن نتعلم كيف نكبح جماح كبريائنا. وكنا متفقين في الاستنتاج بان "كل بناء يتطلب متسعا من الوقت."

تتكاثر في المدن والقرى. وكانت المحلات التي يملكها مناضلون أو متعاطفون تجلب إليها زبائن يتقاسمون معهم نفس الأفكار. وحتى لا يخسر الزبون، أو يتوجه إلى الجار المنافس، كان يلجأ هؤلاء المناضلون من أصحاب المحلات إلى مكبرات الصوت وإلى الأغاني المصرية، التي كانت تعرف رواجا كبيرا في ذلك الوقت.

ومادام لم يعد هناك داع لإخفاء دفع الاشتراكات لصالح الحزب في ذلك الوقت صارت هذه المحلات رافدا له وأمكنة لترقيته، إذ تتوجه الأموال كلها إلى الفرع الشرعي لحزب الشعب[1](الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية). كان العمل السياسي يؤثر حتى على الجانب الاقتصادي، إذ لم تكن الحركة بريئة من الحملة التي استهدفت غزو مشروب /كوكاكولا/، لأنها كانت تنافس المنتوج المحلي[2]. وانتشرت- كالنار في الهشيم- خرافة تدعي أن مشروب كوكاكولا يتسبب في الضعف الجنسي وأنه يمثل ضربة خبيثة أخرى من طرف الإمبريالية!

كان تنامي النقابات المهنية (خبازين، جزارين، حلاقين، أصحاب مطاعم) قد أعاد إلى مستوى ثانوي المبادرات النقابية العمالية. قبل عمر خليل- رغم عدم رغبته- أن يقود نقابة المطاعم، بينما تكفل عبد الحميد سيد علي بنقابة الخبازين، وكان مكلفا منذ زمن طويل بتسيير مخابز الصادق الريحاني، وهو رجل واسع الثراء كان قد أقرض الحزب مبالغ كبيرة خلال العمليات الانتخابية.

كان الريحاني من مواليد الأوراس، وطنيا من الدرجة الأولى. وقد قدم للحزب خدمات جليلة خلال مرحلته السرية. وعن طريق الريحاني ظهر على الساحة العاصمية- وحتى على الساحة الوطنية- شخص مشبوه هو سعيد الزاهري.

---

[1]- طلب مناضل من البليدة عن طريق شرشالي كان ينوي إدخال ماركة من التبغ إلى السوق مساندة المكتب السياسي له بالدعاية مقابل دعم مالي.

[2]- بعد ذلك حاول المنع ان يطال المشروبات الكحولية متمثلا في عمليات انتقامية عنيفة ضد ما كان يسمى في القصبة بحفلات/الجعة/. ولان ذلك كان يسمح لهم باستمرار بسط سيطرتهم كان القادة في القصبة يشجعون هذه الحملات "للتطهير الأخلاقي"ولم تكن قوات الأمن تتدخل. وكان ارزقي أعرب يقود بعض هذه العمليات وهو مناضل كان يملك مقهى في شارع لحمد علام. وكان الناس ينادونه احمد الماكي لأنه كان يقول انه كان في الجبل. كان ارزقي يمثل بحق تلك البرجوازية التجارية الصغيرة، وكان بالنسبة لي يمثل نموذجا في المسار السياسي. فقد تأثر كثيرا بالأزمة بين المركزيين والمصاليين. واختار بحدسه ان يجعل نفسه تحت تصرف عبان رمضان في 1955 وقد مات شهيدا في المقاومة. وكان مصيره نفس مصير علي لابوانت.

لم أكن أعرف شيئا عن هذا الرجل الذي كان في منتصف العمر (فوق الخمسين)، سوى أنه درس في مدرستين دينيتين شهيرتين، هما الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة. كان كثيرا ما يرافق الريحاني وسيد علي في زيارات لمصالي الحاج، الذي أثنى عليه كثيرا وهو يحدثنا عنه، حيث قال: "إنه معرب كبير وعالم ووطني. إذ لم يكن لحركتنا أناس كثيرون من هذا الطراز، مقابل جمعية العلماء والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. ومما زاد في أهمية الزاهري أنه كان " قلما"، أي صحفيا كبيرا.

كان مصالي الحاج يريد إنشاء جريدة أسبوعية باللغة العربية، "المغرب العربي"، وكان ينوي إسناد إدارتها إلى ذلك الشيخ. وطرح القضية للتصويت خلال اجتماع المكتب السياسي . كنت أنا وبلوزداد متفقين تماما على ضرورة نشر جريدة بالعربية، ولكننا رفضنا تقبل ذلك الشخص الذي سيصبح عمليا لسان حال الحركة. كنا نرفض تزكية تعيين شخص نزل علينا من السماء، ومن حيث لا ندري، ولم يكن من الحركة. ومما دعم رفضنا أنه لم يكن لدينا فريق من المحررين القادرين على التحكم في توجيه وتسيير الجريدة[1].

لم يأخذ المكتب السياسي معارضتنا بعين الاعتبار، كما لم ينصت إلى تحذيرات اللجنة المركزية الشبانية (قبل أن يتم حلها بعد ذلك أيضا) الذين كانوا يرون أن الرجل "مشبوه" دون أن تكون لهم مآخذ دقيقة عليه. ولم تظهر الأدلة الدامغة إلا بعد عدة سنوات، عندما علمت جبهة التحرير أن الشيخ الزاهري كان رجل العقيد شون، قائد مصلحة الاتصالات لشمال إفريقيا، أي بصورة أدق، المخابرات.

في الواقع كانت تكفي القراءة المتأنية لجريدة "المغرب العربي" التي كانت تتميز بنقدها العنيف- بل حتى التحريضي القاتل- ضد جمعية العلماء وضد فرحات عباس[2]. ولم يكن لهذا التطرف اللفظي إلا نتيجة

---

[1]- كان هناك واحد على الأقل وهو الشيخ حامد روابحية من تبسة الذي كان مكونا بالعربية فقط وكان مناضلا ورفيقا حقيقيا للدكتور الامين وبوقادوم . وكان الشيخ حامد مختلفا كثيرا على المعربين الذين عرفتهم بديناميكيته وتفتحه وبساطته ومرحه . وهذا الإطار العالي القيمة لخذت كل وقته إعادة تنظيم الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية في المنطقة القسنطينية الذي كان محركها.

[2]- منها مثلا افتتاحية معنونة"السيد البغل المحترم" تتهجم بشدة على فرحات عباس الذي قال في اجتماع علني :"ان أصحاب حزب الشعب يريدون الذهاب بسرعة اكبر من سرعة الحصان، لكن يمكن ان يتعثر الحصان ويسقط. إننا نفضل سرعة البغل البطيئة ولكنها الأكثر أمانا".

واحدة وهي تغذية نار التفرقة، وهو ما كان يخدم الاستعمار[1]. ولأن الريحاني صاحب المخابز والمحرك الحقيقي للجريدة قد قتل سنة 1956، بسبب عدم تخليه عن المصالية، فهذا لا يعني أنه هو المسؤول عن العمليات الملتوية التي جرت في 1947[2]. وعلى أية حال لم يساورني قط الشك في الوفاء السياسي لسيد علي الذي افترق عن مستخدمه الريحاني سنة 1953، وعارضه كمركزي ضد مصالي.

بعد أن عادت - الجزائر العاصمة- كمركز اجتذاب سياسي صارت تعيش كل نهاية أسبوع سلسلة متتالية من الحفلات الشعبية؛ من زفاف وختان وتدشين للمحلات التجارية التي أصبحت كلها فرصا للاحتفالات الوطنية. كانت الفرق المسرحية والموسيقية في تزايد، ومنها فرق "ملتزمة" كفرقة الميسوم، التي تثير زوابع من الزغاريد عند غنائها لأناشيد وطنية بالعربية والأمازيغية. وكثيرا ما كان رموز الحزب يحضرون هذه الحفلات. ولم يتردد بودا في مرات كثيرة من أخذ الميكروفون ليغني أناشيد وأشعارا من تأليفه[3]. وكان كثير من المناضلين والإطارات المحلية يأتون إلى هذه اللقاءات العائلية أو الودية ليتمرسوا

---

[1]- وفي كل الأحوال كان الاستعمار يفضل التعامل مع الفئات الدينية المرابطية أو"الإصلاحية" بدل التعامل مع أحزاب سياسية حقيقية قادرة على تجنيد الضمائر المدنية. وهنا أيضا كان يراهن على التناقضات الناتجة عن التصورات الدينية المختلفة . وبما ان الإسلام كان يمثل عامل انصهار وطني وتجنيد شعبي ، فان الانقسامات التي تمسه لا يمكن إلا أن تخدم المستعمر. ولم يكن هذا النوع من العمليات بجديد. فبعد الشيخ الطيب العقبي الذي ذاع صيته قبل الحرب مقدما نفسه كمجدد للأيديولوجيا العربية الإسلامية. جاء دور الشيخ عز الدين الذي نزل من القاهرة في 45 مدججا بدكتوراه في الفلسفة وكان له في طرف قصير صالون خاص به يذكر فيه سقراط وأفلاطون وارسطو باللغة العربية، وكان هذا شيئا استثنائيا لدى آذان بعض مسؤولي الحزب أمثال حسين مقري الذي كان يمثل وجها من وجوه الحرس المصالي القديم. بينما غض مناضلون قدامى الطرف عن إيمانهم الديني العميق وهم يستمعون لهذا العالم يشيد بالإلحاد والنزعة البربرية. كان يحتقر الله والعباد أيضا. ووصل به الحال إلى ان صرح ان الفرق بين مصالي الحاج وفرحات عباس يتمثل في كون الأول ذبابة كبيرة والثاني ذبابة صغيرة . وهنا أجابه بناي :" إذا كلنا ذباب مادمنا نواصل الدوران حولك". وسرعان ما فرغ صالون الشيخ عز الدين. وعلمنا فيما بعد انه كان مستخدما من طرف مصلحة الانديجان.

[2]- كان كثير من المسؤولين يترددون على محلات الريحاني التي كانت تأوي على الخصوص نقابة الخبازين.. وكنت أقوم هناك بعمل المداومة خلال الانتخابات المحلية في أكتوبر 1947 . وهناك أيضا انعقد اجتماع للمكتب السياسي رسخ في ذاكرتي لأسباب شخصية. هناك دخل علينا سيد علي سائلا ان كان هناك من يعرف فينا ايت احمد . فهو ككل الآخرين كان يعرفني باسمي المستعار : مجيد . فأجبته بأنني اعرفه وسألته ما الأمر؟ قال : وصلت للتو مكالمة هاتفية من باليسترو تعلمنا ان أخاه قد توفي بعد ان داسته شاحنه . كان ذلك يوم 11 نوفمبر الذي كان يحتفى به في كل مكان باستعراضات عسكرية على أنغام الموسيقى العسكرية . وسأعود مطولا إلى هذا المصاب الذي ألم بنا يومان قبل التاريخ الذي حدده بلوزداد لأول اجتماع هيئة أركان المنظمة الخاصة .

[3]- كما كان يغني قصيدة من تأليفي بعنوان "تاغ امحند آمي " وهي عبارة عن حوار بين أم وابنها يقدم فيه شرح سياسي .

على الخطابة . وفي هذا الجو التقيت بزميلي في الثانوية سعيد شيبان، الذي رسب عدة مرات في البكالوريا، رغم حصوله المستمر على جوائز الامتياز. وكان يجد في هذه الحفلات فرصة يطلق فيها العنان لبلاغته ولغته الحماسية. وقد نصحته أن يترك الدراسة أو يعطيها حقها[1].

وفي السنة التالية سافر إلى مدينة ستراسبورغ لينهي دراسته الثانوية، وأصبح بعد الاستقلال طبيبا للعيون وأستاذا بكلية الطب.

كانت لتلك الحالة الفردية دلالتها على المستوى الجماعي. فكثيرا ما كان الناس ينغمسون في جو نشاط ما، وكان يفترض أن يسمح ذلك بفك العزلة السياسية ومد جسور الاتصال الاجتماعي، غير أنه في الواقع ينسيهم ما هو أساسي.

ففي كثير من الأحيان، وبحسن نية يجد الناس أنفسهم منغمسين في مشاكل ثانوية. ومادامت أذن القاعدي وأذن القيادي لا تعمل على نفس الذبذبات فهي لا تسمع التذكير بالاختيارات الأساسية. وكلما ارتفعت وتيرة الصوت كلما قل السمع للمسألة الأساسية.

سأعطي مثلا صغيرا لكنه ذو دلالة. أعلن يوم 8 ماي 1947 يوم حداد وطني، تخليدا لذكرى الأحداث المأساوية التي شهدها نفس اليوم من سنة 1945 . وقد استجاب الناس للنداء في هدوء وكرامة. أغلقت الدكاكين، وأحجم الناس عن الاستماع إلى الموسيقى. وساد صمت ثقيل كأنه الليل. وكانت المناسبة تعبيرا ملموسا عن قوة سياسية. وفي المساء، قص علينا عضو في المكتب السياسي بنبرة ملحمية كيف أن رابح " الدوزيام" وفريقه انهالوا ضربا بالرؤوس و الركلات على مفرزة من البحارة كانت تعبر شارع /مارينغو/ شارع عرباجي حاليا، نحو الملذات الممنوعة في القصبة. كان من حق "الفاعلين" أن يفتخروا بفعلة ظنوها انتقاما لشهداء مجازر سطيف، غير أنه يتحتم على المسؤول أن يكون في مستوى آخر من التفكير.

للأمانة- وربما يقلل هذا من خطأ هذا القائد- كان تأثير الحركة يصل حتى الأزقة المظلمة والوعرة للقصبة، أو ما يعرف بقاع المدينة، أمكنة تتردد عليها عصابات الإجرام المتنافسة. و بعد أن تحول إلى الوطنية

---

[1]- لا يمكن أن أقول أن نصيحتي كانت أكثر حسما وتأثيرا من الضغوط العائلية التي مورست على الشاب .

أصبح رابح "الدوزيام" واسمه الحقيقي رابح زعاف[1] ما نستطيع تسميته بقائد حي، مهمته ترصد مخبري الشرطة وتحييدهم. وكان تحت يده فريق قوي وفعال وجدير بالخشية.

وكانت مجموعة القصبة تستعمله كقوة ضغط، حتى يمنع تطور الأعمال الثأرية بين عصابات تضللها وتستعملها الشرطة. لا يمكن لأي حركة شعبية أن تتجاهل هذا العالم المشبوه المرتبط على كل حال بظاهرة الإفقار والتشرد.

وهكذا كان الحزب يحاول أن يفرض وجوده على كل الجبهات. ولهذا السبب منح رعايته لإنشاء مجلة شهرية "السلام"، غايتها تقديم ودراسة المشاكل الاجتماعية الأساسية خاصة دور المرأة المسلمة في الحياة العصرية. وكانت الفكرة القاعدية وراء ذلك أن الترقية الاجتماعية للجزائريات والجزائريين تمر عبر إطلاعهم على ما يحدث في الأماكن الأخرى، كالمبادرات الهادفة إلى تحرير المرأة في الباكستان (الذي حصل على استقلاله آنذاك) أو في المغرب.

وكانت المجلة من تصميم مجموعة من الجامعيين الطلائعيين من شابات و شبان، وأمسك بزمامها حمزة بوبكر، ذلك الذي أشرف لسنوات طويلة على مسجد باريس. لم يكن في ذلك الوقت "شيخا"، إذ كان أستاذا للغة العربية في التعليم الثانوي الفرنسي.

كان مد تاريخي يدفع الحزب مما جعل هذا الأخير يفعل أي شيء بطرق ارتجالية ومع أي كان. لم تعمر مجلة السلام طويلا ، فسرعان ما غرقت في المشاكل المالية. لقد استخدم الحزب ولم يخدم.

وقام قادتنا بتشكيل لجنة، كنت عضوا فيها، لدراسة الأوضاع المالية مع رئيس التحرير، والنظر فيما إذا كان من الممكن إنقاذ المجلة.

تم اللقاء- الذي دخل سجل الذاكرة لعدة أسباب- عند حمزة بوبكر.. ففي ذلك المساء، كان يقام حفل ختان في جو يذكر بقصص ألف ليلة وليلة. وبين أريج الياسمين وعبير زهر البرتقال انتشرت أنغام الطرب الأندلسي لفرقة المطربة الشهيرة فضيلة، مضافا إليها حفاوة الاستقبال.

وكان علينا أن نعنف أنفسنا ونقهرها حتى نقوى على اقتلاعها من ذلك الجو البهيج، ونطلب جلسة عمل!. وعندما سمعت اسم الشخص

---

[1]- وقد أبلى رابح زعاف البلاء الحسن وكان مقاوما خطيرا حتى يوم اعتقاله سنة 1956 .

الذي سنتحدث معه بدا غير غريب لدي. ولما وقفت أمامه، اندهشت لمقابلة أستاذي القديم في اللغة العربية في ثانوية بن عكنون.

فربطة العنق التي تأخذ شكل فراشة والصديري الأنيق قد تركا المكان لزي مفتي القدس! لكنه بقي خفيف الظل. والمفاجأة الثانية أنه كان ذات ليلة مرفوقا بمحام شاب هو الأستاذ كيوان، الذي كنا عيناه في عام 1944 على رأس منظمتنا الطلابية، والذي كان صهره[1].

كشفت قصة أسبوعية السلام أن الحزب كان في حالة تبعثر. كان قادته وإطاراته القليلة على كل حال يرهقون أنفسهم دون أن يجسدوا كل توصيات المؤتمر، وبالخصوص مشروع إنشاء نقابة عمالية مركزية. لم يتم التطرق لهذا الملف إلا عن طريق مقالات تندد بالممارسة المجحفة بخصوص المطالب المتعلقة بالأجور عند مختلف النقابات، وحتى المركزية العامة للعمال (السي جي تي). .

وكان المشروع جديرا بالتجسيد، كما كان يطالب به المسؤولون النقابيون المنخرطون في الحزب بإلحاح، ومنهم السي جوزي[2] الذي كان ينتخب دوما على رأس جمعية عمال ترام الجزائر[3]، ورابح جرنان الذي كان يسيطر على نقابة عمال الميناء، أو بالميهوب أحد قدامى نقابة عمال السكك الحديدية.

كان بإمكان هؤلاء المناضلين وآخرين على الأقل القيام بإنشاء لجنة تتكفل بصياغة استراتيجية الإلتفاف والتوغل الكلي في نقابة /السي جي تي/ ، التي تمكنت من التمركز في المدن والأرياف، في المؤسسات وفي حقول أسياد الاستعمار. كان من الأهمية بمكان فعلا مقاومة تحاليل هذه المنظمة النقابية، التي كانت تابعة للحزب الشيوعي الجزائري، وبالتالي الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان الطرح المقدم هو أن الاستقلال يساوي الإمبريالية والاتحاد الفرنسي يساوي الديمقراطية.

---

[1] - أصبح كيوان فيما بعد عضوا قياديا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية عام 1953 وانتخب برفقة لحول نائب لرئيس بلدية الجزائر جاك شوفاليي.

[2] - كان سي جوزي صديقا لعلي بناي. وقد وجدته في فصيلة من "الكهول" كان يقطن في باب الوادي وشاءت الصدفة أن ألتقي به مرارا بعد 1948 في شارع كاميل- دولس ودعاني عدة مرات للغداء دون أن يدرك أنني أعيش في سرية في نفس الشارع عند أصهاري المستقبليين .

[3] - لم تكن هيكلا نقابيا شكليا وابتداء من 1933 أصبحت مشتلة لنجم شمال أفريقيا ثم حزب الشعب. وكان محمد دوار أول منتخب للحزب في المجلس العام عامل ترام في 1939 . وفي المخيلة الشعبية في الجزائر كان عمال الترامينو يشكلون نوعا من الأرستقراطية العمالية كما كانت توحي بذلك الأرجوزة التي تقول : يالي تخدم في التي يا/ والنومرو في الشاشية.

كان كثير من مناضلينا يلومون الحزب لعدم اتخاذه مواقف أكثر صرامة من الحزب الشيوعي الجزائري ونقابة السي جي تي، اللذين كانا يعيشان وضعا غير مريح تجلى في بعض الأزمات[1].

كانت الغلبة العددية "للمسلمين" (هكذا كان الأوربيون يلقبون نقابيي الجزائر) عاملا مهما في إظهار التناقضات التي تشوب الخط السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمركزية العامة للعمال(سي جي تي). فمطالبتهم بالسلّم المتحرك للأجور- الذي كان يفصل فئة المسيرين الصغار (مراقبين وقائدي فرق)- كانت تخدم مصالح الأوربيين المتحكمين في تلك المناصب. وقد سمحت مقالات نشرت في جريدة "الجزائر الحرة"[2]- والتي كانت تكشف وتعري آليات التمييز من وراء ذلك المطلب- بتغذية الوعي الاجتماعي والوطني، وسببت إحراجا ومتاعب للقادة الشيوعيين. وكانت هناك جماعة تقدمية في الحزب خاصة في جمعية الطلبة المسلمين التي أنشأها يحيى حتّين وصادق هجرس ومبروك بالحسين. وكانوا يتمكنون في بعض الأحيان من تمرير مقالات لهم في جرائدنا. خلال ما سمي بالأزمة "البربرية"، التحق هجرس وحتّين بالحزب الشيوعي، وسيصبح هجرس فيما بعد أمينه العام.

لا يحدث أبدا- من باب الصدفة ودون سبب- أن تقوم إطارات بمغادرة حزب ما. لماذا لا يعترف بأن اللجوء السهل إلى الحجج الدينية، أو ما يسمى اليوم- دون تريث وبصفة اعتباطية - بالأيديولوجية العربية الإسلامية كان لا يساهم بنضوج وعي واضح، وأنه كان بالعكس يسمح بالالتواءات الاستراتيجية والانحرافات السياسية.

---

[1] - في بعض الأحيان كان ذلك يظهر على أعلى المستويات. عشية الحرب العالمية الثانية استقل الأمين العام للحزب الشيوعي بن علي بوخرت لأسباب متعلقة بالمواقف الإندماجية. والتحق بحزب الشعب خلال مرحلة فيشي وكان يساهم في تحرير عدد من عناوين الحزب منها العمل الجزائري ، وفي عام 1948 التحق أمين عام آخر للحزب الشيوعي ، عمار أوزقان بحركة العلماء لكي يطلق جريدة جديدة باسم : المسلم الشاب.

[2] - بعد المؤتمر أسند لحول مسؤولية نشريه شهرية " الجزائر الحرة" إلى بن خدة وعبد المالك تمام ، الذي كان عونا في مصلحة الضرائب وتقلد بعد الاستقلال مهام عليا وكان على رأس بنك الجزائر حتى توفي عام 1977. وفيما يخص الجانب الاجتماعي والنقابي للجريدة قام بتوظيف عيسات إيدير الذي كان آنذاك مكلفا بتحضير تقرير بخصوص إمكانية إنشاء نقابة عمالية ذات اتجاه وطني على شاكلة الاتحاد العام للعمال التونسيين. كان عيسات ايدير موظفا ثم إطارا ساميا في "الورشات الصناعية للطيران" قرب المطار بالدار البيضاء ، وكان يغتنم فرصة قيامه بمهام رسمية ليزور زعيم النقابة التونسية فرحات حاشد. وهو كبناي الذي كان صديقه ورفيقه في الحزب كان عيسات من أبناء جماعة تصهاريج بالقبائل الكبرى .

كان مصالي يبدو على أية حال أكثر انشغالا بخلافاته الطويلة مع قادة الحزب الشيوعي الفرنسي، بدلا من الضرورة الملحة لتحليل الوضع، وتحديد موقفنا تجاه ذلك اليسار الذي كان لا يزال يعلن انتماءه إليه. فهو يتكلم فعلا عن الطبقات الكادحة، ويركز على "المستوى المعيشي"، دون أن يذكر صراحة ما هي الفئات الاجتماعية التي تحمل الديناميكية التحررية، ودون أن يحدد بدقة تصوره للمجتمع الجزائري. فبالنسبة إليه، هناك الشعب الجزائري والجماهير الجزائرية و"الآخرون".

الذكريات التي أحتفظ بها عن عمل المكتب السياسي حتى ربيع 1947، هي الغرق في المشاكل الثانوية، إن لم أقل التافهة[1]. وكانت الدردشات في ذلك الجو نصف المشرقي تطول وتطول من غير أن تلغي المشاكل، حيث أنها كانت تتجاهلها. فالأحداث أكثر صلابة من الرجال. وانعدام القدرة على رفع مستوى النقاش والفصل في المسائل كان مرفوقا بانحسار ملحوظ في الحضور. فقد بدأ الناس يلتحقون متأخرين بالاجتماع، وكان هذا مقلقا أكثر من الغياب الواضح.

طلب مني مصالي أن أعد مشروع قانون داخلي، يكون فيه طبعا سلم للعقوبات. رميت المنشفة بعد أسبوع، قائلا أنني لا أقدر على المفاهيم القانونية، وكان على كل حال من المستحسن أن نتساءل عن أسباب ذلك الركود في طاقتنا. فالدكتور الأمين، أصبح عندما يعود إلى الجزائر لا يبدي أي ميل للمشاركة في إجتماعات المكتب السياسي.

وفي جو الركود هذا، تم اقتراح إعادة إدماج المسؤولين الذي أقصوا من المكتب السياسي، أي مجموعة القصبة وهم عسلة، شرشالي، لعمراني وسيد علي. هؤلاء رجال يمكن أن تنتقد فيهم خياراتهم أو ميولاتهم، لكنهم كانوا يتمتعون بإحساس بالمسؤولية والصرامة، وكانوا- فضلا عن ذلك- لا يتخلفون عن المواعيد كما كان توسيع المكتب مبررا لأن المهام تكاثرت.

وهكذا تحول مركز نشاط القيادة نحو"الدائرة الثانية" من الجانب السياسي والاستراتيجي، وأيضا بكل بساطة من الجانب الجغرافي.

---

[1]- حدث أن دار حديث طويل حول مسألة دواليب مطاطية لسيارة مصالي.

بالنسبة إلي، كان ذلك مبعث ارتياح. ولأن معظم إجتماعات المكتب السياسي أصبحت تعقد في القصبة، فصار هذا يجنبني امتحان اجتياز الحزام الأمني للشرطة، التي كانت تراقب باستمرار ما يدور في بوزريعة.

كان سني هو قناعي الطبيعي، وكانت الشرطة لا ترى في سوى مجرد موظف، ولكنني كنت أعرف أن الروتين البوليسي يفرض أن يعطى اسم لكل وجه[1]، وأن كل الداخلين والخارجين من إقامة مصالي كانوا يصورون في كل الأوضاع.

كنت أخشى على وجه الخصوص أن تنسب لي تهمة "تورط إرهابي"، بل وحتى أن أخضع لعملية "مراقبة سريعة للهوية "، وهي عبارة عن إستنطاقات لا تعطي الوقت لا للعدالة "الاستعمارية" ولا للنواب الوطنيين كي يتحركوا.

الآن أصبح المكتب السياسي يرقى إلى مستوى المشاكل المطروحة. وبدا أخيرا جهازا تنفيذيا فعالا ومنسجما، عن طريق التنظيم المنهجي للنقاش وقصر ونوعية التدخلات، والدراسة المتأنية والدقيقة للمسائل المدرجة في جدول الأعمال.

أصبحت اجتماعاتنا لا تعقد عند مصالي إلا بصورة استثنائية. فغالبا ما كان يكتفي بإرسال رسائل، أو مباركة اجتماع المكتب السياسي. غير أنه كان مطلعا على كل شيء، عن طريق أمينه الخاص بن مهل، والزيارات اليومية التي كان يقوم بها عناصر "الدائرة الثانية"، واتصالات أخرى متنوعة. وإذا كان يفتقد لحرية الحركة والحضور اللذين يسمحان بالتسيير الجيد للحزب، فكان يقوم بذلك عن طريق التوكيل، إذا صح التعبير، كما فعل لمدة طويلة من وراء سجونه المتتالية.

جعل الظرف السياسي السائد من عملية هيكلة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية - على المستوى الوطني - أولوية الأولويات. المسؤولون المحليون والجهويون الذين كانوا معروفين ومسجلين في بطاقيات الشرطة الاستعمارية، تم إدخالهم بصفة آلية في هذا الفرع الشرعي للحزب، وكانوا- وليسوا الوحيدين- يحاصرون

---

[1] - كان يبدو لي ذلك أمرا بديهيا خاصة إذا تمكنت أنا شخصيا مع مرور الأيام أن أعرف أسماء هؤلاء "الحراس" الذين كانوا يجلسون في سيارة "تراكسيون" أو يلعبون الكرة الحديدية ومع ذلك علمت في أفريل 1948 أنهم لم يحددوا هويتي.

القصبة من أجل التعجيل بتنظيم الفروع. وأدت الوصولية السائدة مفعولها حتى لدى موظفي الإدارة العاملين والمتقاعدين[1]. كان ذلك الحال بالنسبة للنقيب صادوق سعيدي، وهو من قدماء المحاربين في الحربين العالميتين، والذي قدم بشجاعة أخلاقياته وحسه السياسي خدمة للعلم الجزائري، لأنه كما كان يقول "العلم الفرنسي قدم الكثير من الظلم والكذب والجحود". وكذلك كان الحال بالنسبة للامين بلهادي من الخروب، الذي ترك وظيفته كقاض ليكرس نفسه للعمل السياسي. وأمام جحافل الأطباء والمحامين والصيادلة المتواجدين في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وأمام رموز جمعية العلماء، كان هذا التوغل يعطي للحركة الاستقلالية وجوها وأسماء لها تأثيرها وكانت في حاجة إليها، لأن شهر أكتوبر كان يقترب ومعه المواعيد القاهرة: الانتخابات البلدية، "انتخابات الجماعات"، وهي عبارة عن مجلس الدوار، وانتخابات مترتبة على المصادقة على الوضع القانوني للجزائر، والذي لم نكن نعرف طبيعته ولا تاريخ دخوله حيز التطبيق.

ولكي يتم التحضير لهذه المواعيد، كان من الضروري الزيادة في السرعة والقيام بكل ما هو ممكن، لكي نعطي لفرعنا الشرعي، الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، أكبر الإمكانات للمشاركة الانتخابية.

وفي فرنسا ذاتها عرفت فيدرالية الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية بسرعة انتشارا معتبرا. وكان الدكتور مصطفاي، مندوب الحزب لدى فدرالية فرنسا، يأتي بصورة منتظمة ليمثلها على مستوى المكتب السياسي. أما البرلماني محمد خيضر، فهو أيضا وضع نفسه في خدمة الفدرالية لغاية تكثيف الحملات السياسية وهيكلة فصائل الحركة. وأصبحت المدن والمعامل التي يتواجد فيها المغتربون بكثافة معاقل وطنية، تنظم الطلبة الذين كانوا في تزايد مستمر على مستوى الجامعات، وكانوا يشاركون بصفة فعالة في الحركة.

ومن الأسماء التي بدأت تبرز وسمعت عنها لأول مرة أذكر، محمد حربي ومحمد يزيد، مع أنهما كانا ناشطين في الحزب منذ مدة. أما اسم

---

[1]- لم يكونوا أقل قناعة من آخرين حيث أظهروا وفاء غير مشروط لمصالي خلال انقسام الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية بين 52-53 وهذا شكل من أشكال القناعة.

العائلة

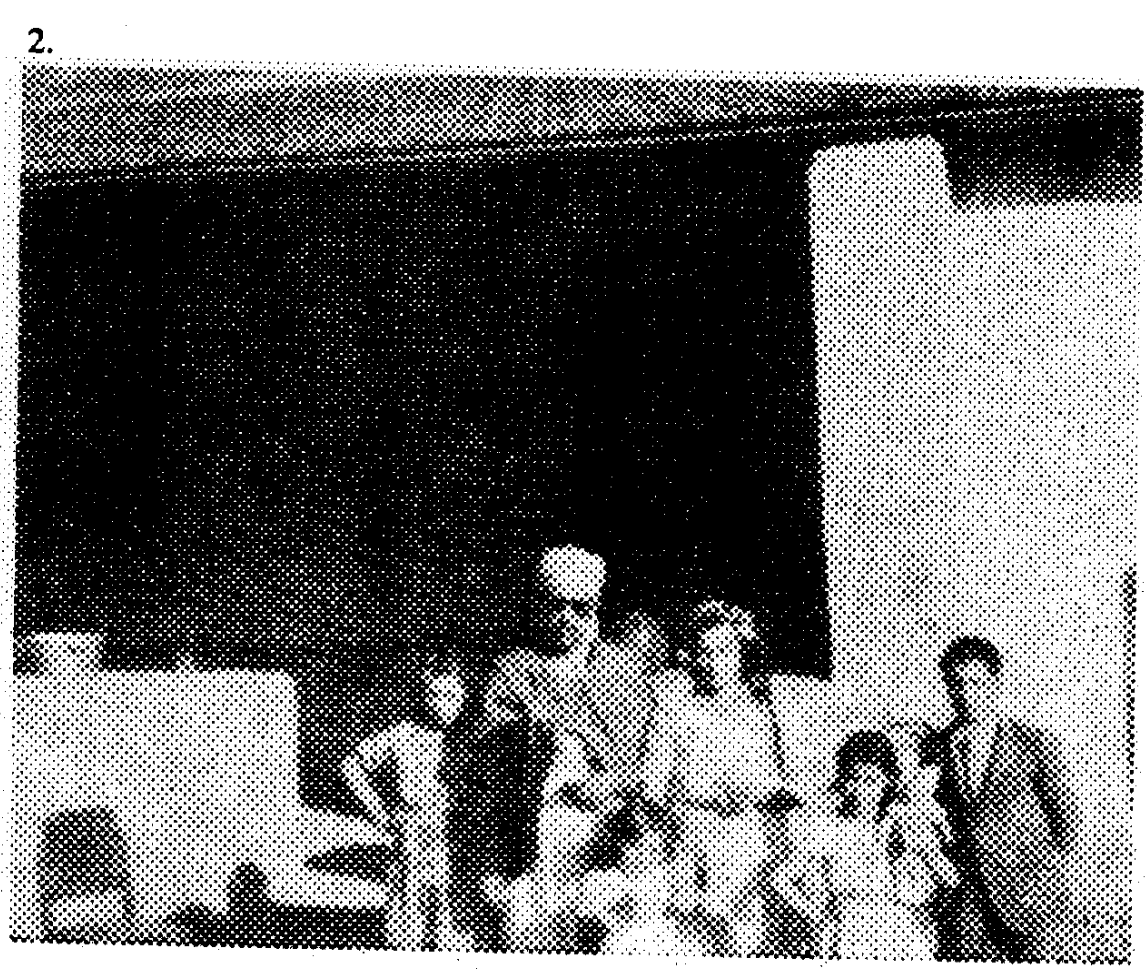
1. الخال شريف بن قداش

2. الوالدان، الأخوات الصغار، والعربي الأخ الأصغر



1.

2.





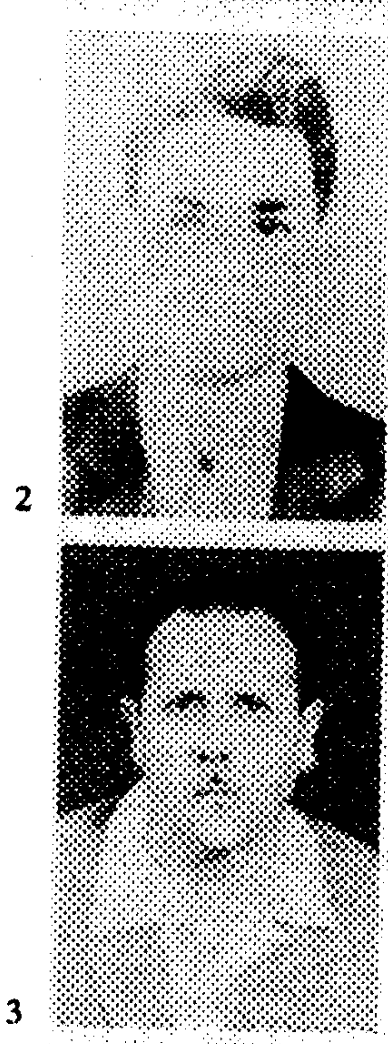
العام أوزين آيت أحمد.

الأخ الأوسط أمقران، رفقة
.محمد عبه وكيل لحكمة
الشيخ محند الحسين

1. محمد زروال
2. علي العيمش
3. حسين سيد أحمد
4. من اليسار إلى اليمين:
رابح موساوي سيد علي حاليت



1



2

3



4

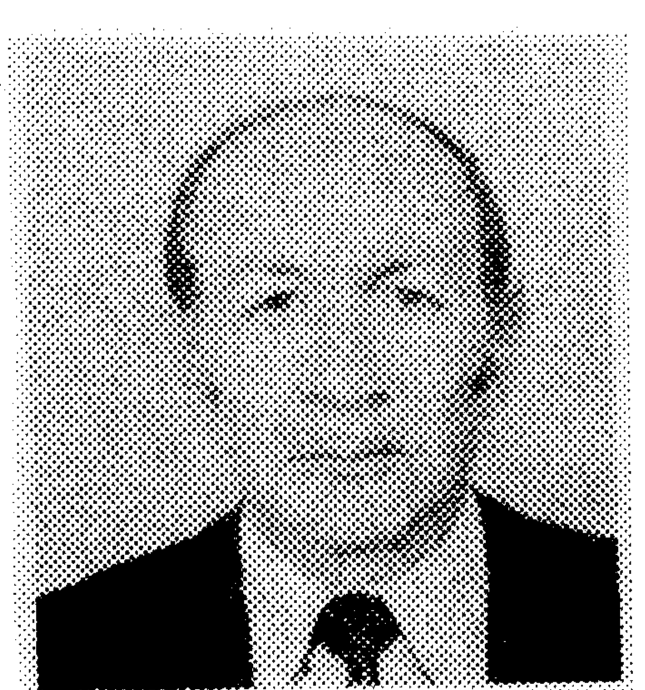


1.

المنظمة الخاصة :

1. جيلالي بالحاج
2. محمد ماروك
3. محمد علي خيضر.
4. بوجمعة سويداني

2.



3.

4.



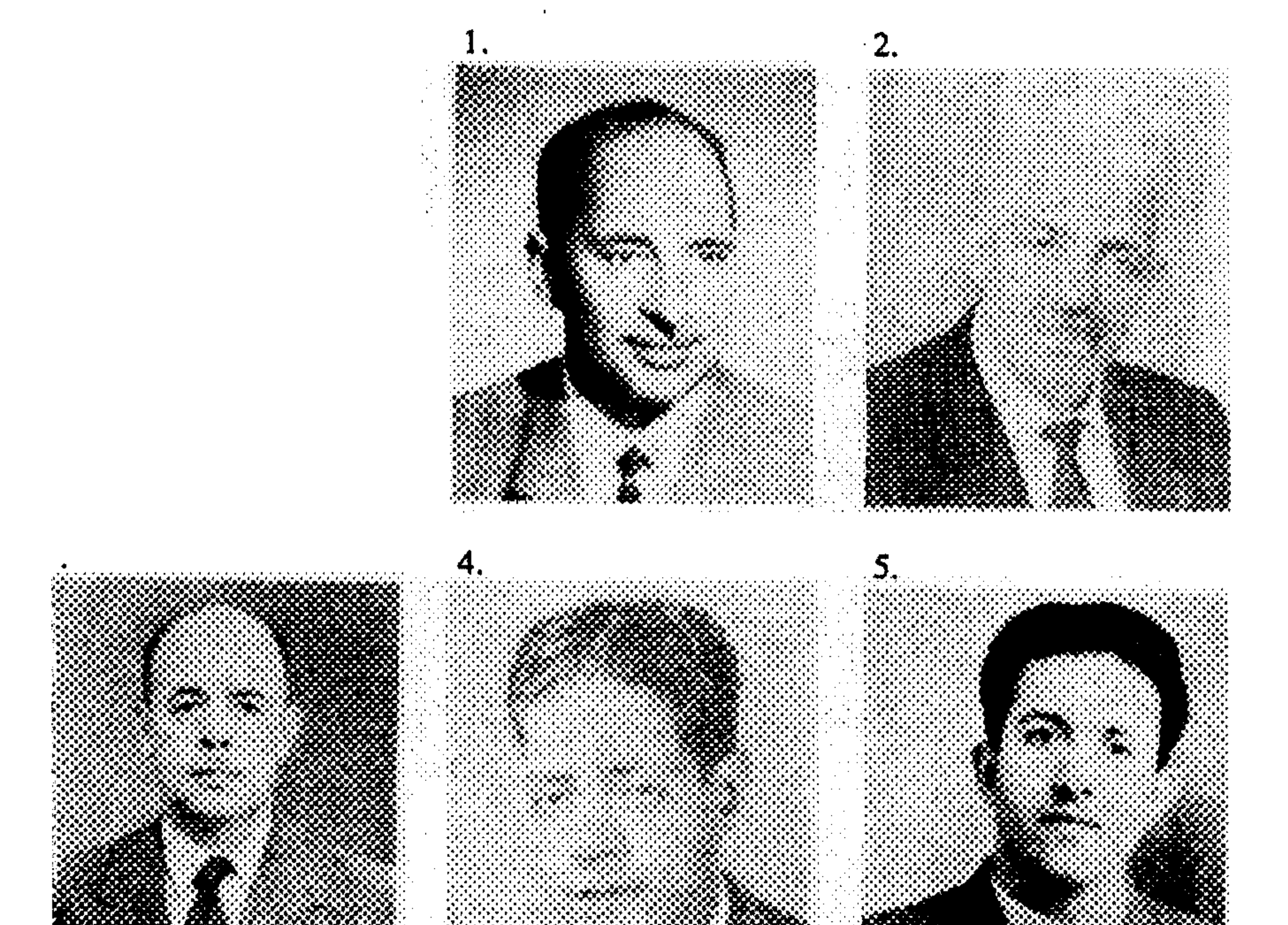


القواعد المحركة

1. سعيد آكلي،
2. لخضر رباح،
3. دوجة تاغليت زوجة ابراهيم

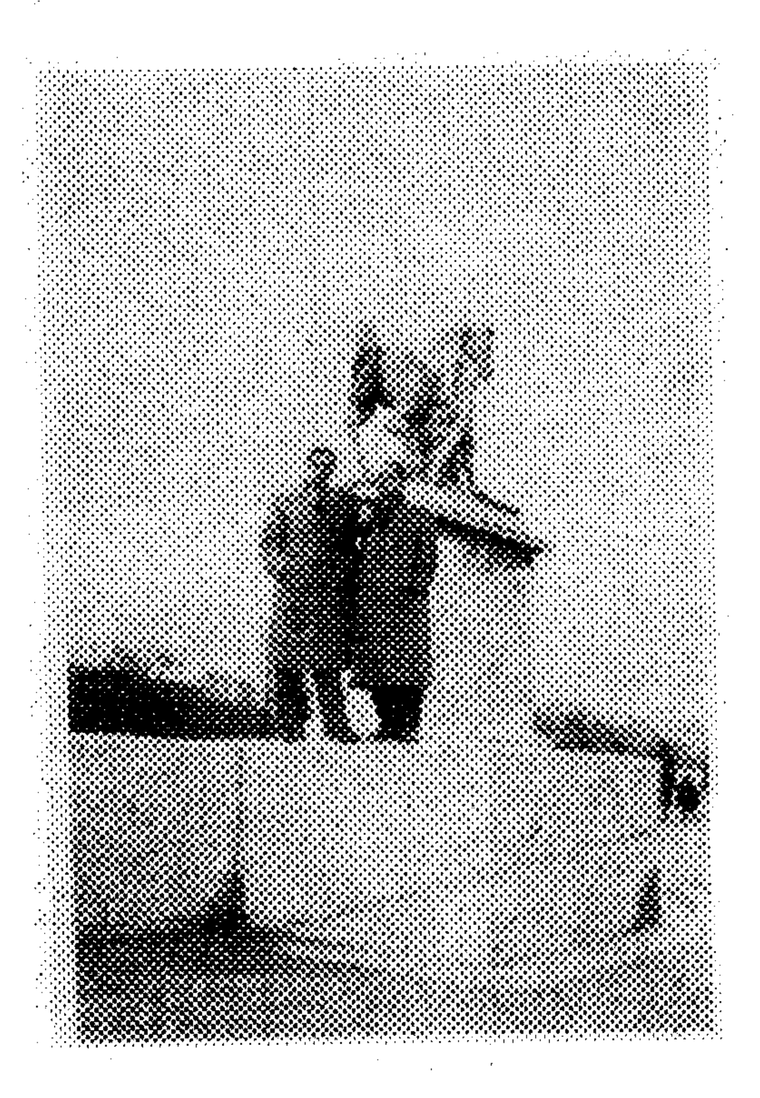
المسؤولون السياسيون

1. حسين لحول
2. أحمد بودا
3. عمارخليل
4. محمد طالب
5. حسين عسله





تونسية تودرت (جميلة)



حسين آيت أحمد مع زين العابدين منجي
(باريس، مارس 1952)

مصطفى لشرف فلم يكن غريبا علي[1] لأنه كان يسير لجنة الصحافة والدعاية مع مساعدين له أمثال الدكتور عيساني والصيدلي جمال بن ديمراد. وكان يسهر على الخصوص على إصدار جريدة الحركة الجديدة "النجم الجديد" من باريس.

يعود الفضل للأشرف، وإلى العديد من الجامعيين المجهولين، في القيام بأعمال البحث والتوثيق، وصياغة الخطب الصاخبة التي كان يلقيها نوابنا في المجلس الوطني الفرنسي خلال النقاش حول الوضع القانوني للجزائر، الذي افتتح في شهر أوت.

وقام خلال ذلك أربعة نواب للحركة من خمسة بتقديم وصف حال الجزائر، وبمحاكمة للنظام الاستعماري في مجال محدد: الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي وسياسة الظلامية والأمية، ومحاولة طمس الشخصية الثقافية والقهر السياسي.

وفي خاتمة كل تدخل، كان كل نائب يؤكد على عدم صلاحية البرلمان الفرنسي في أن يشرع عوض وبدل الشعب الجزائري، ويطالب بانتخابات حرة لتشكيل مجلس تأسيسي جزائري.

أما الخطاب الخامس، خطاب الأمين دباغين الذي صاغه الأشرف بنفسه، فكان يعطي حصيلة عامة وينتهي بهذه الجملة: "ليس هناك مثلا في التاريخ، من بولونيا إلى تشيكوسلوفاكيا اللتان فقدتا سيادتهما نتيجة لحرب خاسرة أو لاعتداء موصوف ولكنهما تمكنتا في الأخير من استرجاعها". وتمت طباعة هذه التدخلات الخمس في آلاف النسخ، وشكلت لمدة طويلة وسيلة للدعاية والتكوين السياسي ومرجعية. وكانت هذه النصوص بهذا الشكل دليلا على أن هناك نخبة مثقفة، أنتلجنسيا، بدأت تبرز وتكون روابط مثمرة مع الجماهير الكادحة. ورسم ذلك مرحلة هامة في التطور الكمي والنوعي لحركة التحرر. أصبح هناك شباب يتدارسون المشاكل ويحللونها ويفكرون. كانت أدبياتهم غير شاملة ولا تخلو من الثغرات، ولكنها تشكل ظاهرة فاصلة مع المقاربات الحماسية والضبابية الإيديولوجية التي كانت تطبع في الجزائر.

---

[1] - أصبح رفيقنا في السجن بعد عملية القرصنة الجوية ضد الطائرة التي كانت تقلنا إلى تونس سنة 56 ، أنا وبن بلة وخيضر وبوضياف. كانت الرحلة تهدف إلى حضور ندوة مع السلطان محمد الخامس والحبيب بورقيبة. وكان لشرف في هذه الرحلة بصفة غير منتظرة.

في عام 1949، قدم الأشرف استقالته من لجنة الصحافة والدعاية إلى فيلالي، الموفد الخاص لمصالي إلى باريس، احتجاجا على رقابة الحزب ورفضه للتشاور. ولم يكلفه هذا الفعل الطرد من الحركة، مع أننا كنا نعيش في تلك الأيام حربا ضد الساحرات، أي ضد "البربريين الماديين"، الذين همشوا بصفة شاملة لآرائهم، بل أكثر من ذلك وأخطر لمجرد الحكم على نواياهم.

وتجدر الملاحظة أن المسألة البربرية لم تكن أبدا من اهتمام الأشرف، حتى على المستوى اللغوي، حيث كان أستاذا للغة العربية.

وإذا كان له جانب "مادي"، فهو على الخصوص إنسان خارج عن النمط ، متحل بتفتح فكري كبير. وكان يجد متعة في التعاطي مع "الفيلسوف" محمد الشريف ساحلي أستاذ الأدب، من أبناء وادي الصومام. وكان قد نشر في تلك الأيام كتابا هجائيا عرف نجاحا كبيرا تحت عنوان: "رسالة يوغرطا"[1]، يوغرطا النوميدي الذي قاوم روما عسكريا وسياسيا، فالرسالة كانت واضحة وشفافة.

تمت المصادقة على القانون الخاص بالجزائر في 27 أوت 1947 (ونشر في الجريدة الرسمية في 20 سبتمبر47) بـ 388 صوت ومعارضة 33 صوت وامتناع 208 أصوات من بينهم النواب المسلمون الخمسة عشر. قيل عنه إنه وحش قانوني. فالجزائر استمر تعريفها كما كان الحال في 1900 بأنها مجموعة من المحافظات التي تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي. وتعهد السلطة التنفيذية إلى حاكم عام- يساعده مجلس حكومة- فيما تبقى سلطة التشريع من صلاحيات الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان)، ويتم تمديد - تحت تسمية " الجمعية الجزائرية"- ما كان يعرف بالجمعية المالية[2]، مع توسيع طفيف في صلاحياتها.

وتتكون الجمعية من صفين "متساويين"، أي ستين مندوبا لكل صف. يمثل الصف الأول 464.000 مواطن يتمتعون بالحالة المدنية الفرنسية و58.000 مسلم[3]، بينما يمثل الصف الثاني حوالي 1.3 مليون ناخب

[1]- التاريخ يرسم المسارات على طريقته ، فالرجلان أصبحا سفيرين بعد الاستقلال. الأشرف بعد مرور قصير على رأس وزارة التربية وبعد أن دخل آلية النظام لم تبق لديه القدرة على معارضة التوجهات و الهيكلة الماضوية لعملية التعريب ولم تكن له حتى القدرة لشرح سبب استقالته. أما ساحلي فقد أبعد لمدة سنوات إلى الصين وتعلم كيف يسكت.

[2] - كانت الجمعيات المالية قد أخذت في سبتمبر 1945 كل صلاحيات المندوبيات المالية.

[3] - لم يتجرأ المشرعون على إعادة النظر في ا لمكانة التي أسندت للنخبة الجزائرية في الصف الأول.

مسلم. كان واضحا تماما أن هذه الجمعية لا تمثل السكان الجزائريين، من خلال هذا التباين الهائل في عدد الناخبين. ولكنه يتضح أكثر عندما نقارن بين تعداد السكان حيث كان 922.000 أوروبي مقابل 7.860.000 مسلم. وفضلا عن ذلك كان من الضروري أن تتخذ القرارات بأغلبية الثلثين[1]!وبخصوص الوضع القانوني للجزائر، قدمت للجمعية الوطنية الفرنسية سبعة مشاريع من طرف الأحزاب الفرنسية أو الجزائرية. وكما كتب المؤرخ شارل روبرت أجرون[2]، لم يكن أي منها اندماجيا ولم يكن أي منها يدعو للاستقلال أيضا (فالحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية كانت لا تعترف بسيادة البرلمان الفرنسي، وبالتالي امتنعت). فهناك ثلاثة مشاريع اقترحت أن يكون للجزائر وضع الدولة الشريكة، ومنها مشروع الحزب الشيوعي، الذي كان يؤكد أن "استقلال الجزائر سيؤدي إلى تقوية قواعد الإمبريالية". انسحب كل النواب الجزائريين كتلة واحدة بمن فيهم ///البني وي وي// من النقاش كي يعربوا عن إدانتهم لهذا " الوضع القانوني الممنوح".

ووصل بأحدهم، وهو بن الطيب- مع أنه كان مرشحا "إداريا" انتخب بنسبة 90 في المائة من الناخبين المسجلين وحتى غير المسجلين كما هو سار إلى يومنا هذا- أن استبق فعلة خروتشوف في الأمم المتحدة، ونزع حذاءه الطري (خفه) محاولا ضرب رأس أحد النواب الممثلين لكبار المستعمرين في الجزائر.

هكذا فضلت فرنسا استمرارية الوضع الاستعماري الممثل لكبار المعمرين الذين كانت لهم مراكز تترصد وتعارض كلية كل إصلاح. وكان عليها أن تأخذ في الحسبان هذه الأوساط القوية، التي كان لها دور الحكم في الائتلافات البرلمانية والحكومية الفرنسية الهشة. حتى اعتدال رجل مثل فرحات عباس كان غير مقبول لهؤلاء، الذين كانوا يعتبرون سياسة القوة هي الوحيدة التي تجنبهم الاختيار بين" الحقيبة و النعش".

بالنسبة لهم، فالمصلحة الوحيدة المتمثلة في وجود الاتحادالديمقراطي للبيان الجزائري هو أن يكون منافسا مقبولا للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية.

---

[1] - و هذا يعني أن يمنع على المسلمين إمكانية تمرير- بمفردهم- قرارات تهم حوالي 8 ملايين من إخوانهم.

[2] - تاريخ الجزائر المعاصرة – سلسلة- « Que sais-je » الطبعة السابعة - باريس 1980 – ص94.

ومع كل هذا، كان من المؤكد أن التيار الاستقلالي هو الغالب، وأن الجزائر كانت تقدم صورة كلاسيكية لوضعية ثورية لا يمكن لمحاولات الكبح القانوني، ولا الاغراءات الانتخابية، أن توقفه أو تصده. فالتعنت الفرنسي كان يؤكد صحة مواقف الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. وكان له الحق في أن يخرج من البرلمان الفرنسي، قصر البوربون ، صافقا الباب وراءه، لأن هذا الأخير كان قد أوصد الباب أمام التعبير الثابت عن التطلعات الجزائرية.

كان من الأهمية بمكان- الآن أكثر من أي وقت مضى- أن يتم العمل على تجسيد التصور الاستراتيجي الذي رسم ملامحه الأولى مؤتمر فبراير.

كان هناك على بعض الأصعدة، نشاط حثيث، بلوزداد الذي ازدادت صحته تدهورا ، واصل عملية البحث عن إطارات للمنظمة الخاصة. وكنت من جانبي أقوم بنفس البحث والترصد على مستوى الجزائر والقبائل التي كنت أعود إليها لفترات قصيرة.

أما بودا فكانت تتملكه فكرة واحدة: كيف يبني جهازه السري بمناضلين أصبحوا غير سريين. بالمقابل أصبح حضور الدكتور الامين وبوقادوم يتناقص أكثر فأكثر لاجتماعات المكتب السياسي. فالمصالحة مع جماعة الدوزيام (القصبة) لم تزل بذور التفرقة نهائيا. آثر الدكتور الامين الانزواء، متفاديا المواجهات الفكرية التي كان يظن أنها سرعان ما تتحول إلى محاكمات حول النوايا. وسأكتفي بإعطاء مثل عن ذلك. ففي إطار مهمته كمسؤول عن العلاقات الخارجية كان الامين قد قام بزيارة كل من تونس والمغرب، وقدم عرضا حول تلك الزيارة في اجتماع للمكتب السياسي حضرته شخصيا. أعلمنا الأمين أن المهدي بن بركة- الذي كان في ذلك الوقت المبكر مسؤولا مهما في "الاستقلال"- يطلب تفويضا من حزب الشعب وفرعه الشرعي (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية) حتى يقوم بمفاوضات باسم المغرب الكبير مع الأمريكيين، الذين كانوا ينوون بناء قواعد عسكرية جوية استراتيجية في المغرب الأقصى. بالرغم أن الولايات المتحدة كانت تحظى بموافقة فرنسا، إلا أنها كانت حريصة على أن "تضمن" جانب

الشعوب المغاربية، نظرا للمناخ السياسي المرتبط بهذه القواعد[1]. وتهاطلت الأسئلة والاستفسارات حول تلك القضية و أسبابها وغايتها. ولكن الدكتور الأمين دباغين رفض أن يقول أكثر مما قاله، ولدى خروجنا من الاجتماع، قال لي أنه كان لديه إحساس بأنه في قفص الاتهام. وعندما شرحت له أن المسألة ليست ضده شخصيا، وأن الأمر يعود إلى أنه لا يمكن لنا أن نلتزم بشيء ونحن مغمضي العينين، قاطعني قائلا:"أنت لا تفقه شيئا، إرجع إلى زاويتك"!

أكان الفهم هو المطلوب آنذاك، أم بصورة أبسط أن نصغي، رغم نشوة الشرعية، إلى التحذيرات الدرامية التي كانت تتوالى؟ وكانت للأسف جد كثيرة: الحرب في الهند الصينية، ومجازر مدغشقر التي تلت محاولة التمرد في نهاية مارس 1947 ؛ وفي تونس، حيث نتج عن تجربة كعك[2] إصلاحات وهمية، وقمع للإضرابات العمالية التي أدت إلى مقتل عدد كبيرمن العمال وجرح المئات منهم في صفاقس (جويلية 1947). كما تسبب تدخل للشرطة ضد مظاهرة نظمها حزب الاستقلال بالدار البيضاء (فبراير 1947) في سقوط قتلى وعدد كبير من الجرحى.

وكان الهدوء الذي تعرفه الجزائر نتاج نظرة مشتركة بين الحكومة العامة في الجزائر والمقيمين العامين في تونس والمغرب؛ إذ كانوا يرون أنه يجب تفادي إضفاء طابع مغاربي شامل لعمليات القمع، لأن ذلك كان سيعطي طابعا مغاربيا لحركة التحرر. وكان الهدوء هدوءا بالنسبة لكثير من قادتنا، الذين قضوا حياتهم في السجون والمحتشدات، أما الآن فالفكرة الوحيدة التي كانت تشغل البال هي أن نربح الانتخابات. وكما نعرف، كان الانتصار ساحقا. وسأسمح لنفسي برواية مساهمتي من باب الصدفة في الحملة الانتخابية. ففي الجزائر كما في الأماكن الأخرى، كانت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية تصارع ضد ائتلاف مشكل من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والحزب الشيوعي وجمعية العلماء ومستقلين. ولدى مروري في الترام- بقرب (مونوبري) حي بلكور- شاهدت تجمعا شعبيا ضخما بدأ يتحول إلى عراك. ودفعني الفضول إلى النزول من الترام للاستفسار من مجموعة من المناضلين

[1]- كان يقال ودون دليل أن الرئيس الأمريكي روزفلت شجع خلال مؤتمر أنفا بالمغرب محمد الخامس على المطالبة بالاستقلال ان لم يكن قد وعده به.

[2]- رجل ابتدعته الإقامة العامة ونودي في جويلية 47 لترؤس حكومة عميلة .

المحليين، ومنهم الأخضر رباح[1] صاحب مقهى صغير في ممر التوت، وحلاب بشارع سيرفانتس.

وكان أصحاب التحالف المناهض لحزب الشعب (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية)- الذي كان يرأسه مستقل هو الأستاذ زيدي- في وضعية صعبة حيث كانت تتعالى في وجوههم الأصوات والصفير. كما كانت المنصة تتلقى وابلا من الطماطم. وكان الجومكهربا إلى درجة أنه أصبح يخشى على سلامة الخطباء، الذين كانوا يثيرون التنديد والغضب بأفكارهم "الإصلاحية"، وبتلك التركيبة غير الطبيعية لذلك التحالف.

كانت روح التسامح واحترام آداب النقاش تحتل الدرك الأسفل خلال تلك المنافسة الديمقراطية. وكنت دوما أرفض الممارسات الفاشية أو شبه الفاشية.

قفزت إلى المنصة. ولم يصعب علي استرجاع الهدوء، لأن كثيرا من المناضلين تعرفوا علي. أخذت الميكروفون وطلبت من الحاضرين أن يستمعوا لهؤلاء قبل أن يحكموا عليهم، ثم استدرت نحو المنظمين، وسألت إن كان الاجتماع مفتوحا للنقاش والأفكار المضادة ؟ قيل لي نعم. فقلت أتقبلون أن آخذ فيما بعد الكلمة؟ قيل لي نعم. وبعد جو من الصمت شديد البرودة، الذي رافق التدخلات الأربع لقائمة التحالف، كان من السهل علي أن أثير حماسا فياضا[2]. ولا زال أصدقائي في بلكور

يذكرونني بهذه الحادثة. وعلمت فيما بعد أن الأسطورة أضافت أنني حملت كمنتصر على أكتاف المتجمهرين[3].

---

[1]- هذا الإطار الشعبي الديناميكي من بلكور ناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري منذ الصغر. انتخب في المجلس البلدي للجزائر في 47 وسيكون من بين 32 مرشحا للمجلس الجزائري المعتقلين في 48 . كان أحد العناصر النشطة في الحزب وسيكون كذلك في جبهة التحرير وهو الذي سمح لعبان رمضان موحد جبهة التحرير الوطني بالاتصال مع كل التشكيلات والشخصيات السياسية . اعتقل في 57 وعذب إلى درجة إعاقة بلغت 95 في المائة .

[2]- يجب القول انه في مثل هذا النوع من المنافسات السياسية لم يكن منافسو حزب الشعب ليقدموا له الهدايا لا الحزب الشيوعي بباب الوادي الحي الشعبي الأوروبي أين كان يشعر فيه بالقوة . ولا الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بسطيف معقل فرحات عباس أين كان يملك صيدلية .

[3]- في أكتوبر 1964 وهو يأخذني من مقرات الأمن العسكري ليحولني إلى دائرته القضائية في المباني القديمة لعيادة الأمراض العقلية بالسيدة الإفريقية بالجزائر قل لي مدير الأمن القضائي حماداش بنوع من الحنين: "اذكر التجمع الشعبي أمام المونوبري عام 47 . انا من حملك على كتفيه مع الرفاق" . وقلت له بأنني اذكر المهرجان ولكن الذي تتكلم عنه لم يحدث . فأنا لا احب هذا النوع من التظاهرات وكان اهتمامي الأكبر هو ان افلت من الرقابة "السرية" التي كانت تحيطني بها

أكتوبر 1947: بداية الانتخابات البلدية في معظم المدن، بحيث لا يسع الإدارة أن تزوّر بسهولة، في كل من الجزائر والبليدة وعنابة ووهران وسكيكدة والأصنام ومستغانم وبسكرة. وفي معظم البلديات حصلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على كل المقاعد في صف "الكولاج" الثاني. وأحدث هذا النجاح الكاسح تحولا حاسما في التطور السياسي والهيكلي للحزب، كما كان منعطفا في السياسة الاستعمارية التي ازدادت تشددا.

وواجهت الحزب مشكلة تسيير ضخمة لم يكن مستعدا لها، إذ صار يمتلك المئات من المنتخبين. ولم تعد المسألة عبارة عن مشاركة انتخابية فقط، بل أصبحت مسألة مشاركة في الإدارة البلدية، وإن كان وزنها ضعيفا نتيجة للحصة أو الكوتا المحددة للمسلمين، التي لا تتجاوز خمسي المقاعد.

أصبح أغلب أعضاء المكتب السياسي، المنتمين إلى مجموعة "الدوزيام"، منتخبين في المجلس البلدي للجزائر. فالحدث أصبح يتجاوز الأمور الرمزية. حتى السلطات الاستعمارية تفاجأت كلية أمام المد القوي للحركة الوطنية الجزائرية. وشحن المعمرون الكبار كل بطارياتهم، حتى يحرضوا على انتهاج سياسة حكومية متشددة[1].

كان من المحتمل أن نفاجأ بإجراءات قمعية دون أن تكون لنا القدرة على "الدفاع" عن النفس، لأن المنظمة الخاصة كانت لم تزل في المرحلة الجنينية آنذاك إن لم أقل في صنف النوايا. كان المسؤولون يتوافدون على مصالي الحاج ليذكرونه بالتوصيات "الثورية"، التي صادق عليها مؤتمر فبراير، وكانوا يجدونه غير مكترث بهذه المسائل بطريقة غريبة، وكأنه في حالة قصور أمام التحليل الموضوعي للأحداث، منذ أن سلك الحزب طريق الشرعية.

الشرطة . ورد معترفا: "هذا صحيح . جاء الواشون يطلبون مني اسم هذا الرجل صاحب المعطف الكندي والنظارات السوداء.

[1] ـ وتحصلت بصفة سريعة على نتائج "إيجابية" من وجهة نظر المعمرين الكبار. فقد أجلت انتخابات المجلس الجزائري التي نصت عليها تدابير تطبيق القانون الخاص بالجزائر من شهر جانفي إلى بداية افريل. كما حصلت تنحية الحاكم العام "ايف شاتينيو" الذي خلفه في 11 فبراير 1948 النائب الاشتراكي الألزاسي الأصل ، إدموند نايجلان. وكان قد أظهر ترمته "الوطني" حيل المطالب الجهوية وحتى المطالبة باللامركزية التي رفعها الألزاسيون.

غير أن هناك حدثا أجبر قادتنا على الخروج من حالة الخمول، وتمثل في الإضرابات التي شنتها في فرنسا المركزية العامة للعمال والحزب الشيوعي الفرنسي، والتي بلغت أوجها بإضراب عام في شهر نوفمبر. أحدث مزغنة والنواب الآخرون الراجعون من باريس حالة من الاستنفار لدى القيادة، عندما أطلعوها على مشروع إنشاء مجلس مركزي للإضراب، كانوا يرون فيه الخطوة الأولى لتحكم الحزب الشيوعي في السلطة.

كنت لا أتفق تماما مع هذا التحليل، خاصة فيما يتعلق بالأهداف التي كان يسعى إليها الحزب الشيوعي الفرنسي. ففرنسا ليست تشيكوسلوفاكيا، وتوراز- الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي- لن يدخل أبدا في مغامرة شبيهة بالتي قادها الجنرال ماركوس في اليونان. ولكن مادام الخوف "مستشارا حكيما"، فمن الأحسن تركه يأتي بمفعوله.

والنتيجة الملموسة من ذلك هي أن المكتب السياسي طلب من "لجنة الأربعة" (الدكتور الأمين، بوقادوم، بلوزداد وآيت أحمد) أن تجتمع وتقدم اقتراحات بخصوص هيكلة الجهاز شبه العسكري. ونتج عنها اقتراحان: تعييني كمسؤول على المنظمة الخاصة خلفا لبلوزداد[1]، الذي ازداد مرضه سوءا، وتشكيل قيادة أركان هذا التنظيم بالغ السرية.

تشكيلة قيادة الأركان التي اقترحناها كانت نتاجا لعمليات الرصد التي قام بها كل منا، ونتيجة لمشاوراتنا. وكانت نواحينا الخمس تتطابق مع الدوائر الإقليمية للحزب. وكان من الضروري أن نجد خمسة مسؤولين يستحب أن يتوفر فيهم نوع من الكفاءات العسكرية. اقترح بلوزداد محمد بوضياف على رأس المنطقة القسنطينية؛ وكان قد أدى خدمته العسكرية أيام السلم في سلاح المدفعية. واقترح محمد ماروك على منطقة الجزائر الذي سبق أن قدمه له شرشالي، وكانت له رتبة صغيرة في الجيش الفرنسي. أما على مستوى الجزائر المدينة، استقر رأينا أنا وبلوزداد على الجيلالي الرقيمي، الذي وإن لم تكن له خبرة عسكرية فهو يتمتع بمستوى ثقافي يسمح له بالتكوّن السريع. واقترحت عمار ولد حمودة على رأس منطقة القبائل؛ وكان قد قضى سنتين في الخدمة العسكرية. كما اقترح الدكتور الامين دباغين أحمد بن بلة

[1]- كنا ننوي- من جملة عدة احتمالات- أن نجبر بلوزداد على ملازمة الفراش لكي يمتثل للعلاج وأن نرسله إلى مصح لمعالجة السل في الجزائر أو في فرنسا.

مسؤولا للمنطقة الوهرانية؛ وقد عرّفه به خلال زيارته الأخيرة للمغرب، محمد كبير مسؤول الحزب في مغنية. وكان بن بلة قد شارك في الحرب العالمية مع الطابور المغربي، وخرج منها بأوسمة وبرتبة مساعد.

ومع أنه كان منتخبا بلديا مستقلا في مسقط رأسه مغنية، فقد تعاطف مع حزب الشعب وانخرط في الفرع المحلي. وتقرر أيضا أن يكون جيلالي بلحاج مدربا عسكريا؛ وكان قد تخرج برتبة ملازم من مدرسة الضباط في شرشال، وكان يدعمه بحرارة شرشالي.

صادق المكتب السياسي في نهاية أكتوبر على اقتراحينا الاثنين، فيما يخص تعيين مسؤول المنظمة الخاصة وتشكيل قيادة الأركان. وحددت مع بلوزداد تاريخ أول اجتماع لهيئة أركان المنظمة الخاصة، بهدف تعرف الأعضاء على بعضهم بعضا: يوم 13 نوفمبر 1947.

6
المنظمة الخاصة

منذ فبراير 1947، لم يعد لي مكان أرتبط به أو أرسو فيه. كنت كثير التردد على القبائل[1]، ولكن والدايّ لم يعودا يسكنان هناك. كان السيد دومونت قد أوقف أبي عن العمل لأنه لم يقم بتسيير الانتخابات على الطريقة "الإدارية". كما رفض والدي مرتين تباعا الالتحاق بالوظائف التي تم تحويله إليها. لماذا إذن قبل أخيرا أن يصبح قائد دوار "أعمال" بالقرب من الأخضرية، خاصة وأن سكانها ناطقون بالعربية، وهي اللغة التي كان يفهمها، ولكنه لا يتكلمها. أعرف أن أوصديق وبناي حثاه على ذلك كما دفع أيضا من طرف الطاهر لعجوزي مسؤول حزب الشعب بالأخضرية. ومفاد هذه الضغوط أن سكان دوار "أعمال" تحولوا نحو الصف الوطني، وكانوا يخشون أن يفرض عليهم موظف مفرط الحماس لخدمة الإدارة الاستعمارية.

أصبح والدي وإخوتي وأخواتي يسكنون الآن على مسافة 13 كيلومترا شمال الأخضرية، بالقرب من محطة القطار ببني عمران، على الخط الرابط بين الجزائر وقسنطينة. سكنوا بيتا يحتوي على ثلاث غرف وباحة واسعة، وهذا ما مثل لهم رفاهية غير معهودة عندهم .

عشت حياة الرحالة، إذ لم يعد لي مبيت مستقر في الجزائر العاصمة. ولم أكن أكترث لذلك، خاصة أن نفسي كانت تنطوي على بعض الرهبة من العيش بين أربعة جدران، داخل هذه الخلية الضخمة. وحدث كثيرا أن نمت على مقعد خشبي، بعد أن يغلق الأخضر رباح مقهاه في ممر التوت ببلكور. لم أكن أعرف الأرق أبدا، بل كنت في حاجة دائمة للنوم. وبالتالي، فلم تشكل صلابة ذلك "السرير" عائقا أمام ذلك. لكن الاستيقاظ المبكر كان صعبا، غير أني كنت أجد تعويضا بعد الضجيج الذي يحدثه فتح الستار الحديدي للمقهى معلنا عن حضور قهوة بالحليب والفطائر الهلالية الساخنة. وكان التعويض أيضا في ذلك الجو

---

[1] - كانت وسائل النقل متوفرة بين الجزائر والقبائل. وكانت الحافلتان "سيدة بني واصيف" و "نمر الجرجرة" ما تزالان تواصلان حربهما التنافسية وإن أصيبتا بالشيخوخة. كما كانت أيضا الشاحنة الكبيرة لعمي عاشور وكثير من سيارات الأجرة والسيارات الخاصة. وكان لي دوما مكان بفضل صفتي مرابط. لأن أصحاب الحافلات ممن يقلونني يعتقدون ان وجود مرابط بينهم فأل خير .

المليء بالضجيج و الحيوية، الذي يرافق فتح الدكاكين وسوق الخضر المركزي "ليهال".

وفي بلكور، كانت لي مراسي أخرى. ولا يمكن أن أنسى ذلك الاستقبال الحار لسكان حي" لعقيبة" الشعبي. كان الفقراء أكثر إيثارا، وكانوا يتنافسون على الحظوة باستضافتي للغداء. كانت أزمة السكن رهيبة، حتى في ذلك الوقت. ولم أكن أتصور كيف يمكن لعائلة من عشرة أفراد- وبها أزواج- أن تعيش في غرفة واحدة. كانوا يعيدون بناء مجالهم الخصوصي داخل فضاء الغرفة بستائر من نسيج القنب أو قصب البامبو. ولما رأيت بودا وأبناءه الثلاثة يخرجون من تحت السرير، تيقنت أن روح الابتكار لا حدود لها. ويسمح وضع السرير المرتفع أن ترتب غرفة للأولاد تحته. فأمام إرادة البقاء والإحساس بالواجب، يصنع هؤلاء البسطاء المعجزات.

وكثيرا ما كنت أحمل نفسي إلى عيادة صولال، حيث يعمل مجموعة من أبناء العمومة في سن متقارب من قرية إيفسكريّن[1] في القبائل البحرية شمال عزازقة. وكانوا كلهم مناضلين في الحزب، ويدفعون اشتراكاتهم في القبائل. وبفضل روحهم التضامنية، تمكن سكان إيفسكرين من المحافظة على تقاليدهم الثقافية وتطويرها. تابع كل أبنائهم دروس المدرسة القرآنية التي بنوها بأنفسهم، في نفس الوقت الذي كانوا يزاولون فيه دروس المدرسة الفرنسية. وبمشاركة كل واحد حسب استطاعته مالا أو جهدا، أكثر أبناء هذه القرية من بناء الأعين والحمامات العمومية وشبكات الري. وأخرجوا من أرض حجرية بساتين مثمرة.

وفي مرقدهم الذي كان عمليا وتقشفيا كأنه ملجأ ضد الأسلحة النووية، كان لي سرير ومنضدة وحتى درجا أضع فيه ملابسي وكتبي التي لا تفارقني. ولا يلفت الانتباه صحن إضافي على طاولة الطعام .

وكان شباب عيادة صولال أذكياء فطنين إلى درجة أنهم جلبوا إلى قضيتنا صغار عمال العيادة كما تمكنوا من استمالة الممرضين[2] أيضا. وكانوا لا يخفون قناعاتهم السياسية أمام البروفيسور دوبوشي، الجراح الفذ الذي كان يسير العيادة. عندما تعرفت على ذلك الرجل الليبرالي القلب والفكر، قال لي أنه لا يفهم كيف يتمكن بعض الأوروبيين من أن

---

[1]- مسقط رأس قائد وطني كبير ، استشهد مبكرا في الكفاح المسلح وهو ديدوش مراد (18 جانفي 1955).

[2]- وهكذا تمكنوا من تجنيد التومي أحد الإطارات الشبه طبية الجزائرية القليلة الذي وجهته نحو المنظمة الخاصة حيث سيصبح أحد مسئوليها في حي المرادية .

يعيشوا بهذا القدر من العمى، أمام هذه الوضعية و أمام تطلعات الجماهير المسلمة.

في بداية صائفة 1947، أتيت ببلعيد آيت مدري إلى البروفيسور دوبوشي ليفحصه. كان رفيقي يشكو منذ الصبا من آلام رهيبة في رجليه عندما يمشي أكثر قليلا من المعتاد، ولم يستشر أبدا طبيبا حتى عندما كان في الثانوية. وتفاجأ لما بدأ البروفيسور دوبوشي يفحصه، فقد ظن أنه جاء لمجرد التعارف. أسرّ لي الدكتور بأنه مصاب بسل العظام، وأنه وصل إلى حالة حرجة، وأنه يجب الشروع دون انتظار في عمليات كحت. طلبت منه أن لا يقول شيئا لآيت مدري، وأن يطلب منه الرجوع مرة أخرى لإجراء فحوص إضافية. وعندما "يقبض عليه"، يفهمه وقتها بضرورة القيام بالعملية.

ولأنني كنت أنتظر غضب المريض حين يفيق من البنج، فقد اصطحبت عددا من الرفاق. وبالفعل عندما استيقظ بدأ في شتمي: أيها الراعي، ظننا أنه يعايرني بأقبح الشتائم؛ ثم قال لي فجأة: "اذهب لحراسة البعوض"؛ مثيرا ضحكا جماعيا. ولو كان يعلم أنه سيفرض عليه الخلود للراحة الكاملة والبقاء دون نشاط لمدة شهرين أو ثلاثة ، لما وافق على العملية. ولكنه كان أمام الأمر الواقع. وذهب إلى أبي الذي كان القائد الجديد لدوار "أعمال"[1] ليقضي فترة الجبص والعكاز.

كل هؤلاء الشباب لعيادة صولال سيسقطون في ميدان الشرف فيما بعد، في هذه القبائل البحرية حيث نشأوا وترعرعوا، ووصل ثلاثة منهم إلى رتبة نقيب في جيش التحرير، وخمسة منهم إلى رتبة ملازم أول؛ لكنهم في ضمير الفلاحات والفلاحين وصلوا إلى أعلى المراتب. مرتبة المحبة. ففي منطقتهم بالولاية الثالثة، لم تحدث أية تصفية تحت قيادتهم، ومنعوا كل أشكال الضغوط على القرويين، وكانوا يعملون كل ما هو ممكن لتقليص أو تفادي احتمالات الانتقام من المواطنين. وما أزال أرى ثلاثة منهم على الخصوص، سي الصادق الذي كان أبويا قليلا تجاه المجموعة لأنه كان يكبرهم قليلا، وسي الصديق الذي كان محركا للجماعة طافحا بالحيوية وروح الفكاهة، وسي الشريف الأصغر الممتلئ قليلا الذي كان أكثرهم حرصا على تطبيق الشعائر الدينية. وكان سي الصادق يستفزه قائلا له: "العيب فيك ليس لأنك أحول، بل لأنك كسول.

---

[1] - أول عمل سياسي لأبي بعد أن تقلد وظائفه أنه توجه إلى كل قرية وجمع أعيانها وحلفهم على المصحف أن لا يفشوا أسرار القرية أو الدوار مهما كان.

أن تأخذ كتابا ونظارات يبدو لك عبئا كبيرا، ولكنك بعين واحدة ترى السجادة". وكان السي الصديق يتدخل لحمايته: "أتركه إنه صغير والمستقبل أمامه. وكلما حافظ على رأسه فارغا اليوم كان له مكان لملئه غدا بالمعلومات".

وفي الواقع كانوا جميعا شغوفين إلى أقصى الحدود بالقراءة في العربية والفرنسية. في تلك المشتلة للإطارات الشعبية، كان إثراء الفكر وتحضير الثورة يمضيان سويا. لقد كانوا يمثلون ثقافة شعبية في طور التكوين[1].

في يوم من تلك الصائفة 1947، في وقت كنت فيه ضيفا على عيادة صولال، كنت كثيرا ما أتردد على المطعم الصغيرلخليل، الذي كان يشكل أيضا صندوق بريدي. وجدت رسالة مفادها أن كل العائلة- أي أمي وأختي الصغيرة ورضيع في عامه الأول- وصلوا إلى الجزائر العاصمة وقد أصيبوا بنوع خطير من داء التيفوئيد. قرر الطاهر أوصديق، أخ عمر، الذي يشتغل معلما بالأخضرية، أن يرسلهم بالسيارة. وكانت الرسالة تقول أنهم موجودون في فندق كولبيرت في شارع الدباغين. وترك لي الطاهر رسائل في كل الأماكن التي يفترض أن يكون لها اتصال بي؛ وكانت الرسائل تشير إلى ضرورة إخطار طبيب. ولم أجد ما أفعله أفضل من التوجه إلى أقرب محافظة للشرطة، أي محافظة الدائرة الثالثة، كي أخطر الطبيب الذي يقوم بالمداومة. وكان تدخله السريع سببا في إنقاذ أمي من الموت.

وفي اليوم التالي تقدمت إلى النزل وكلي قلق. وقابلتني مديرة النزل بلطف كبير وطمأنتني قائلة أن عائلة آيت أحمد موجودة في الطابق العلوي. بدأت في الصعود نحوهم، لكن أخي الأصغر أمقران- الذي سمعني أتكلم مع المديرة- نزل مهرولا نحوي وهو يصيح: "إذهب بسرعة. الشرطة جاءت إلى هنا وسألتنا عنك". هيأت مسدسي 7,65 مم، ونزلت الدرج بسرعة وخرجت. رأيت مصطفى "التروازيام"، أحد مفتشي الشرطة القضائية يمشي بخطى هادئة نحو شارع إزلي /العربي بن مهيدي /.

أخذت الاتجاه المعاكس، وأنا أحاول أن ألزم نفسي بالمشي بخطى عادية. والتقيت بعمر حداد الذي خاطبني بالقبائلية: "إننا نبحث عنك في

[1]- لا يمكن أن نتفهم الذي حصل للجزائر بعد الاستقلال لو لم نضع صوب أعيننا أن أحسن أبنائها قد قتلوا أثناء الحرب. فبالإضافة إلى الآلاف من الإطارات الصغيرة والمتوسطة التي سقطت تحت القمع الاستعماري وقتل العشرات أيضا في عمليات تصفية الحسابات.

كل مكان. من أين أتيت؟
"من الفندق، كنت أريد رؤية عائلتي.
ولكن من أين مررت ؟
عن طريق السلم .
أعلمني أن مناضلين متواجدين في كل الأمكنة يرقبون مجيئي، حتى لا أدخل النزل وأن المكان الوحيد الذي لا يوجد فيه مناضل حارس هو مدخل الفندق. واعلي بناي الذي كان يعرف أن عائلتي نزلت هناك لاحظ وهو في الترام مجموعة من الشرطة يعرفهم متوقفين قبالة الفندق. وقام على الفور بإخطار عمر حداد[1].

توفيت أختي في اليوم التالي. رافقها موكب من مناضلي بلكور والأصدقاء و المعارف إلى مثواها الأخير في مقبرة القطار. وكانت هذه المناسبة فرصة لإعادة الروابط بين عائلتي وعائلة تودرت التي صاهرتها فيما بعد، وهي من بني يني، من قرية تاكا المجاورة لمسقط رأسنا. كانوا يحترفون صناعة المجوهرات، وجاءوا إلى العاصمة خلال الحرب العالمية، ككثير من الآخرين الذين كانوا لا يتمكنون من تأمين عيشهم في بلدتهم.
وفضلا عن صناعة وبيع المجوهرات، وهو عمل تقليدي عند سكان بني يني، أضافوا مهنة تصليح الساعات. كانوا يملكون دكانا صغيرا لبيع المجوهرات في شارع الديوان (عبد القادر عوة) قبالة الكاتدرائية وأيضا مقهى النهضة القريب الذي كانوا يسيرونه بالاشتراك مع آخرين.
استقبلوا أهلي في بيتهم بعد خروجهم من المستشفى، حيث كانوا نقلوا في الأخير. ولم أتعرف شخصيا إليهم إلا في وقت لاحق، وفي مناسبة أليمة أخرى تمثلت في وفاة أصغر أخوتي العربي في 11 نوفمبر 1947.

كان عائدا من الأخضرية راجلا مع أبي ومجموعة من الأعيان الذين كانوا يمشون ويتكلمون بصوت عال، كما يفعل الفلاحون عندما يتبادلون المعلومات والتعليقات وفي أحد المنعرجات دهسته مقطورة شاحنة كبيرة هرب صاحبها. وعندما اجتاز أبي المنعرج ورأى جسد ابنه ملقى في الطريق، همّ ليوقفه ويؤنبه لأنه كان قد أوصاه بالحذر لتوه. واحتفظ أبي طويلا بإحساس بالذنب لأنه كان ينوي أن يعطيه لكمة ساخنة.

---

[1] عمر حداد الذي كما ذكرت كان يلقب بالزيويلو "العيون الزرق" شارك سنة 45 في العملية الفاشلة التي قام بها زروال ضد البشاغا آيت علي. وبعد ذلك أصبح خبازا متمرنا في قلب القصبة.

كان العربي في الثالثة عشرة من عمره، ولم يكن ينتمي للصنف الأشقر ولا للصنف الأسمر من العشيرة. كان أصهبا وكان لقب "النملة الحمراء" مناسبا تماما لشكله. وكان شابا في غاية الاجتهاد.

تلقيت الخبر وأنا في اجتماع للمكتب السياسي. وانتقلت لتوي إلى باب الوادي، إلى مقهى موال لحزب الشعب، حيث كنت آمل لقاء بناي وهناك التقيت أيضا بعمر حداد. حملنا زكال في سيارة الأجرة، أنا وبناي وحداد وعمر أوصديق، ووصلنا بعد خمس دقائق من انطلاق الشاحنة الجنائزية التي نقلت الجثمان إلى جبالنا. لم يتمكن أبي من شدة الألم أن يساير الموكب القروي الجنائزي، الذي حمل الفقيد الصغير على مسافة كيلومترين في دروب حجرية وعرة. هب إليه بناي ليواسيه ويساعده. كانا عملاقين يشد الواحد منهما الآخر، يترنحان بين الحجر تحت نور القمر الذي كان يخترقه عواء بني آوى الأليف. عملاقان لا حول لهما أمام مشيئة القدر. كان أبي يردد في ألم: "مع أنني لم أفعل الشر أبدا، أنا لا أستحق ما حدث لي".

كنت أفضل لو تتم مراسيم الدفن في جو عائلي حميم. غير أنه كان لا يمكن تفادي تحول الجنازة إلى تظاهرة سياسية. كان لأخي الامتياز في رفع العلم الجزائري خلال جنازته، وتأدية النشيد الوطني والأنشودة التي نظمها إيدير آيت عمران: "انهض يا ابن الأمازيغ".

عدت إلى الجزائر مضطرا في اليوم التالي، لأنني كنت أنا وبلوزداد قد حددنا تاريخ 13 نوفمبر لتنصيب هيئة أركان المنظمة السرية. وبقي رفاقي الثلاثة مع عائلتي مما خفف نوعا ما من حزنهم لذهابي السريع. وبما أن "طاكسي الوطن" كان قد عاد في يومه، كان علي أن أستقل على أطراف مدينة ميشلي طاكسي جماعيا كان ممتلئا.
وكانت تلك الحمولة الزائدة سببا في عملية تفتيش قام بها الدرك على مستوى مدينة الثنية، على بعد خمسين كيلومترا من الجزائر. لم يكن خوفي مبررا، لأن هاجس الدرك كان موجها نحو محاربة النشطين في السوق السوداء. فكرت بألم: " لماذا لا يحاربون السائقين المتهورين". كنا آنذاك غير بعيدين عن المكان الذي دهس فيه أخي.

أصبح أبي بعد هذا المصاب يتردد أكثر على مدينة الجزائر. وكان يصحب عادة في زياراته إحدى أخواتي[1]. كان يأخذ البنت الصغيرة من يدها ويتجه نحو مقهى أو حلاقة الأخضر رباح، ليقضي طول النهار في الحديث مع محند عبة مناضل قديم في نجم شمال أفريقيا وفضلا عن ذلك كان من عائلة محند عبة آخر كان صديقا حميما لجدي المرابط[2]. كانت الأوقات التي يقضيها مع أصدقائه ومع الأهل تريحه وتعيد له شجاعته. وكان الناس يغتنمون فرصة وجوده ليطلبوا منه التدخل لحل النزاعات العائلية أو التجارية. وكان يقوم بهذه الوظيفة التقليدية بجدية كبيرة وتفان، وبخشية أن لا يكون منصفا. فالراحة النفسية التي لم يكن يجدها الرجل الموظف كان يوفرها رجل التقاليد. وهكذا تمكن من فض نزاع بين عائلة تودرت ومالك محل المجوهرات التي كانت تؤجره في شارع الديوان. كما تدخل فيما بعد لحل قضية شراكة شائكة كانت لها مع أشخاص من القبائل الصغرى.

كانت عائلة تودرت تستقبل كثيرا أهلي. وتعرفت عليهم بدوري، كما وضعت حرارة ضيافتهم حدا لحياة التجوال التي كنت أحياها أشهرا قليلة بعد ذلك اللقاء؛ بوضعهم تحت تصرفي غرفة مستقلة صغيرة، ولكنها تطل على أحد أجمل المناظر في الدنيا، منظر خليج الجزائر من حي السيدة الإفريقية المرتفع.

طاولة، وسرير، وكتبي وهدير الأمواج، وروائح البحر المنتشرة في ذلك الأفق الأزرق الممتد. كان طلوع الشمس حدثا مثيرا للابتهاج في كل مرة، وكأنها تطلع في كل مرة بطريقة مختلفة. وكانت مباهج المنظر تلتقي بأحلام القلب. كانت السفن المتعددة الألوان تتراقص على صفحة الماء عند موعد الفجر، وتوحد ضجيجها المتقطع ونداءاتها لتوقظ الجزائر البيضاء من سباتها. وكأن الشمس تعطلت حركتها بفعل الأمواج، والحياة كقبض التنفس الذي يخرج ببطء نحو باب الوادي، نحو تلك "البازيطا" التي تعرف إليها ألبيركامو وعبر عنها بحب فياض .

كيف يمكن لعالم ساحر كهذا أن يضم بين جنباته غابة إنسانية يكون فيها الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان، ليس من باب الضرورة، ولكن لمجرد النزعة نحو الجشع والسيطرة. كنت قد تراجعت بعيدا عن هذا النوع من

---

[1] - من دون أن تكون ملزمة بالمكوث في البيت لم تكن أمي ترافقه في هذه "الهربات" نحو العاصمة.
[2] - عاش محند عبة حوالي نصف قرن من بعده وبقي حتى وفاته محافظا على أشعاره وفلسفته.

الأسئلة. قد تكون هناك سببية مطلقة تتحكم في تناغم الكون، غير أن المجتمعات البشرية لها جدليتها الخاصة. فقوانين العيش في المجتمع ترتبط بالنضالات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تهدف إلى التفتح الشخصي، وإلى التطور المدني للإنسانية. يجب أن يكون هناك حب كبير في الحياة حتى ندركها في كمالها.

سمح لي توفر المأوى بالتمعن في نوعية الحياة. التي اخترت، وفي الأفكار التي كنت أريد الدفاع عنها. كما أصبح بإمكاني أخيرا لم شمل كتبي المفضلة، والدراسات والنصوص "الثورية" التي كنت جمعتها تحسبا لمسؤولياتي.

وابتداء من 13 نوفمبر 1947 ارتبطت تلك المسؤوليات- على وجه التحديد- بالمنظمة الخاصة التي تتكون قيادة أركانها من ثمانية أعضاء: ستة قادة مناطق، مدرب عسكري وقائد[1]. وهكذا وجدنا أنفسنا على رأس منظمة بالغة السرية لها مهمة التحضير للثورة، مع أنه لم تكن هناك تجربة ثورية، ولا حتى كفاءات سياسية خاصة. بالنسبة لعدد منا كان الاجتماع فرصة للتعارف.. فيما يخصني التقيت لأول مرة- خلال الاجتماع الافتتاحي- بماروك وبلحاج، أما بوضياف فكان لقاؤنا الأول قبل ذلك بليلة واحدة فقط[2]. ولسبب لا أتذكره، لم يحضر بن بلة في الجلسة الأولى، ولم نتعارف إلا في الجلسة الثانية لقيادة الأركان.

بعد كل هذا الزمن يبدو لي أننا تمكنا أن نعمل كفريق. فمع أنه كان هناك "قادة" على كل المستويات (جماعة، فرع، لواء، ناحية ومنطقة) فإننا لم ننشئ رتبا عسكرية. كان طبعي وتكويني رافضين للنزعة العسكرية وبالتالي عملت على أن يكون الانضباط واحترام التسلسل الوظيفي في حدوده الضرورية فقط . فالمراسيم الوحيدة تمثلت في التحية العسكرية المرفوقة بعبارة" للفدا" عند افتتاح الاجتماعات.

كانت قيادة أركان المنظمة الخاصة- حتى ديسمبر 1948، أي في المرحلة الأولى للمنظمة الخاصة. في نفس الوقت هيئة للتصور والتنفيذ[3].

---

[1]- قادة النواحي: محمد بوضياف وأحمد محساس (قسنطينة) جيلالي رقيمي (الجزائر الكبرى) محمد ماروك (مناطق الجزائر) عمار ولد حمودة (القبائل) أحمد بن بلة (المنطقة الوهرانية) .المدرب العسكري: جيلالي بلحاج . المسؤول عن التنظيم: أيت أحمد منذ استلام الصلاحيات من بلوزداد.

[2]- كان مناضلا دائما للحزب في برج بوعريريج وكان من "الخمسة" الذين تعرضوا للقرصنة الجوية في أكتوبر 1956

[3]- قررت اللجنة المركزية المجتمعة في ديسمبر 1948 الفصل بين الوظيفتين فاتحة بذلك المرحلة الثانية للمنظمة الخاصة.

ولكي يتم تحديد نوعية التكوين العسكري الذي سيعطى للمجندين في المنظمة الخاصة، كان يتطلب قبل ذلك تعريف طبيعة المهمة التي سيؤدونها. في الواقع، كان توجه التنظيم مرتبط بي وببلحاج، وكونه تخرج كملازم من مدرسة الطلبة الضباط بشرشال، لا يجعل منه بالضرورة "تقني" محنك.

فشرشال ليست مؤسسة ثورية، وهي تقدم تعليما كلاسيكيا خاصا بجيش نظامي عادي. ولم يكن له أيضا مستوى ولد حمودة الثقافي، ولا تكوين ماروك ومحساس السياسي، ولا مشاركة بن بلة في الحرب، و لا التجربة التنظيمية لبوضياف.

لكنه بالمقابل كان يتمتع بخصال أخرى، حيث كان متفتح العقل، يتميز بالدهاء والمهارة في نفس الوقت ومتنمس (نسبة إلى النمس) وذو مخيلة واسعة. لقد تحرر تماما من الصلابة والسلوكات النمطية المكتسبة في الجهاز العسكري، وأيضا السياسي. كان لرفاقه ذكاء الفهم، أما هو فكان له ذكاء الربط والمناورة.

بدأت وتيرة العمل تأخذ مداها ابتداء من ديسمبر، بعد أول اجتماع حضره كل أعضاء هيئة الأركان. عمل قادة النواحي على تشكيل تعدادهم باختيار المناضلين الأكثر وعودا. قام بلحاج بترحيل عائلته من عين الدفلى نحو الجزائر العاصمة، حيث سكنت في منزل صغير بالقرب من ساحة دانتون (ساحة ملياني بلحاج حاليا).

كنا نعمل بصورة مكثفة على صياغة منشور حول "التكوين العسكري"، أي الكتاب المرجعي القاعدي لأعضاء المنظمة الخاصة. ورغم إصرار ماروك[1] استبعدنا فكرة تحضير "مخطط أخضر"، أي مشروع انتفاضة. كانت تجربة القبائل الكارثية في ماي 1945 قد أوضحت بما فيه الكفاية أن فكرة الانتفاضة الجماهيرية لا تعدو أن تكون سوى وهم، في ظل انعدام نمو الفكر الوطني في الذهنيات والهياكل. وهذا ما جعل من قضية تكوين الإطارات المستقبليين للثورة الشعبية ضرورة مطلقة. وتلك كانت غاية المنظمة الخاصة.

---

[1]- دافع إلى درجة التعنت على فكرة "المخطط الأخضر" خلال اجتماعات ديسمبر وجانفي وأدى تعنته للفكرة أن اجبرني للمرة الأولى والأخيرة لان استخدم العمل السلطوي حيث نزعت منه الكلمة. وسيبقى المخطط الأخضر لمدة طويلة هاجسه الأوحد .

استبعدنا سلوك النهج الإرهابي، لأننا رأينا فيه طريقا مسدودة، نتيجته الوحيدة هي دفعه للقوة الاستعمارية إلى توسيع وتعميم دائرة القمع. ولم تبق سوى طريق واحدة، وهي حرب المقاومين، التي ستكون لها أشكالها الخاصة في المدن أو في الأرياف.

حملت كل وثائقي وأخذتها عند بلحاج. أولها كتاب "في الحرب" لكلاوس ويتز، الذي كان يلازمني دوما، وكان في حالة يرثى لها من كثرة تفحصه واستعماله. وفيها أيضا مقتطفات من كتب ماركس وأنغلز نشرها الحزب الشيوعي الفرنسي؛ وكتاب أمريكي نقدي وهجائي عن حرب العصابات حصلت عليه على سبيل الصدفة؛ كتاب قديم حول الانتفاضة الأيرلندية لأيام الفصح (باك) في عام 1916، وآخر حول فشل محاولة ثورة في الهند الصينية في الثلاثينيات، وما تزال ذاكرتي تحتفظ إلى اليوم فقط بموسيقى عنوانه: هونغ سونغ دونغ.

وكانت أيضا من ضمن الوثائق مجموعة من الجرائد والمجلات. وفضلا عن ذلك، كان أحمد مزغنة، وهو نائب عضو في لجنة الدفاع الوطني في البرلمان، يسلمني باستمرار كل الوثائق التي كان يتحصل عليها.

وكنت أقرأ بتمعن دقيق وشغف كبير محاضر النقاشات حول الميزانية العسكرية، التي كانت مؤشرا للاختيارات الإستراتيجية الكبرى[1]، والمحاضر الخاصة بالعمليات العسكرية في الهند الصينية.

كنا نريد للكتيب الذي قمنا بتحضيره أنا وبلحاج أن يكون واضحا وسهل القراءة. فاستبعدنا كل ما هو خطاب فائض أو خطاب نظري، فيما يخص استعمال السلاح والمتفجرات والمبارزة الفردية. ففضلا عن الأمور التقنية، أضيفت بعض المبادئ في تكتيك حرب العصابات: غلق طريق ، كمين وغارات.

وقررت تنظيم "ملتقى" للتفكير والتدريب والتكوين في نهاية جانفي 1948. فالنص الذي قمت بتحضيره مع بلحاج سيتم تقديمه للمناقشة، ولكنه مجرد نقطة من جدول أعمال مكثف للغاية. كان من الضروري تحديد الهياكل النهائية للمنظمة الخاصة، والكيفيات الدقيقة التي يتم على

---

[1] ـ كان يمكن استنباط ورصد الصعوبات والعوائق التي كانت تواجه الحركة التحررية في شبه الجزيرة الهند صينية من خلال المشاكل الاستراتيجية والتكتيكية التي كانت تطرح على الجيش الفرنسي المرسل إلى هناك.

أساسها تجنيد العناصر. دامت أشغالنا أسبوعا كاملا، وجرت في مدرسة خاصة للتعليم الديني بالقصبة. كانت الأشغال تبدأ مبكرا لتنتهي في أوقات متأخرة من الليل،لأنه كان يتحتم أن تحاط تحركاتنا ذهابا وإيابا بسرية تامة.

ولا أزال أذكر شابا مراهقا كان يتفانى في خدمتنا، دون أن يلفت الانتباه ويبدو لي أنه كان ياسف سعدي. بعد المحاضرات والنقاشات التي كانت تتم بمنهجية، كانت هناك مبادلات عميقة في وجهات النظر تسمح بتقريب الرجال وتثري الحوار.

انتهى الملتقى بدروس في الاستراتيجية والتكتيك. وكان على كل واحد أن يقوم بحل مشكل عسكري معين يطرح على قائد كتيبه أو قائد لواء. فكان عليه أن يقدم الحلول العسكرية التي يراها مناسبة، بينما يقدم الآخرون رأيهم في ذلك.

كان هذا الامتحان تمرينا جيدا للفكر وكان أيضا مرآة لتجربة كل واحد منا. كما كان يسمح لقادة النواحي أن يكتسبوا معارف ومعلومات تتجاوز ما هو مدون في المنشور الذي كان موجها للقواعد.

كيف تم استعمال " كتيب التدريب العسكري"؟

لقد قمنا بطباعته بأنفسنا في خمسين نسخة مرقمة، وكان من المفترض أن لا يسلم إلى أقل من قائد لواء. كان كل واحد مسؤولا عن النسخة التي يمتلكها، والتي يجب أن تحفظ في مكان آمن، وأن تحرق إن اقتضى الحال بدل أن تقع بين أيدي الشرطة.

أما عند الرتب الدنيا من التنظيم، فتتم إعادة كتابة الدروس بالتدريج في دفاتر شخصية، تحاط بنفس الاحتياطات الأمنية المشددة المذكورة سابقا.

حددت فترة التدريب العسكري بسنة، حيث تتم دراسة فصل كل شهر في تربصات (معسكرات) واجتماعات تقام مرة أو مرتين في الأسبوع. كانت فترات التربص التكويني المتسارع التي تأخذ أكثر الوقت تخص عموما المستويات العليا (قادة النواحي والجهات والألوية).

ووجه الجهد على الخصوص نحو التعليم العملي: دوريات في الهواء الطلق، في الغابات أو في أعالي الجبال. أما دراسة الأسلحة وكيفية استعمالها، فكانت تتم داخل الغرف. وحدث في بعض المرات أن جرت

في الخارج، عندما كنا نتمكن من نقل المسدسات والرشاشات والقنابل اليدوية[1] دون مخاطرة.

كانت المنظمة الخاصة في طور الولادة إذن، ولكن من كان يشكلها؟ فالتجنيد النهائي يتم عبر انتقاء مبني على معايير عديدة. أولها هو النضال والوفاء للحزب، أي من كان له عمل مستمر داخله من أجل استقلال الجزائر[2]. الشجاعة هي المعيار الثاني، فالذين ذاقوا القمع ومحنة السجون وبصفة أدق الاستنطاقات البوليسية ينظر إليهم بصفة إيجابية. والمعيار الثالث، أن يكون المجند من الشباب، حيث كان التنظيم يبحث عن ديناميكية الشباب وقدرتهم على التأقلم، فضلا عن كونهم لا يتحملون مسؤوليات عائلية. وكان الذكاء المعيار الرابع، مع أنه لم يكن من الممكن تحديد مستوى تعليمي أدنى للمجندين، ولكن كانت الأولوية تعطى لذوي القدرات الفكرية. وأخيرا هناك معيار بديهي لا يصلح أن نذكره: أن لا يكون العنصر ملفتا للانتباه، وأن يعرف معنى السرية.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الامتحان. وكان يتم الاختيار دون أن يكون المناضلون على علم بأنهم قد يجندون في المنظمة الخاصة. فرضنا عليهم فرادى سلسلة من الأعمال الوطنية تزداد مخاطرها تدريجيا.

والسيناريو الكلاسيكي- في هذا المجال- يتمثل في خلق جو درامي، يطلب من شاب أن يكون متطوعا للقيام بعمل ما. ثم نستدعيه في أواسط الليل ونسلم له مسدسا. وكنا نعمل دائما على إلغاء الأمر بالتنفيذ في آخر لحظة.

كان هذا النوع من العمليات يستدعي حيطة قصوى من قبل المكلفين بالتجنيد، تحسبا لأي طارئ خطير غير منتظر، كوصول دورية للشرطة، وأيضا تحسبا لردود أفعال المناضل نفسه. وحوادث كهذه حصلت. استدعي مثلا الشاب موح أرزقي بوداود في النهار أمام مقر الحكومة العامة، وأعطي له الأمر بتصفية موظف سام، فوجد مسؤوله رقيمي صعوبة كبيرة في منعه من الذهاب إلى أقصى الأمر وتنفيذ

---

[1] ـ أول تعليمة وجهت لقادة النواحي هي القيام بجمع الأسلحة ومركزتها على المستوى الجهوي أو المحلي. كانت لدينا في البداية بعض المسدسات والرشاشات في الأوراس والقبائل. كنا نقوم بتوزيعها من فوج لآخر للتقليل من عملية تنقل الأسلحة وأيضا لكي نغطي فقرنا في هذا المجال. فكان نفس الرشاش يدور من فوج لآخر في المدينة الواحدة كما فعل فرا نكو الذي أثار الهلع في مدينة مدريد بكتيبة واحدة قامت باستعراضات متتالية.

[2] ـ لم يكن القدم يؤخذ بعين الاعتبار مادام الانخراط في الحزب كان قد سبق مرحلة الشرعية.

العملية. موح أرزقي هو شقيق عمر بوداود[1] الذي سيكون فيما بعد من الإطارات الأساسية للثورة، كانت له تجربة مع القمع واستعمال السلاح، رغم أن سنه لم يتجاوز السادسة عشرة.

لا يتم تجنيد عنصر في المنظمة الخاصة إلا بعد امتحانات متعددة ومتنوعة، وإن وافق هو على ذلك طبعاً. كانت هذه الاحتياطات الشديدة ضرورية جدا، لأنه كان لا يمكن إعادة العنصر إلى "الحياة المدنية" بعد أن يتم تجنيده. فالذين يدخلون المنظمة الخاصة لا يخرجون منها. ويقوم العنصر المجند بمغادرة خلية الحزب، وينقطع عن كل النشاطات العامة العلنية، كالاجتماعات وتوزيع المناشير الخ... يجب عليه أن يجعل مصالح الشرطة تنسى وجوده، وأيضا شبكات المخبرين الموازية. وبالطبع كان لدى البعض الميل إلى المبالغة، كذلك المسؤول المحلي الذي صار يتردد كثيرا على الحانة، ويتبادل أطراف الحديث مع مفتش الشرطة للناحية. وآخر أصبح يشتم بصفة علنية الوطنيين... لا يمكن للتعليمات المعطاة أن تتنبأ بكل السلوكيات الفردية. وكانت الذهنيات ومناهج العمل غير الدقيقة والتقريبية تؤدي غالبا إلى تحوير بل حتى تحريف التعليمات الآتية عن طريق السلم الهرمي للتنظيم.

استخلصت من ذلك عبرا عملية أدّت بي إلى تحضير "منشور التكوين النضالي"، الذي شرع في توزيعه في مارس 1948. ففضلا عن التعليمات والنصائح الهادفة إلى تحقيق أداء دقيق وفعال (كيف يتم تنظيم اجتماع دون كلام لا فائدة منه، وكيف يتم تحرير تقرير دون محاباة

ودون نصوص إنشائية لا طائل منها). أكدت على الإحساس بالمسؤولية الذي يتعارض مع النزعة التسلطية، كما أكدت على دور وأهمية روح المبادرة[2].

حتى وإن كنا نتحسن ونحقق أداء أكبر نجاعة، كنا أمام خصم له تجربة تفوقنا بكثير، وأساليب بوليسية خطيرة الفعالية. لهذا الغرض تمت صياغة منشور ثالث يخص "سلوك المناضل أمام الشرطة". كانت الغاية

---

[1]- كان عمر بوداود مسؤول المنظمة الخاصة في القبائل الصغرى وسيصبح فيما بعد قائد فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني وعضو في المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

[2]- في سجن "لاصانتي" بفرنسا أعلمني بوضياف أن ماروك قام بإعادة طبع المنشور عام 1951 في فرنسا بعد أن حلت المنظمة الخاصة ووجهه لفدرالية الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية وأضاف بوضياف "لقد أمضاه باسمه" كان هذا شيء هين بالنسبة لي لأن مرور الأفكار نحو الضمائر أكثر أهمية من غرور المؤلف.

منه تعريف المناضل بالمراحل الثلاث للمهام البوليسية. مرحلة بناء المعلومات، وهي الأخطر لأنها الأقل بروزا، وتقنياتها متعددة كالمتابعات (الاقتفاء) وتجنيد المخبرين. ثم تأتى مرحلة الاعتقال والتفكيك، التي تستغل عامل المفاجأة، وتجد عونا ثمينا في غياب التفطن وفي الدفاتر والوثائق المتناثرة بإهمال. وتأتي أخيرا مرحلة الاستنطاقات، مع أشكال التخويف والتعذيب. وأعطيت عن ذلك وصفا قريبا من الرواية، وذكرت التسجيلات التي يديرها جهاز القمع على أسماع المناضلين، والتي تمثل الإعدامات أو تلك التي تبث صرخات المعذبين.

و أكدت أنه يتحتم على المناضل أن يتماسك ويتحمل ثلاثة أيام على الأقل، حتى يسمح للمنظمة أن تدخل في حالة استنفار، وتأخذ كل التدابير الضرورية لتفادي نتائج الاعترافات التي قد يدلي بها المناضل المعتقل.

عرف كثير من مناضلي المنظمة الخاصة تجربة الاستنطاق، وقالوا: "عشنا ما كان موجودا في المنشور"؛ ذلك المنشور الذي حفظوه عن ظهر قلب[1].

فيما يخص الرجال والهياكل كانت المنظمة الخاصة على الطريق؛ ولكن ما عسانا أن نفعل بدون أسلحة و بدون أجهزة اتصال. لم نكن نمتلك في هذا الباب سوى جهازا للبث، يستحق أن أحكي كيف قمنا بشرائه:

أبلغني محمد يوسفي[2]، أحد المسؤولين في بلكور في نهاية نوفمبر 1947، أن ضابطا ألمانيا سابقا يريد بيع جهاز بث بعيد المدى يمتلكه. وبعد أن طلبت من مناضلين رصد حركاته في المدينة، وفي نزل سان جورج حيث كان يقيم، لنتأكد من أنه ليس عميلا استفزازيا يعمل لمصالح الأمن، اتصلت به. كان يتكلم الإنجليزية ويهجي قليلا اللغة الفرنسية.

---

[1]ـ من غرائب تقلبات التاريخ أنني قضيت في 64-65 خمسة أشهر في مقرات الشرطة القضائية التي كان يرأسها حمداش مناضل سابق في المنظمة السرية وكان تابعا لأحدهم /ف/ في الرئاسة. وتحولت العيادة السابقة للأمراض العقلية للسيدة الإفريقية أين كانت توجد الشرطة القضائية إلى معمل حقيقي للتعذيب. ولما اعربت عن استنكاري العنيف للتعذيب والجلادين، أشار إلى المنشور. قلت له "فعلا ، أنا الذي كتبه" لن أكون منصفا إذا لم أقل أن /ف/ تعامل معي بلياقة بالغة. حصل في ضميره نقاش إن لم يبرئه تماما، كان يظهر بجلاء ذنوب النظام.

[2]ـ محمد يوسفي كان إطارا شعبيا ببلكور، مسؤول محلي في المنظمة الخاصة ، أصبح مديرا للأمن أيام حكم بن بلة ثم دخل السلك الدبلوماسي.

شرح لي أنه ضابط في البحرية، سجين لدى القوات الأمريكية، وأنه يتعرض لخطر التسليم للسلطات الفرنسية عندما يقوم الحلفاء بإجلاء آخر مصالحهم. وهو في حاجة ماسة لجواز سفر ومال، لكي يعود إلى ألمانيا. كان يقترح جهازا جد متطور يمكن أن يبث بلغة المورس أو بالصوت، على تردد يفوق الألف كيلومتر. وكان يطلب الثمن "الزهيد" المتمثل في سبعمائة ألف فرنك.

قدمت نفسي على أنني من الراديو الهواة المصابين بحب ذلك النشاط. وقلت أن ذلك الثمن جد خيالي. واقترحت بصفة قاطعة، مائة ألف فرنك.

تحددت الصفقة خلال لقائنا الثاني في ساحة شان مانوفر(أول ماي حاليا) أمام النادي المدني للمركزية العامة للعمال، ولكنها مشروطة بتجربة ناجحة للجهاز. ودون أن أعده بشيء- فيما يخص جواز السفر المزيف- طلبت منه ثلاث صور سمحت لي- على وجه التحديد- بإعطائها للمناضلين المكلفين بمراقبة تحركاته. وضربنا موعدا عنده في نزل السان جورج لنستلم البضاعة.

وفي الموعد، أخذنا مرة أخرى زكال في سيارته للأجرة، وكنت مرفوقا بعبد القادر بودا[1] وأحمد كابا[2].

وتم الاتفاق على أن يصعد رفيقاي الاثنان إلى غرفة الألماني لإحضار الجهاز، بينما سأبقى في أحد ممرات حديقة الفندق على بعد قليل من السيارة. كنت واثقا من أن مديرية أمن الإقليم تراقب بصورة أو

بأخرى هذا الفندق الذي يقصده العديد من المسؤولين المدنيين والعسكريين. مرت نصف ساعة، وأشار لي زكال أنه علينا أن نذهب، ولكنني طلبت منه أن يصبر قليلا. انتابني القلق. هل سقطنا في فخ ؟ وأخيرا جاء كابا نحونا راكضا. وقال أن الألماني يرفض تسليم البضاعة، لأنه يخشى أن يخدع خاصة وأنه لا يملك وسيلة الاتصال بنا.

كان الجهاز نادرا ولا يمكنني أن أتركه يذهب.. تركت الحذر جانبا ورافقت كابا إلى داخل فندق السان جورج. لم أدخل أبدا فندقا فخما كهذا

[1]- قريب لحمد بودا المسؤول الوطني.
[2]- هو من قفز في منحدر حي الكاريار.

قبل ذلك اليوم، وتظاهرت كأنني معتاد على ذلك الجو الثري والعسكري في نفس الوقت.

لما وصلت أمام الألماني دفعت له 20 ألف فرنك كعربون، وطلبت منه مرافقتنا حتى أدخل الطمأنينة إلى قلبه. ولاحظت على أية حال أنه كان يجب أن أصعد معهم، لأن حجم الصندوقين كان ضخما، وكان يتطلب وجود شخصين لرفع كل صندوق.

أخذنا الألماني نحو الأبيار في أعالي الجزائر، وتركناه أمام موقف الحافلات بعد أن اطمأن لحسن نيتنا، وأخذنا موعدا لتجريب الجهاز. وكانت التجربة التي جرت عند الأخضر رباح وحضرها عمر أوصديق ناجحة، حيث تمكن عدد من مناضلينا التقاط بثنا لاسطوانة موسيقى وبعض الإشارات. وكنا أعطينا لهؤلاء المناضلين- ليلة من قبل- الموجة التي سيتم عليها البث[1].

وقام الضابط الألماني- خلال أمسية كاملة- بإعطائنا درسا في الشفرة السرية: أرقام وأحرف وكتب تمثل مفاتيح الشفرة، وأيضا مفاتيح ورسالات كاذبة.. أعطانا أيضا مطبوعات تقنية تتعلق بسير وتصليح ما سيصبح أول جهاز بث جزائري[2].

اعتقل الضابط الألماني فيما بعد ؟ لماذا؟ أين ؟ لن نعرف ذلك أبدا. غير أن مفتشي الشرطة قاموا بزيارة الأخضر رباح في سجن بربروس في شهر أفريل[3].

عرضت عليه صورة لي مع الضابط الألماني أمام النادي المدني للمركزية العامة للعمال، كانت قد التقطت من شرفة في العمارة المقابلة. واستعملوا الحيلة الكلاسيكية: "لقد قتل الألماني هذا الشاب، نريد تحديد هويته حتى نسلم جثمانه لأهله".

ولكن رباح كان يعرف الموّال، وقال أن وجه هذا الشاب لا يعني له شيئا. "ولكن وجدنا في أوراقه بطاقة زيارة لك. إنها بطاقتك أليس

---

[1] - التقط هذا البث التجريبي رغم قصره من طرف مصالح التصنت ببن عكنون. علمنا بذلك وبأشياء أخرى بعد اعتقال الضابط الألماني في نهاية شهر مارس.

[2] - في هذه الحالة فحاجة الهيئة /كما في الطب يخلق العضو الوظيفة/ بتأكيدها على أهمية الإرسل والاتصال في تنسيق النضال على كل المستويات ، الوطني ، الجهوي والمحلي.

[3] - لكي يضمن السير الحسن لعملية التزوير في انتخابات المجلس الجزائري ، 4 أفريل 1948 ، قام الحاكم العام الجديد إدموند ناجلان باعتقال 32 مرشحا من حركة انتصار الحريات لأسباب واهية ، كان ذلك عشية الاقتراع وكان الأخضر رباح من ضمن الموقوفين.

كذلك؟". فأجاب رباح إنه يمتلك دكانين ومقهى ودكان بيع الحليب. وأنه يعطي بطاقته لكل زبائنه، ولكن ذلك لا يعني أنه يعرفهم بالأسماء[1]. وكان الضابط الألماني قد وجه الشرطة نحو طريق آخر قادهم نحو مطعم خليل، المرشح السابق للانتخابات التشريعية الذي كنا التقينا عنده للمرة الأولى. دافع خليل عن نفسه باستماتة، ولطم الألماني الشاب على وجهه متهما إياه بالكذب. وأكد بقوة بأن ذلك الضابط الألماني لم يدخل محله أبدا، وكذلك الحال بالنسبة للشاب الموجود في الصورة.

قد تبدو هذه الأحداث المثيرة روائية أحيانا، ولكن يجب أن لا ينسى القارئ طابعها الحيوي بالنسبة لنا.

كان علينا أن نتحصل على أجهزة الاتصال هذه بكل الوسائل، وكانت أولوية الأولويات هي الحصول على الأسلحة.

كان الألماني قد أشار لي خلال أحد لقاءاتنا إلى وجود عتاد حربي أمريكي هام أودع في الرويبة، على بعد 26 كلم شرق الجزائر.

تمكنت من ترتيب لقاء مع القنصل الأمريكي العام شخصيا، وهو الماجور سميث، وقام بترتيب المقابلة لوناس"زونكا"(وهو لقب اكتسبه في السوق السوداء بعد "عملية طورش") مناضل من عزازقة كان مولعا بكل ما هو أنغلو ساكسوني.

ودون أن يحدد تماما دوري، كان الماجور سميث لا يجهل أنني أقوم بنشاط سياسي. أعرب في بداية اللقاء عن مفاجأته للانتصارات الانتخابية للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. ولكنه، فيما يخصه، لا يتدخل في الأمور السياسية. ففضلا عن وظائفه القنصلية كانت مهمته تتمثل في مساعدة السلطات العسكرية الأمريكية في عملية ترحيل أشلاء الجنود الأمريكيين الذين سقطوا في شمال إفريقيا.

وبعد تصريح مبدئي كهذا، كان لا يمكنني أن أوجه الحديث نحو العتاد العسكري الموجود في الرويبة. ورغم إصراري لدى المكتب السياسي على أن يكلف شخصا معروفا وأقل غرابة مني ليقوم بالاتصال به، إلا أن زملائي لم يقوموا بأي مسعى. هل يجب تحميل المسؤولية لأحد منهم ؟ لا، ولكن كانت سلطة الخمول السلبية أكبر عدو للمبادرة.

---

[1]- أعلمنا الأخضر رباح عن طريق محمد زوبيري ، كاتب ضبط في السجن بما كان يجري في اليوم التالي. وقد سمح ذلك لأمه أن تهرب الصندوقين اللذين كانا عندها. حصل ذلك ساعات قليلة قبل وصول شرطة الاستعلامات العامة.

بعيدا عن الجزائر، كان هناك شخص قد أخذ زمام المبادرة. وأعني بذلك واعلي بناي الذي بدأ منذ ديسمبر 1947 في جمع الأموال من أجل شراء أسلحة للمنظمة الخاصة. و دون استشارة الحزب، وفي سرية تامة اتصل بالأشخاص الميسورين وبالتجار في منطقة القبائل والجزائر الذين كان قد حدد قوائمهم مسبقا مع فريق من المناضلين، وتمكن هكذا من جمع حوالي مليون ونصف المليون فرنك. وبمساعدة كابا، ابن حي بلكور الذي كان لايزال يحتفظ بآثار السوق السوداء الواسعة التي تملكته، تمكن بناي من الحصول على عدد معتبر من الأسلحة: حوالي عشرين رشاش " شتاين وموزر" واثنين من نوع "تومسون" كانا في حالة سيئة[1]، و30 مسدسا جديدا من عيار 7،65 (9 نمساويين وحتى من نوع الكولت). كما تحصل على خمس بنادق حربية وصندوقين من القنابل الهجومية.

وقد نقلت الأسلحة إلى منطقة دلس[2] في الواجهة البحرية للقبائل، وأضيفت هناك إلى عشرات الأسلحة التي تم شراؤها بعين المكان، وفي أماكن معروفة[3] برواج هذا النوع من الأنشطة في وادي الصومام ومنها بني صدقه[4].

وكانت تباع الأسلحة بالعشر أو بالعشر المضاعف، كما كان يعمل به في بيع الحبوب.

وبفضل قيادة جهوية ديناميكية ومتحمسة، كان تعميق الوعي السياسي الشعبي يساير التحضيرات الثورية المادية[5].

---

[1]- سيقوم محترفو صناعة الأسلحة بقرية دارنا في الجرجرة بتصليحها. وكانوا قد حافظوا على تراثهم الحرفي رغم الممنوعات ورقابة السلطات.

[2]- تم ذلك بفضل نور الدين سطانبولي مناضل من بلكور الذي استعمل شاحنة لمصلحة البريد أين كان يعمل .

[3]- بعد إنزال الحلفاء تعاظمت النشاطات في السوق السوداء وكانت جماعات منظمة تغير على مواكب الحلفاء بين الاخضرية والبويرة آخذة صناديق كثيرة من البضائع غالبا ما تكون سجائر ولحم بقر، وقليل من الأسلحة نتيجة للرقابة الصارمة التي تحاط بها.

[4]- بني صدقة أين اشتريت شخصيا أول رشاش شتاين وأول رشاش ستاتي.

[5]- هذا النشاط في جمع الأسلحة ببلكور كان بمثابة تدريب لواعلي بناي ، حيث سيأخذ لوحده بعد نوفمبر 54 ومن بلكور دوما المبادرات لتزويد القبائل بالأسلحة والأدوية وبالأحذية العسكرية (pataugas) . وبما أنه فصل من الحركة في عام 49 فاجأته أحداث نوفمبر فدخل في العمل مباشرة وبصفة متواضعة انخرط في الكفاح ، غير أن مكانته السياسية كانت تقلق قادة الولاية الثالثة الذين أعطوا الأمر بتصفيته. وقتل ببرودة عام 57 بمسقط رأسه- جماعة قصهاريج- تحت تهمة المصالية والبربرية! لخضر رباح الذي كان من بلكور ويعرف ما قدم بناي للثورة استمر بعد الاستقلال يذكر باستنكار عميق هذه التصفية وتلك التي طالت في 58 سعيد أكلي الذي عرفه في "معركة الجزائر"

كان هذا العتاد ضروريا لتقوية المعنويات، وكان مفيدا في العمليات الدفاعية ضد ما أسميه "الميليشيات السوداء."

لكي نعرف ما هي الميليشيات السوداء، يجب العودة إلى عام1945. فبعد أحداث ماي قام الإقطاع المعمرون والإدارة بتشكيل ميليشيات لاستكمال عمل الجيش والشرطة. وتم تجنيد قتلة بالإيجار وخريجي السجون الذين كانت تسيرهم السلطات المحلية، بهدف ترهيب المواطنين وقتل الوطنيين الأكثر نشاطا. وبما أن الجبال كانت عمليا ممنوعة عليهم، فقد كانوا يقومون بعملياتهم الإجرامية على مشارف القرى الاستعمارية، وكانوا يحظون بحماية السلطات العمومية.

ولدى مجيء الحاكم العام الجديد نايجلان في فبراير 1948 ، تقرر تطبيق سياسة الحزم، وتم تحت غطائها إعادة بعث وتشجيع هذه الأعمال الإجرامية بالقمع السياسي، حيث كانت تتم اعتقالات وتهديدات وإهانات، وبالقمع الاقتصادي أيضا، والذي يتمثل في غلق المستثمرات الحرفية والمتاجر الصغيرة وكذلك فصل العمال. وأكثر ما مست العمليات التأديبية هذه مناطق الأوراس والقبائل .

أصبحت مناطق دلس وبرج منايل تعيش في بداية 1948 ، كما كان الحال قبل ثلاث سنوات، تحت سياط الأعمال الإجرامية للميليشيات. كانوا يغيّرون في جماعات على بيوت المناضلين، يضربون أهاليهم ويسرقون المجوهرات. كما كانوا يعترضون الحافلات، وينزلون منها الوطنيين المعروفين، ويقتلونهم ببرودة دم على قارعة الطريق.

وأمام نداءات النجدة التي كانت تصدر من المسؤولين في منطقة القبائل، اكتفى المكتب السياسي بنصحهم باليقظة من الاستفزازات. تهرب حزب الشعب/الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية الذي انغمس في دوامة الشرعية، من استغاثة الجماهير الفلاحة التي أصبحت تقلقه بمشاكلها المقلقة.

ومع أنني كنت مسؤولا عن المنظمة الخاصة، وليس عن القبائل، طالبت بإدراج المسألة في جدول أعمال أحد إجتماعات المكتب السياسي. وشرحت أن سياسة الترهيب قد وصلت إلى أهدافها في القبائل الصغرى، وأن غياب رد الفعل يشجع المجرمين الذين يزدادون وقاحة

التي قيل عنها القليل وليس بطريقة صحيحة. هذه الأعمال الإجرامية ارتكبت باسم الثورة والوحدة الوطنية ولم تفد لا هذه ولا تلك.

وهمجية؛ وأن هذا التوتر المأساوي قد يؤدي إلى الإحباط والابتعاد عن حركتنا، أو سيؤدي إلى ردة فعل ارتدادية ستحول الأرياف إلى مسرح دام، يعطي الذريعة للقمع العسكري لضرب معاقلنا الشعبية الواحد تلو الآخر.

اقترحت ردا مناسبا، يكون محددا في المكان والزمان، ويكون دقيقا. ولكنه يجب علينا توقيف المجرمين عند حدهم، وتوقيفهم على الفور دون انتظار.

بخصوص العمل الذي يمكن أن يقوم به الحزب، راوغ مصالي الحاج، ثم قال بصوته الجذاب: "انظروا ما يمكن أن تفعلوه مع أصدقائكم في عين المكان."بتعبير آخر يعني: "أنتم وشأنكم .. دبروا راسكم".

وبالفعل، وقعت جريمة شنعاء فرضت علينا أن نتدبر أمرنا. قتل السي رابح، مسؤول الحزب في دوار الريش (برج منايل)، تحت أنظار زوجته وابنته. وقامت بذلك عصابة أعطت لنفسها الحق بالقيام بحاجز عند مشارف المدينة لمراقبة عملية تنقل المواطنين. وكان السي رابح - الذي انتخب في الجماعة- يحظى باحترام كبير يتجاوز حدود دواره. كما كانت ضيعته الصغيرة تمثل ملجأ ومركز نشاط، فيما كان حنطوره الذي تجره "فرس الوطن" وسيلة "النقل الجماعي" للمناضلين. كان على متن ذلك الحنطور، لما قتله المجرمون بعدة عيارات من بندقية صيد، رغم توسله للمجرمين حتى لا يقتلوه أمام أعين عائلته، مذكرا إياهم بطقوس الشرف السائدة عند الإجرام غير السياسي.

ومما زاد على ذلك أن زوجة الضحية أهينت من طرف القاضي، الذي لطمها على وجهها حين صرحت أنها تعرفت على قائد الميليشيا من ضمن مجموعة القتلة المجرمين.

أسرع السي حمود نحو الجزائر ليعلمني بما حدث، وكان على رأس التنظيم السياسي والمنظمة الخاصة في المنطقة. وكان يود أيضا قدر الممكن إعلام مسؤوله السابق بللونيس الذي كان سجين بربروس آنذاك، بسبب ترشحه للمجلس الجزائري. كان بناي موجودا حينها في العاصمة، وقررنا نحن الثلاثة أن نرد بقوة لإيقاف أضرار الميليشيا.

وقعت العملية في أحد أيام التسوق، التي كانت عادة فرصة مناسبة للميليشيا كي تتجول وهي مدججة بالسلاح. نصب حوالي ثلاثين مناضلا

كمينا وأقاموا حاجزا. وبدأ التعرف على أعضاء الميليشيا، الواحد تلو الآخر من طرف مناضلين ملثمين كانوا يقومون أيضا بإبعاد المارة. قتل اثنا عشر مجرما، ستة في عين المكان وستة في المستشفى. وقام الاخوة لوناس وعمار خطاب بإبلاغ النائب العام- في رسالة نشرت في الصحافة- بتبنيهم الشخصي للعملية. وكان لها صدى نفسي عميق[1] حيث انتقل الخوف إلى الصف الآخر.

وقعت عملية أخرى كانت الجزائر العاصمة مسرحا لها، واستهدفت أحد الذين كانوا يشيعون جوا من "الرعب الأسود" في منطقة القبائل. استهدف فيها اغريبيسي واسمه الحقيقي طولب الوناس، وهو مجرم يناهز الخمسينات يعمل لصالح الباشاغا آيت علي والإدارة الاستعمارية. وكانت له سوابق كثيرة، حيث حكم عليه عدة مرات بالسجن لاقتراف جرائم القتل والسطو المسلح.

كان يقوم، وهو على رأس عصاباته، بأعمال بشعة وقاسية، زادها كونه يتمتع بسكوت الإدارة عنه ولا يحاسب. كان قد فر إلى العاصمة بعد عملية وطنية ضد الميليشيات. وكان السي حمود، الذي عرفنا مسؤولياته على مستوى برج منايل، قد أعلمني بفراره نحو العاصمة، فربطته بمسؤول المنظمة الخاصة في الجزائر المدينة الجيلالي الرقيمي. وقام الجيلالي باختيار ديدوش مراد للقيام بتصفية المجرم. كان ديدوش مراد قائد لواء، وله كل الخصال الضرورية: شجاعة، برودة أعصاب وإرادة فولاذية. لم يكن ينقصه سوى تجربة النار أو العمل الفدائي. وكان معروفا عنه أنه لن يتكلم أبدا في حالة ما إذا تم اعتقاله.

خضع اغريبيسي لعملية اقتفاء سمحت بتحديد مساره اليومي والأماكن التي يتردد عليها. في اليوم المحدد للعملية اقترب ديدوش مراد من الهدف مرتين، وفي كل مرة تردد ثم عدل عن الرمي. تركناه يحاول مرة أخرى في اليوم الموالي. عندما أصبح وجها لوجه مع اغريبسي وصوب نحوه مسدسه، لم يتمكن ديدوش مراد من إطلاق النار. لا أحد، وأنا أولهم، لامه على ذلك. لأنه حتى نحن كنا لا نعرف ماذا سيكون سلوكنا حين تأتي لحظة يتطلب فيها قتل إنسان بأعصاب باردة حتى وإن كان هذا الإنسان مجرما. غير أن الوقت أصبح يداهمنا، خاصة وأن قائد الميليشيا أصبح يتحسس الخطر. وتمت تصفيته على يد أحد مقاومي

---

[1] - دون أن تطرح مسؤولية الحزب وقادته ما دام الاخوة خطاب تبنوا علنيا العملية.

القبائل تم تحويله للجزائر. كان الرجل في المقاومة منذ 1945، وتطوع لكي يقوم بهذه المهمة الخطرة.

كان لتصفية هذا الرجل المفترس- الذي كان يخدم السلطات الاستعمارية، وكان معروفا في القبائل كما كان آل كابون في شيكاغو- أثر الصاعقة.

لم تتمكن الشرطة من معرفة من كان وراء العملية، ولكنها لم تتردد في الضرب السريع وبقسوة. وقامت باعتقال الشيخ رابح أوقانا، وهو صاحب مقهى بشارع مارينغو وعذبته لسببين: لأنه مناضل في حزب الشعب، ولكونه من نفس دوار قائد الميليشيا المغتال. ومما زاد في شكوك الشرطة كون العملية تمت في مكان غير بعيد عن محله، وبالتالي كانوا يرون بأن القتلة- إذ كانوا لا يتصورون أن يكون من قام بالعملية شخصا واحدا- التقوا في ذلك المحل.

باستثناء عمر أوصديق، الذي ربط الصلة بين المقاوم المنفذ ورقيمي، لم يعلم أحد من أعضاء اللجنة المركزية ولا المكتب السياسي بالدور الذي قمنا به. ولم نقم أنا ورقيمي بإخبار باقي أعضاء هيئة أركان المنظمة الخاصة. تكلمت عن ذلك فيما بعد، حين هدأت تأثيرات القضية، لكي أبين أن المنظمة الخاصة تعرف كيف تكون فعالة. وقد عاش الرجل الذي قام بتصفية اغريبيسي حتى بعد الاستقلال، ونجا من الموت في الحرب التحريرية ومن المعارك الظلية التي هيأتها. وكانت التحيات التي يرسلها لي من القبائل- كلما سنحت الفرصة- تثلج صدري بصفة خاصة.

تكلمت قبل قليل عن مقاومين تم تحويلهم إلى الجزائر العاصمة. لماذا كانوا موجودين هنا؟ يجب أن نعرف قبل ذلك أنهم كانوا حوالي خمسين مقاوما في القبائل، يعيشون في السرية، بعض منهم منذ أحداث ماي 1945، والآخرون اضطروا لذلك بسبب سياسة القمع والاستفزاز الواسعة. ذلك كان وضع عمر أوعمران، الذي سيصبح فيما بعد العقيد أوعمران. كان قد استفاد من العفو الذي تقرر في مارس 1946، وقت أن كان محكوما عليه بالإعدام، لأنه دبر تمردا في مدرسة ضباط الصف بشرشال. والتحق بعد ذلك بالهياكل النظامية للحزب في القبائل. في وقت غير بعيد من ذلك ، وبينما كان يقوم بمراقبة العمليات الانتخابية بذراع الميزان، ناداه دركيان صائحين: "باسم القانون، سنعتقلك". فأجاب أوعمران: "باسم القانون، أهرب". كان قد خرج لتوّه من الزنزانة، ولا

يقبل أن يعود إليها مرة أخرى. أصبح خارجا عن القانون. ولكن أوعمران لم يكن ليسبب مشكلا يذكر، لأنه رجل منضبط جدا وتحمل مسؤوليات محلية ثم جهوية. كما تم التمكن من إدماج مقاومين آخرين في الحياة المدنية (حراس، بنائين ونجارين متمرنين) تحت هويّات مزوّرة. وكان ذلك يسمح لهم بالبقاء على اتصال بذويهم، وتفادي الاقتلاع من الجذور.

بأمر من المكتب السياسي، تم تحويل أغلب هؤلاء نحو العاصمة، وكان كريم بلقاسم من ضمنهم. كانت تحركاته ونشاطاته بمسقط رأسه، بدوار أولاد موسى بذراع الميزان، تخلق جوا من الحركية الدائمة اتخذتها الإدارة، عملا بمبدأ المسؤولية الجماعية، ذريعة لشن عمليات انتقامية جد قاسية[1]. كانت عملية التحويل هذه تهدف إذن إلى تلطيف الأجواء.

أعربت في اجتماع للمكتب السياسي عن الرغبة في التكفل بهم. لم يقابل الاقتراح بعين الرضى، كيف يمكن لقبائلي أن يتكفل بقبائل آخرين في الجزائر العاصمة؟ في الواقع كانوا يخشون أن تتسلم المنظمة الخاصة هؤلاء الأبناء صعبي المراس. قام بودا بإيوائهم عند مناضلين ومتعاطفين[2]، ولكنهم بدأوا يصابون بالإحباط نتيجة غياب النشاط والعزلة. وكانوا لا يخرجون، لأنهم يفتقرون إلى بطاقات هوية. كما كان بعضهم يقيم في الأقبية وهم مرضى، وبعضهم كان يتألم لأنهم لم يكونوا يحظون بمعاملة لائقة. أو لإحساسهم بجرح عزة الجبلي فيهم. لا يمكن القول عن عمي علي، المسؤول السابق لذراع الميزان والقائد المباشر لأوعمران، أن لديه حساسية مفرطة. كانت العائلة الميسورة المعروفة التي كانت تؤويه تطلب منه القيام بأعمال شاقة ومهينة: "حملت الروث على ظهري طول النهار كأنني بغل". هذا ما قاله لي فيما بعد.

لم يكن المقاومون مدمجين في ديناميكية نضالية، ولم يكونوا مؤطرين سياسيا، وأصبحوا بالتالي يتساءلون. وكانت عزلتهم تزداد قسوة وصعوبة، كونهم يعلمون أن الحياة تستمر من حولهم. كان البعض يتواطأ مع مناضلين من دوارهم حتى "يتسللون" لتقبيل أبنائهم.

---

[1]- هناك صور ووثائق معبرة عن العملية الانتقامية التي شنت على قرية سيد علي بوناب.
[2]- لن نقول كثيرا: كانت بعض العائلات المتواضعة بحي بلكور تقتطع من حصص أبنائها لكي يتم إطعام المقاومين.

أصبحت الهوة تتسع بوضوح بين أناس أحرقوا كل سفنهم وقادة منغمسين في اهتماماتهم اليومية.

كان يطلب من هذه الطلائع أن يكون لها سلوك حرس خلفي، لأنهم مصدر قلق وخجل. غير أن تلك الطلائع تحركت، وبدأت تخلق مشاكل تم تضخيمها عن طريق مختلف مستويات هرم الحزب. وفي الأخير، تمكنوا من طرح مشكلتهم أمام القيادة السياسية.

لم يكن يعلم إدموند نايجلان الحاكم العام أنه سينهي مأساة هؤلاء الرجال عندما أعلن انتهاء "النزهة" الانتخابية. فالقمع الذي أعقب الانتخابات سمح بتسديد المقود، وإعادة التناغم بين تطلعات الجماهير واهتمامات الحزب.

وإذ كان ذلك يستبق الأحداث قليلا، استسمح لنفسي سرد ما جرى. فلنقفز عدة أشهر: انعقدت اللجنة المركزية "الموسعة" في ديسمبر 1948، بزدين وصادقت على التقرير الذي قدمت. انتخب خلالها حسين لحول أمينا عاما للحزب. واغتنمت فرصة عودة الثقة لأطلب بطاقة بيضاء لحل مشكل المقاومين.

وفي بداية جانفي 1949،التحق المناضلون الخارجون عن القانون بمهامهم. أخذ مصطفى بن بولعيد إلى الأوراس 3 أو 4 مقاومين من بينهم كريم بلقاسم، ولكن أغلب المقاومين تم إدماجهم في الغرب من طرف بن بلة. وكانوا مبتهجين بالحفاوة الأخوية وآيات التقدير التي يلقونها في خضم هذا النوع من الحرية المسترجعة.

ومع كل التدابير الأمنية المشددة الصعبة التحقيق، تمكن بعض منهم من استقبال ذويهم. كان ذلك الحال بالنسبة لعلي موقاري (اسمه الحربي جيلالي)، من دوار بني خلفون بالأخضرية، الذي التحق بالجبل بعد يوم من حفل زفافه[1].

ولكن على المستوى الزمني، لازال سردنا للوقائع لم يصل لذلك الوقت. إننا في عشية انتخابات المجلس الجزائري التي ستجري أيام 4

---

[1]- إلتحق بنا الجيلالي في القاهرة عام 53 وأصبح الظل الأمين لمحمد إبراهيم بوخروبة- هواري بومدين- بدأ بجامعة الأزهر كطالب حر ثم في ثكنة مصرية عام 55 أين قام المقاوم بتدريب رئيس الدولة المقبل. وكان معه عندما نزل بالريف (المغرب) قبل أن تفرق بينهما الصدف والنزوات الهرمية فمن من الاثنين سيذهب إلى
الحرب ، أليس المحارب ؟

و11 أفريل 1948، حيث أظهر الحاكم العام إدموند نايجلان مهاراته في فنيات التزوير الانتخابي.

على مستوى المنظمة الخاصة، كنا كلما تقدمنا في تحديد مفاهيمنا للحرب الثورية ازدادت أهمية الاتصال والإيصال في آفاقنا الاستراتيجية والتكتيكية.

عين ماروك مسؤولا للاتصالات على مستوى هيئة الأركان للمنظمة الخاصة. وكان في غياب العتاد مضطرا للترقيع "البريكولاج" كما كان دائم المطالبة بالعتاد..

في هذا الجو، نزل علينا من بوفاريك موح عبة[1]، وهو مناضل قديم من نجم شمال إفريقيا، كانت عائلته تملك حماما بشارع البرتقال (les orangers). وأعلمني أنه- حسب رواية مهندس فرنسي يعمل في لورشات الصناعية للطيران- توجد هناك كمية من عتاد الاتصالات يبدو انها متروكة منذ الحرب العالمية الثانية؛ وأن هذا العتاد موجود في مستودع قريب من مكتب المهندس، دون أن يكون محل حراسة خاصة. إنها فرصة لم تكن منتظرة ! اتفقت معه لترتيب لقاء مع المهندس في يوم 3 أفريل، أي قبل ليلة واحدة من انتخابات المجلس الجزائري.

استفدت من السيارة البرلمانية المختومة بشارة العلم الفرنسي التي كانت تنقل اثنين من مرشحينا إلى البليدة وهم لحول وشرشالي. فمدينة بوفاريك توجد على طريق البليدة، وكانوا يطلبون مني بلطف أن أرافقهم إلى البليدة لحضور التجمع الذي سيقيمونه، ثم سينقلونني إلى بوفاريك.

رغم الرغبة في الدخول بين الناس، إلا أنني رفضت، وقلت أنني أفضل كسكسى آيت جناد، وأن لكل شخص مهامه.

سأدرك لاحقا أن الحرية شيء هش، فعندما وصل مرافقيّ إلى البليدة وجدا الشرطة في الانتظار، وتم اعتقالهما وإيداعهما سجن بربروس بالجزائر[2]. كنت سألقى نفس المصير لو قبلت عرض مرافقتهما.

التقيت المهندس على العشاء، عند خباز كان ابن عم موح عبة. بقيت هذه السهرة حدثا هاما بالنسبة لي. كنت مع أحد القادة المشهورين

---

[1]- هو من دوار آيت جناد بالقرب من عزازقة وكان مع مناضلين آخرين يشكلون خلية صغيرة جد متماسكة ببوفاريك.

[2]- قلت سابقا أن 32 مرشحا من حزبنا اعتقلوا بهذه الطريقة

للمقاومة الفرنسية ضد النازية بمنطقة الفركور. كان عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد نجا من عمليات التصفية التي تمت في الإدارة الاستعمارية بعد خروج الوزراء الشيوعيين من الحكومة الفرنسية التي كان يقودها رماديبي (ماي 1947). ويعود الفضل في ذلك لتدخل شخصي من الحاكم العام إيف شاتينيو. إذ كان ابن هذا الحاكم العام قد سقط في المقاومة، وكان هذا الرجل أحد شهود لحظاته الأخيرة.

كان أمرا يبعث على الارتياح أن لا تتأثر روابط تكونت خلال المقاومة الوطنية بالحرب الباردة، ولا بالحرب ضد "الساحرات".

في خلية آيت جناد البوفاريكية، كان المهندس الفرنسي يحس أنه في عائلته. كان مناهضا صريحا للاستعمار، وكان يقدر قوة كبار الإقطاع حيث كان يسكن بمعقل أميدي فروجي[1]. وكان يتردد أكثر على مناضلي حزب الشعب بدل مناضلي الحزب الشيوعي. وفهمت رغم تكتمه أنه غير متفق مع الخط السياسي للحزب الشيوعي.

تكلم عن ملاحظة أدهشته، وهي أن أغلب المعمرين حولوا مزارعهم إلى معاقل محصنة. قلت أن ذلك يعود إلى تقنية اللاأمن والخوف المفتعل، التي تدخل في سياسة الابتزاز التي يمارسها كبار ملاك الأراضي، بهدف كبح كل سياسة انفتاح. على عكس ذلك، كان يرى أن الخوف حقيقي وغير مفتعل، وخلص إلى القول: "ستنفجر الأمور لأن هناك بؤسا كبيرا جدا في هذه البلاد".

سألت بالطبع هذا المقاوم القديم للفركور عن الأخطاء المرتكبة في منطقة نجد "الغليير"، في تلك المعركة البطولية التي كانت نهايتها مأساوية. سألته عن إمكانية تنظيم المقاومة في الجبال الجزائرية فأجاب: "إنني أعرف جبالكم ورجال جبالكم. يمكنني بمائتي رجل فقط أن أحول حياتهم إلى مستحيل".

أكدت لي المعلومات أهمية ونوعية عتاد الاتصال الذي تكلم عنه، وأكد أنه يمكننا أخذه في نهاية الأسبوع، عندما يكون مركز الطيران شبه فارغ. وقال أنه سيترك أبواب المستودع مفتوحة. في أيام قليلة نظمنا كل شيء. هيّأنا الشاحنة لنقل العتاد، والمحل الذي سيتم إخفاؤه فيه. غير أن

---

[1] - شيخ بلدية بوفاريك ورئيس فدرالية رؤساء بلديات الجزائر. وكان رمزا لكبار المعمرين حيث كان يمتلك المئات من الهكتارات في سهل متيجة وحصلت عمليات تقتيل جماعية كبيرة بعد أن قام علي لا بوانت بتصفيته في الجزائر يوم 28 ديسمبر 1956.

المشروع لم يتحقق للأسف. فالمهندس لم يظهر بعد ذلك اللقاء. هل أدى به القمع الكبير الذي بدأ غداة اقتراع 4 أفريل إلى سلوك طريق الحذر؟

أظن أن الفرضية الأقرب إلى الحقيقة هي أن الحاكم العام الاشتراكي الجديد قد أمر بتنفيذ الأمر بطرده من الجزائر، الذي كان قد صدر ضده ، والذي أبطل مفعوله الحاكم العام السابق.

الفخ الانتخابي
اجتماع اللجنة المركزية

تجري انتخابات المجلس الجزائري في دورتين، يومي 4 و11 أفريل عام 1948. ولأنه لم يكن في مقدور الحاكم العام الجديد ، إدموند نايجلان ، منعها فقام" بصنعها".

فبعد أن مهد الطريق باعتقالات مسبقة كثيرة، طالت مناضلين من حزب الشعب/حركة انتصار الحريات الديمقراطية ومرشحيه، قام بعملية تزوير انتخابي واسعة ومنقطعة النظير؛ مع أن الجزائر كانت تعرف من قبل عمليات حشو صناديق الاقتراع[1]. فمن مجموع 60 مقعدا، حصل المرشحون الإداريون، والمستقلون (وهم إداريون مموهون) على 41 مقعدا بينما لم يحصل حزبنا إلا على 9 مقاعد، مع أن كل شيء كان يوحي بأنه سيحصل على أغلبية المقاعد[2].

أصبح وهم العمل الشرعي ظاهرا للعيان. فبعد الجزرة الانتخابية، جاءت العصا التي تطرح المسألة في مستوى القوة الجسدية. فالبديل لم يكن بين الرضوخ أو الانسحاب، بل بين أن تناضل أو تكف عن الوجود .

لم يبق أمام مصالي الحاج والقيادة سوى العودة إلى الخط المحدد في مؤتمر فبراير1947، أي نحو أفق العمل المسلح الذي كان مبرر إنشاء المنظمة الخاصة.

ومن حسن الحظ أن المنظمة الخاصة كانت قد واصلت عملية تهيكلها، وواصلت بنشاط عملية التجنيد. كانت الدورات التدريبية مستمرة بموازاة البحث عن الأسلحة وآلات الاتصال.

1- بالطبع كان هناك حشو للصناديق ولكنه كان مرفوقا بإجراءات فعالة كفرض مراقبين " مضمونين في مكاتب الاقتراع " ومحاصرة الدواوير من طرف الجيش.

2- بينما تحصل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لفرحات عباس على 8 مقاعد والفرع الفرنسي للأممية العمالية (الاشتراكي) على مقعدين.

بدأت- وإن كان الأمر مبكرا نوعا ما للقيام بحوصلة- في صياغة الخطوط العريضة لتقرير يحدد أهدافنا نقطة بنقطة، والوسائل الضرورية لتحقيقها.

كان من الضروري- ونحن نفكر في أفق الكفاح التحرري- أن نزيل فكرة كانت سائدة لدى عامة الناس كما لدى القادة تؤسس المشروع الثوري على التفوق العددي.

كما كانت هذه الفكرة محبذة لدى المثقفين، كما يشهد على ذلك "مخطط أخضر" (واحد آخر!) الذي أنجزته في فرنسا خلال ربيع 1948 دفعة من الطلبة الجزائريين من جامعة مونبولي. وهو عبارة عن نسخة إسلامية لم يطرأ عليها إلا القليل من الحداثة لملحمة من القرون الوسطى لم ينقصها إلا فرسان الصحاري.

وبدل أن يصل المخطط للمكتب السياسي، الذي كان يفترض أن يوجه إليه، وصل إلى أيدي الشرطة. بالفعل، قام أصحاب المخطط الأخضر بتسليمه إلى ثلاثة من مرشحينا في المجلس الجزائري، وهم الدكتور عيساني والصيدلي بن ديمراد من لجنة الصحافة والدعاية والطالب في الحقوق، محمد يزيد[1]. هؤلاء كانوا عائدين من فرنسا في أواسط مارس لحضور انتخابات 4 أفريل، غير أنهم اعتقلوا عند وصولهم واقتيدوا إلى سجن بربروس، بعد استجواب قصير بمحافظة الشرطة المركزية[2]. وسيكون لنا بسرعة تصور عام عن هذا المخطط الأخضر.

أما المنظمة الخاصة فلم تكن آنذاك إلا في طور رسم معالم مشروع. والتقينا لهذا الغرض في أوت خلال الفترة التدريبية الثانية. وإذا كانت الفترة الأولى قد نظمت بين أربعة جدران في مدرسة دينية بالقصبة، فهذه المرة كانت الفرصة لهيئة الأركان كي تمتحن معارفها وقدراتها في الميدان.

---

[1]- سيكون ضمن المفاوضين في إفيان ثم سفيرا بعد الاستقلال.

[2] - عندما التقيت يزيد في القاهرة عام 54 قال لي أنه هو الذي كان يحمل الوثيقة "المتفجرة" وأنه حاول دون جدوى أن يتخلص منها في المرحاض لأن المفتش رفض أن يسمح له بالانفراد فيه ولم يتركه لوحده.

اخترنا منطقة الظهرة[1] التي تتميز- كما يقول الجغرافيون- بتلالها البحرية التي ترتفع بين المتوسط ووادي الشلف ومن شرشال إلى مستغانم. أعددت مع بلحاج الرحلة بدقة كبيرة. وكان المسار المحدد يبدأ من الشمال إلى الجنوب انطلاقا من قرية /نوفي/ القريبة من شرشال، وصولا إلى عين الدفلى. تقرر أن تتم الرحلة في يومين ونصف، وكان احترام المواعيد المحددة يدخل ضمن التدريب. أما طبيعة التدريب فتتمثل في اجتياز عدة مرتفعات سيرا على الأقدام ودراسة الميدان، والاتجاه إلى الهدف بناء على خارطة بيانية عسكرية، وسهرات عمل تحت الخيام.

اصطدمت مجموعتنا- فور نزولها من الحافلة- بالقرب من شرشال- بمسالك الظهرة الوعرة. كنا نرتدي لباس الكشافة، ومحملين بحقائب على الظهر. قرر فريقنا المكون من ثمانية أشخاص[2] حط الرحال بالقرب من ينبوع غير بعيد عن قرية سيدي سميان الكبيرة. كان سكان المنطقة لازالوا يتكلمون بالقبائلية، رغم انقطاع شبكات الاتصال التقليدية كالأسواق، التي كان يتم فيها تبادل الأفكار والسلع على حد سواء.

هرع القرويون نحونا عارضين ضيافتنا، فيما وصل أمين القرية ليتفحص وجوهنا، ربما لتقديم تقرير فيما بعد إلى القائد الذي يتبع له. لا أذكر إن كنا قدمنا أنفسنا على أساس أننا من الكشافة الإسلامية؛ وعلى كل حال كانت سراويلنا القصيرة وابتساماتنا الواسعة تجعل منا متنزهين مؤكدين.

قبلنا كرمهم، وتمتعنا بسلة من البواكير الطازجة، مما جنبنا مخاطرة التطفل على البساتين.

كان غروب الشمس يصقل تباين الألوان بين جبل شنوة الكبير- المكسو باخضرار قاتم- والبحر الذي كان يتلون بمختلف أشكال الزمرد، إذ تنعكس على صفحاته ألوان الجبل والسماء .

---

[1]- كنت أنا وبوقادوم والدكتور اليمين وبلوزداد في إجتماعات المكتب السياسي نرى أن المنطقة مواتية لإنزال الأسلحة. وكان من المصلحة أن نتفقدها. وفي المنظمة الخاصة كنت أنا وبلحاج نرى المنطقة مواتية لكي تكون مقرا لقيادة الأركان شرط ضمان هياكل اتصال أمينة.

[2]- أظن أن الرحلة لازالت ماثلة بصفة خاصة ، كما هو الحال بالنسبة لي في ذاكرة أعضاء هيئة الأركان الذين مازالوا أحياء : بن بلة، ماروك، محساس ورقيمي. كنت ذكرت أن ولد حمودة تمت تصفيته عام 56 من طرف مسئولي الولاية الثالثة كما تمت تصفية بناي تحت الاتهام المتناقض بالنزعة المصالية والبربرية. أما جيلالي بلحاج فقد حكم عليه بالإعدام ونفذ ذلك فيه بتهمة الخيانة من طرف الولاية الرابعة عام 58.

في تلك الليلة عادت إلى ذاكرتي أبيات من قصيدة طويلة كنت حفظتها من زمن طويل؛ وكان الشاعر يقول على لسان البحر :

فجأة أعطتني الأمواج ذلك الدرس

تحلمون بمغرب فرنسي، وياله من وهم

هزم الأطلس ولكن لم يسيطر عليه أبدا

عشرون شعبا حاولوا وما وصل أحد

سنديان الغولي المزروع في هذه الأرض

قبل أن يغطيه التراب سيقتلع

[.....]

هكذا تكلم البحر ، ذلك الرسول الغامض

فأجبت: فليكن! إذا كانت صور وروما واليونان

والقوة والفكر والبراعة

لم تتمكن من جعل هؤلاء الناس ينحنون ويندمجون

وإذا لم تكن هناك فائدة من استغلال يأسهم ،

ولا شيء يبهرهم ولاشيء يفنيهم

فماذا الذي يبقى سوى أن تحبهم ؟

فالعطف قد يكون سر الحكم[1]

***

"الله يعطينا حكم احنين". هكذا كانت تقول أمهات الجزائر وهي تقمط صغارها . وبتعبير آخر كان ذلك يعني: "إن لم يكن بوسعي اختيار قادتي الذين فرضوا علي منذ الأزمنة الغابرة، فعليهم- على الأقل- أن يعملوا على أن لا يكون مصير ابني اللاأمن الغذائي والاقتصادي والسياسي".

في الفجر غطى نور ساطع أدغال المستكة والوزّال الضخمة، وكان وجودها مؤشرا عن فقر الأراضي والقرويين. هنا لا وجود لسهول رعي

---

[1]- سأنشر القصيدة كاملة في نهاية الجزء الثاني.

خضراء ولا وجود لحقول القمح بل هناك بساتين صغيرة في أعالي الجبال تسمى orti "أورتي" (وهي من الكلمات اللاتينية القليلة التي دخلت اللغة البربرية) ، والتي تمثل شهادة عن تاريخ مضى ولا يزال مستمرا لإنسانية تصارع من أجل البقاء لمدة آلاف السنين فرضت على الغزاة أن يبقوا على الساحل، بينما تمركزت هي في الأعالي، في معاقلها الجبلية حيث كانت تخرج الكرمة والزيتون والبرتقال من بين الصخور. وكانت جذوع هذه الأشجار تحفظ الأسطح وتمنع الانجراف.

بعد شرب القهوة وغسل الأواني وإزالة الخيام، اتجهنا في مسيرة شاقة عبر دروب خالية شقها الماعز. كان ذلك اليوم 20 أوت بالغ الصعوبة، بسبب الارتفاع الشديد لدرجة حرارة الجو. كنا نشكو على الخصوص من العطش. وكانت الخريطة البيانية التي بحوزتنا تشير إلى العديد من مصادر المياه ولكنها جفت كلها.

كانت الرغبة قوية في أن نترك أرجلنا تركض نحو الأسفل، حين رأينا- في السفح- بعض البيوت المتناثرة التي تنبئ بقرب سوق الأربعاء. ولكن الحكمة فرضت علينا أن نمر بعيدا عن الأماكن القليلة المسكونة. واصلنا المشي. كانت المسالك الوعرة تجذبنا تحت سياط شمس وصلت إلى أوج توهجها. شعر كل من ماروك ومحساس بدوار، فأعطيناهما ما تبقى معنا من الماء ورفعنا عنهما حمولتهما التي تقاسمها كل من بن بلة وبلحاج. أما أنا فأعطيت لي أعمدة الخيام، غير أن آلام رفيقينا الاثنين ازدادت وبدءا يتقيآن، وحتى المساء عاشا محنة حقيقية[1]. كان يجب الاستمرار في المشي لكي نصل قبل الليل إلى مرتفع سيدي يحيى حيث- يوجد حسب الخريطة العسكرية التي بحوزتنا- مجرى مياه يدعى العناصر.

لم تكذب الظهرة الخريطة العسكرية في هذه المرة، حين وصلنا للمكان المشار إليه، لم نجد عناصر بل، حسب تعبير الكاتب جيونو:"نهرا ذا عضلات".

كان جريانه إعلانا عن مرفأ للراحة وجو لطيف إلى حد الغرابة. قام الذين كانوا يحتفظون بقسط من اللياقة البدنية وكنت من بينهم بنصب الخيام وإشعال النار وتحضير القهوة والعشاء. حضور الماء المنعش

[1]- عندما التقيت بن بلة بعد إطلاق سراحه عام 1981 فمن جملة الأشياء المشتركة تذكر هذه الرحلة ونداءات ماروك ومحساس اللذان كانا يطالبان باستمرار بفترة استراحة " استراحة ، استراحة"!.

أعطى للمنظر طابعا خارق الجمال، أينما وليت وجهك: شرقا، كانت أعالي جبل زكار مغطاة بالثلوج، وأمامنا يمتد الحاجز المنيع الذي تنتشر قممه حتى /تنس/ البحرية، التى كانت قديما مدينة فينيقية. وجنوبا، كانت الغابات المبسوطة على شكل مدرجات تعلن عن وادي الشلف.

كنت مسرورا لكوني حافظت على رباطة جأشي أثناء الرحلة، وإن كان ذلك يعود إلى تربيتي الجبلية. وفضلا عن ذلك، كان اليوم عيد ميلادي حيث بلغت سن الثانية والعشرين. وكوني هنا، في بلد الأطلس وفي قلب الظهرة مع إخوان من كل مناطق الجزائر، مثّل لي رمزا يعوض ويفوق كل أنواع الاحتفال.

منحنا أنفسنا راحة مستحقة بعد سهرة من العمل. لم يذهب الرقيمي، العاصمي، قبل ذلك إلى "داخل" الوطن. ومع أن والديه من أصل قبائلي كان يجهل كل شيء عن الجبل[1]. لكنه حافظ على صلابته خلال الرحلة-الامتحان- وأظهر ما يمكن أن تسمح به المنهجية والاقتصاد في الحركة والكلام. قرر بلحاج أن يدبر له مقلبا، وبدأ يحضره نفسيا قائلا له أن مخيمنا موجود على مسافة قريبة من المقبرة. وهي الملاذ المفضل لكل أنواع العقارب الفتاكة.

ثم أخذ إبرة ووخز أخمص قدمه خلسة، وكان هلع الرقيمي كبيرا إلى درجة أن صيحته كانت تضاهي صيحات الرجل البدائي في كهفه!

وصلنا مساء اليوم التالي إلى مقربة من محطة العطاف، في وقت مرور القطار الذي تسلقناه حتى عين الدفلى، ومن هناك توجهنا إلى دوار زدين. استمرت رحلة القافلة أسبوعا آخر في ضيعة بدوار زدين على سفوح جبل الونشريس. كان المكان ملكا لعائلة بلحاج وكان يتميز بعزلته. أصبحت أيامنا مليئة بالنشاط ونحن نعمق معارفنا العسكرية بامتحانات ميدانية في المناورة العسكرية والتدرب على الرمي بالأسلحة.

انتهى هذا الجانب من التكوين بامتحانات كتابية وشفهية، فرضها المدرب الوطني جيلالي بلحاج على تلاميذه السبعة. كنت الأول في الترتيب. هل كان ذلك ثمرة قدراتي الخاصة فقط وأنني الأصغر في الجماعة، أم كان ذلك نتيجة "المساعدة"، لأن القائد لابد أن يكون دوما

---

[1]- كانت أمه تتقن القبائلية ب بطريقة متميزة.

أحسن من مرؤوسه؟ ليس مستبعدا أن يكون الحال كذلك ، حيث أكد لي بلحاج وهو يبتسم أن هذا المبدأ معمول به في الجيش الفرنسي.

كان رسم الخطوط العريضة "لمخطط أخضر" النقطة الأخيرة في جدول الأعمال. أصبح لدينا الآن وثائق كثيرة عن الهياكل المدنية والعسكرية للسلطة الاستعمارية، وعن التصورات الاستراتيجية التي يبنى عليها الدفاع عن الجزائر الفرنسية، كخرائط عسكرية واقتصادية ومعطيات رسمية حول تنظيم وتوزيع القوات العسكرية والبوليسية. كنا نعرف أنه تم استحداث لواء للتدخل السريع، يتكون من القوات الخاصة ووحدات مدرعة خفيفة منقولة جواً. وكان دورها التدخل لتدعيم العمل المنوط بمختلف المعاقل المتمركزة في الناحية العسكرية الموجودة منذ الاحتلال والتي تم على أساسها التقسيم الإداري.

ونظرا للمقاومة الطويلة والعنيدة للشعب الجزائري، فكان يمكن القول بأن كل حصن عسكري استعماري يتواجد في أماكن لها قابلية شديدة للمقاومة.

إضافة إلى أنه ينبهنا إلى ضخامة الوجود العسكري الاستعماري والتباين الصارخ في موازين القوى، وصل "المخطط الأخضر" إلى خلاصتين عمليتين أساسيتين. الأولى أنه يتطلب من المنظمة الخاصة أن تعيد النظر في تقسيم دوائرها الإقليمية، وأن تستحدث "مصلحة عامة للاتصال والهندسة". وأجنب القارئ سرد النقاشات التي أدت بنا إلى تحديد "مناطق العمل"، وهي المدن والسهول و"مناطق المقاومة والحماية"، وهي الجبال، غير أنها سمحت لنا بتوضيح[1] أهدافنا وتحديد هياكلنا.

لم يكن لدينا من الغرور ما يوهمنا بأنه يمكننا أن نكوّن في ظرف قصير، وتحت صعوبات السرية ضباطا متمرسين أمام خصم لديه أكاديميات عسكرية شهيرة، تتمتع بتجربة طويلة وأكيدة في القمع العسكري.

---

[1]- ومن بينها الرفض المطلق للمغامرة حيث كان لا يقبل تكرار تجربة ماي 45 وكان أيضا من الضروري التنبؤ بكل الاحتمالات وبالتالي أقيمت عدة مهمات للرصد ومعرفة الأماكن فيما بعد في الساحل والتي قمت بها مع سعيد آكلي في أواسط سبتمبر: مهمة الشلف والسرسو الذي "قام بها بلحاج بوشعيب ومثلث تيارت - عين تموشنت- تيسمسيلت. كما تم القيام بدراسة حول الاتصالات الاستراتيجية نحو المناطق الوهرانية (الونشريس) وقسنطينة (عن طريق جرجرة) والصحراء (عبر التيطري وهي المنطقة الجنوبية للأطلس البليدي).

كنا نعرف أن المدرسة العسكرية الحقيقية ستكون قمة الجبل والقتال نفسه. وكنا نراهن على العبقرية الشعبية لتحريك الكفاح في كل الاتجاهات، وتطويره حتى يخلق كل مرة أشكالا جديدة في فنيات حرب العصابات التي هي حجر الأساس في إستراتيجيتنا.

عدنا إلى الجزائر بعد انتهاء التدريب، وأعطينا لأنفسنا ساعات من الاستجمام على شاطئ بولوغين بن زيري. عدت فورا للعمل على إعداد التقرير الذي كنت قد بدأته. كانت غايته تقديم حصيلة للحزب حول كل الجوانب المتصلة بالمنظمة الخاصة وأفقها، وكان ينقسم إلى أربعة أجزاء.

طرح الجزء الأول معطيات المشكلة وخلص إلى الأشكال التي يجب أن تتخذها الحرب التحريرية، بما أن الجزائر كانت تمثل رهانا إستراتيجيا وسياسيا ضخما داخل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، فقد أصبحت تعتبر جزءا من فرنسا. وبالتالي، ستكرس القوة المستعمرة الوسائل الممكنة لكي تبقى كذلك.

ورأيت أن تفوقها الصارخ في المجالين العسكري أو القمعي يجعل من الانتفاضة العامة أو الإرهاب سلوكين محكوما عليهما بالفشل. والنتيجة من ذلك أن الحرب الثورية لابد أن تكون حرب مقاومة.

وتطرق الجزء الثاني من التقرير إلى تحليل الوضع السياسي، حيث وصل إلى التنديد بسير العمل الشرعي المنتهج. كيف يمكن تفسير النجاح الانتخابي الكبير الذي حققه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء إلا بأن حزب الشعب/الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، تحولت باسم الواقعية إلى حركة "إصلاحية[1]". قدمت كدليل على ذلك ضآلة الجهد المالي واللوجيستي المخصص من طرف الحزب للمنظمة الخاصة والعراقيل الجمة التي واجهتها عمليات التجنيد.

وخصص الفصل الثالث لتقديم الأهداف والإجراءات الضرورية لتسريع وتحضير الثورة:

- إعادة تنظيم الحزب على أسس جديدة تستجيب لضرورة التمركز الأولي في المعاقل الريفية التقليدية.

---

[1]- كانت تلك "الواقعية" تتجلى في عبارات من هذا النوع : "علينا ان لا نحلم فالمستعمرون لهم طائرات بينما نحن لا نقدر على صنع إبرة واحدة".

- سن برنامج يهدف إلى رفع وتعميق الوعي الثوري لهذه الفئات الريفية التي تمتلك وحدها قابلية تحمل التبعات الثقيلة لصراع مسلح طويل.

- الكفاح المشترك مع الشعبين التونسي والمغربي[1].

- عمل سياسي تحريضي تجاه الرأي العام الفرنسي، ليدرك أن عبارات "سيادة وسمعة فرنسا" ما هي إلا تغطية لمصالح كبار المعمرين.

- عمل دبلوماسي مكثف لجلب سند سياسي مادي ومعنوي لكفاحنا.

- تلبية حاجيات المنظمة الخاصة من رجال ومال وأسلحة.

وتطرقت في الفصل الرابع إلى تحديد رزنامة وإنشاء لجنة متفرعة عن اللجنة المركزية لمراقبة تطبيق قرارات المكتب السياسي في اتجاه اندلاع الحرب التحريرية.

فتحديد آجال للتحضيرات لعملنا كان يعني أن نكون مجندين باستمرار، وأن نحتفظ بالمبادرة بخصوص وقت وطريقة الانطلاقة في العمل. وهي أيضا وسيلة لتفادي الملل والإحباط التدريجي عند الشعب. وفي هذا المجال، كان من الضروري أن تكون للمنظمة الخاصة الوسائل التي تسمح لها بتوسيع المد الثوري في المكان والزمان.

قدمت التقرير أولا لأعضاء المكتب السياسي، وسلمته لكل واحد على حده. أعرب شرشالي ولحول- اللذان اطلعا على التقرير بعد خروجهما من سجن بربروس حيث قضيا ستة أشهر- عن موافقتهما التامة على ما جاء في التقرير واتصلا بي لإبلاغي بذلك. كانا يريان أن لا حل غير أن نحضر أنفسنا بجدية، وأن نتحمل مسؤوليتنا بسرعة. وقالا: "أن نذهب للسجن نعم، ولكن لشيء يستحق ذلك". وكان من البديهي أن ذلك هو رأي عامة الجزائريين الذين كانت لهم قناعة راسخة أن طريق صناديق الاقتراع لا تؤدي إلى مخرج ، وأنها خاسرة مسبقا.

---

[1]- اقترحت أن نحث حزب الاستقلال والدستور على تأسيس منظمة خاصة أيضا . وكنا مستعدين لجعلهم يستفيدون من تجربتنا.

حضرت في أواسط شهر سبتمبر اجتماع المكتب السياسي الذي رأسه مصالي الحاج. كان هناك إجماع على ضرورة دراسة التقرير والنظر فيه، وإعطائه التبعات الضرورية. ولكن على أي مستوى ستتم تلك الدراسة؟ كانت هناك مخاطرة في تنظيم مؤتمر وطني، فتقرر في النهاية استدعاء لجنة مركزية موسعة لتنعقد في نهاية شهر ديسمبر.

اقترحت أن يشمل هذا التوسيع كل هيئة أركان المنظمة الخاصة، حيث لم يكن سوى ولد حمودة وأنا من بين أعضاء الهيئة من ضمن تعداد اللجنة المركزية. ولسبب لم أفهمه، قام المكتب السياسي باختيار عضو واحد من بين الرفاق، وهو بن بلة. لماذا اختير هو وليس الآخرين، وخاصة ماروك[1] وبلحاج الذي يحتل بوظيفته كمعلم ومدرب عسكري وطني رتبة أعلى في سلم هيئة الأركان. لم أستوعب هذا القرار الذي خلق لي مشكلا نفسيا. فأشغال اللجنة المركزية الموسعة ستعقد هي أيضا في الضيعة الموجودة في دوار زدّين، معقل بلحاج. والتحضير المادي للاجتماع ليس بالشيء الهين، حيث يتطلب التكفل بتوفير الأكل والمبيت لحوالي خمسين شخصا، وتنظيم عمل الرقابة طيلة مدة الاجتماع. كل ذلك أعطى لبلحاج الإحساس بأنه يشارك في حدث هام. قام باستقبال بن بلة ومحساس، وفي اليوم التالي كان يبدو له من الطبيعي أن يبقى معهم لدى افتتاح الجلسة.

استعملت الكثير من اللياقة لأدعوه إلى الخروج معي، وشرحت الوضع وقلت أن بن بلة غير موجود في الاجتماع لتمثيل المنظمة الخاصة، ولكن باعتباره مراقبا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بالمنظمة الوهرانية[2].

---

[1]- محمد ماروك الذي ينحدر من أصل مغربي كانت له قدرات تؤهله كي يكون قائدا سياسيا، كما كانت له مهارات تقنية أكيدة.

[2]- كنا قد أعربنا عن أسفنا خلال اجتماع هيئة الأركان للتأخر المسجل في هيكلة فصائل المنظمة الخاصة بالمنطقة الوهرانية. وقدم بلحاج تقريرا متشائما بهذا الخصوص بعد جولة تفقدية في المنطقة. وكونه أعدم كخائن خلال حرب التحرير وكون بن بلة وصل إلى الرئاسة بعد الاستقلال لا يمنعنا من سرد الحقائق بدقة في ظل ظرفها التاريخي. فليس من باب التهجم (أو التبرير) لبن بلة أن نقول أنه ركز خلال هذه المرحلة التي كانت لنا فيها صعوبة كبيرة في الانطلاقة على العمل الشرعي. وكان ذلك على حساب إرساء المنظمة الخاصة. وكان قد ضرب عرض الحائط بتعليمتنا الدائمة والخاصة بتفادي الظهور العلني المكثف حيث رشح نفسه لانتخابات مجلس الجزائر. مما كان سيكفله الاعتقال كما حصل للمترشحين لـ 32 لحركة انتصار الحريات الديمقراطية الذين اعتقلوا في ليلة 4 أفريل.

قبل بلحاج ذلك بصدر رحب؛ ولكن ما كان يثير ريبة هذا الرجل ابن "الخيمة الكبيرة" هو أن يجد نفسه كخادم في هذا الاجتماع الغريب والهام، وأن يعامل أمام أهله كأنه "خمّاس".

لازال أحتفظ بذكرى دقيقة لهذا الاجتماع، حيث كان النقاش حراً وحارا ورزينا في نفس الوقت. وكان يدور أساسا حول التقرير المطول الذي قرأته والذي استقبل بترحاب على أساس أنه تقرير توجيهي عام وتحليل وحوصلة. وتمت المصادقة عليه بالإجماع ، باستثناء صوت جمال دردور، جراح الاسنان ونائب المنطقة القسنطينية، الذي أعرب بصراحة عن معارضته للعمل الثوري.

وقد امتنع رئيس الحزب مصالي الحاج عن الإدلاء بصوته. ولم تكن المرة الأولى التي يختار فيها الامتناع، حيث كان يرى أن ذلك يجعله " فوق اللمّة".

من حيث الشكل تميزت التدخلات بالاحترام، وكانت ذات مستوى جيد. وإزاء القمع كان إسمنت الرفقة والصحبة يرص الصفوف ويخمد نزاعات العصب والأشخاص.

ولا أذكر أن أحدا تفوّه بكلام خارج عن اللياقة، ماعدا ضيق صدر بودا من مقاطعات وتعليقات محساس، إذ قال له بالفرنسية: أنت متشرد (vagabond). ولم تكن الكلمة تنم عن حساسية عدائية ، بل كانت مجرد تأنيب أحد قدامى حي بلكور لأحد أبناء حيه.

أحدثت عودة وحدة الرؤى جوا من الابتهاج، وكنا نبتلع بشراهة نقاط جدول الأعمال. ذكريات عديدة ترتبط بذلك الجو، وهي تتناقض بحدة مع الجو الجنائزي والمزايدات في الانبطاح والخنوع التي رأيناها تكسو سلوك الناس أمام "القادة الكبار" و"الاخوة الكبار" و"الرفاق الكبار".

ويضحك الدكتور شوقي مصطفاي مقهقها وسط مجادلة إيديولوجية، ويقول للحضور "رأي كالبصل". وكان محمد خيضر قد سلمه رسالة في ورقة، وأخطأ في كتابة كلمة "أوبينيون" (الرأي) ، فقرأ الدكتور مصطفاي الرسالة وأودعها في جيبه دون ردة فعل، ولكنه كان لا شعوريا قد سجل الخطأ. وهذا ما فسر قهقهته المتأخرة التي كانت غير مفهومة السبب بالنسبة للجميع.

كان الدكتور مصطفاي يشبه في قامته وشكله- وحتى ضحكته المتقطعة- الممثل الأمريكي غريغوري باك. وكان خطيبا بارعا، مع أنه كان يتلعثم في كلامه خاصة في المراحل الأولى " لكثرة ما ضحكت على المتأتئين في طفولتي كدت أن أصبح منهم" كما كان يقول. وعندما دار النقاش حول الحرب الثورية صاح: "أتعرفون أننا سنحتاج لأطنان من السولفاميد لمعالجة جرحانا؟". غير أنه أعرب عن موافقته على التقرير، مبديا ملاحظات مفيدة وطارحا أسئلة جد وجيهة. كان على جبهته ندبة واضحة من ضربة عصا تلقاها من شرطي مكافحة الشغب، عندما كان مسؤولا لفدرالية فرنسا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، يشارك في مظاهرة نظمها العمال الجزائريون للتنديد بسياسة القمع والتزوير الانتخابي. وكان جليا أن للعصا وظيفتين، إذ تحدث أوراما في الدماغ، وتحقق في نفس الوقت تنقلا في الأفكار. ففي خضم الازدحامات السياسية والإيديولوجية كانت العصا تذكر الجميع بالاتجاهات الأساسية[1].

خلال اجتماع زدين هذا التقيت لأول مرة ببلقاسم راجف، الذي كان اسمه بالنسبة لي لا يقل أسطورة عن اسم مصالي والسي الجيلاني[2] والعديد من رواد الحركة الوطنية، والذين كانوا في كل التأسيسات وعاشوا كل عمليات القمع.

حمل هذا الرجل العملاق- الذي كان بائعا متجولا في فرنسا- طيلة حياته أفكار نجم شمال إفريقيا، ثم حزب الشعب والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. كان رجلا وسيما قليل الكلام. وهو ينحدر من عائلة مرابطية بفورناسيونال، وعاش تحولا كبيرا بمعاشرته للقوى اليسارية الفرنسية. وكان يقدم حججه عندما يتكلم باللغة الفرنسية، كما يفعل البناء القبائلي، حجر تلو الآخر. كان منتبها وصبورا مع المتحدثين عندما يستقرون في الموضوع. وكانت له طرق لطيفة وحاسمة في إعادتهم إلى صلب الموضوع عندما يخرجون عنه.

و نظرا لسعة وأهمية هذا الشخص، أسمح لنفسي أن أتكلم عنه في حادثة وقعت أثناء انعقاد دورة أخرى للجنة المركزية، وفي ظرف

---

[1]- سيكون الدكتور مصطفاي ألمع دبلوماسي في الحكومة المؤقتة بالمغرب. وقام في نهاية ربيع 62 بلقاء وإبرام اتفاق وقف إطلاق النار مع جون جاك سوزيني والمنظمة المسلحة السرية .(OAS) . وسيكون عضوا في الهيئة التنفيذية المؤقتة بعد الاستقلال.

[2]- سي الجيلاني هو أحد الآباء المؤسسين لنجم شمال إفريقيا.

يختلف تماما. وكان ذلك في عام 1952. لم أحضر الحدث، ولكن العديد من الشهود الجديرين بالثقة حكوه لي.

كان مصالي قد قدم عرضا حول الجولة الطويلة التي قادته من القاهرة إلى مكة، في صيف1951. كان مبتهجا بالمشرق و بالأشخاص المعروفين الذين استقبلوه، وبالحفاوة التي خص بها. واستعمل مصالي أسلوبا بلاغيا في الكلام مقدما كل التفاصيل، غير أنه لم يتطرق لعمل تدويل القضية الجزائرية التي كانت مهمته الأولى.

كان مصالي يقدم المعلومات بطريقة متناثرة تاركا للمسؤولين مهمة استخلاص ما هو أهم. وكانت بعض التفاصيل لا تغني ولا تسمن من جوع، حيث قال مثلا : "استقبلني جلالة ملك العربية السعودية لدى نزولي من الطائرة وقبلت يده المغطاة بالشعر"!

وبعد أن انتهى من سرد ملحمته، خرج صوت راجف المفحم بالأحاسيس كأنه حكم قاطع: "أيها الرفيق مصالي إن الذي قلته واللاشيء، هما نفس الشيء"

وأشير- مادمت قد قفزت في الزمن- إلى أن مثل هذه الملاحظات أصبح أمرا مستحيلا بعد الاستقلال في الجزائر وفي معظم بلدان العالم الثالث. كان راجف يعرف أن مصالي ليس مستبدا شرقيا (روسيا أو صينيا أو سوريا والقائمة مفتوحة) ، وبالتالي تهكم على القائد دون أن يحس أنه يخاطر بنفسه. أما مصالي فكان يعرف أن راجف رجل وفيّ لمثله ولضميره، وليس لرجل أو لحزب مهما قالوا وفعلوا.

أصبح هذا النوع من العلاقة غير موجود اليوم. ففي أحسن الحالات، يجد المتهور نفسه عاطلا عن العمل وفاقدا لحقوقه المدنية؛ وفي أسوأ الحالات سيخرج من اللجنة المركزية من الباب الخلفي ليقتاد نحو المشنقة.

أضيف أن ماضي راجف كماضي كل إنسان لا يمكن تقطيعه إلى قطع إيجابية فقط. فحياة الإنسان السياسية مثل حياته عموما تشكل كلا ، ومحاولة إخفاء جزء منها هو بتر وتشويه لها.

ففي حياة راجف كان التقارب مع الألمان في 1939 حلقة داكنة، وإن كانت ناتجة عن نظرة تكتيكية. لن أنصب نفسي قاضيا، لأنني غالبا ما لاحظت عند القادة ما أسميته برد الفعل النلسوني ومفاده ان "تحطيم العدو هو الأمر السامي والأعلى ، ومنه تنحدر كل الأوامر. وإن كان منها ما يقلقني فيكفي أن أتجاهلها".

ولنعد إلى اجتماع اللجنة المركزية بزدّين. وصل النقاش إلى مسألة أجور المناضلين الدائمين في الحزب. وكان مسؤول التنظيم السياسي يبرر الفرق بين الأجور الدنيا للإطارات في المدن والإطارات في الريف على أساس أن حاجياتهم تختلف. فصاح راجف مستنكرا: "في فرنسا أيضا يقول أرباب المصانع أن أبناء العمال المهاجرين لا يحبون أكل الشكولاته". وتجب الإشارة إلى أن المناضلين الدائمين يتقاضون أجرا زهيدا، حتى وإن كانوا يعولون عائلة. تدخل بن بلة ليصرح أنه لا يمكن جعل الأعزب وأب " لبز أو لزوج بزوز" في نفس المقام. وأثار استعمال عبارة "البز" المعمول بها عند سكان الحدود الجزائرية المغربية مرحا عاما. فحرف "الزين" المضخم يذكر بأصل الكلمة التي تعني بالقبائلية "جرادة"[1].

أعطى بلحاج الإنذار في اليوم الثالث من الاجتماع، بعد أن قام أحد أعيان الدوار بطرح أسئلة على أحد عمال الضيعة. ففي هذا المكان الخالي كانت العزلة أكيدة، ولكن بالمقابل كانت كل حركة تثير الشبهة. والمكان مهيأ تماما في هذه الحالة لأن تلتقطنا الشرطة كلنا في هذا المخبأ المعزول. ولن تجد فرصة أفضل من هذه لقطع رأس الحركة الوطنية متلبسة بالتآمر ضد الأمن الداخلي والخارجي للدولة .

فمن المؤكد أن كل أنواع الشرطة كانت في حالة استنفار لتحديد مكان تواجد مصالي الحاج، الذي كان قد غادر إقامته الجبرية. وفضلا عن ذلك، كانت ضرورات التموين بالأكل اليومي من شأنها أن تلفت الانتباه، كما قام بعض الرفاق بجولات قصيرة للنزهة في بعض قرى المعمرين. كما وقع حادث أثناء اجتماع ليلي، حيث أصيب النائب خيضر بجرح عميق في يده، بعد أن حاول فتح قارورة حبر كبيرة. ورغم أن أطباء من بيننا أعطوه العلاج الأولي، غير أن الجرح كان يتطلب تخييطه؛ ولهذا السبب، تحركت عدة سيارات في هذا الموسم الشتوي. وبالطبع كانت أضواء السيارات- وهي تمر في موكب- لا يمكن أن تمر دون أن تلاحظ.

قررت اللجنة المركزية تأجيل أشغالها لضرورة الانسحاب الاستراتيجي؛ وتركنا المكان. وكان أول من غادر هم الخارجون عن

[1]- تتعدد العبارات المستعملة في المجتمع المغاربي لتعيين الطفل قصد تفادي أن تمسه عين الحسد. فالطفل يدعى "أمزيان" أي الصغير أو أغرود (القرد) أو آكلي (العبد).

القانون. ركبت أنا وبناي وفيلالي سيارة خيضر البرلمانية، وكان الجرح يمنعه من السياقة فترك المقود لعمر طالب، الذي كان بارعًا وله مهارة فائقة في السياقة. توجهنا نحو الجزائر العاصمة بسرعة، وكان بوقادوم يسبقنا كراصد للطريق، لكي يعلمنا إن اقتضى الحال بوجود حواجز للشرطة. أخذنا طريقا ملتويا عبر الجبال، لكي نتجنب القرى العديدة لوادى الشلف. وصلنا إلى الجزائر مع طلوع الفجر، وأعاد لي خيضر تقريري ووثائقي التي كان يحتفظ بها في الصديري الذي كان يرتديه.

وفي اليوم التالي، عاد مصالي بهدوء إلى إقامته، ولحيته مرفوعة كالعلم.

وكان الأسف لعدم اكتمال دراسة نقاط جدول الأعمال يرافقه أسف على فقدان إقامة كان لنا فيها أكل رفيع. قدمت لنا كل أنواع الطبخ الجزائري، ودفع حضور مصالي المكلفين بالطهي إلى التفنن فيه، خاصة وأن تلمسان مسقط رأسه مشهورة بمطبخها الرفيع.

وكان موعد الأكل من أهم أوقات هذه الجلسة، حيث كانت تتكون مجموعات حسب الميول في الأكل. غير أن بعض الأكولين الكبار كانوا يحدثون الفراغ من حولهم لينفردوا بالأكل، لولا أخذهم بعين الاعتبار لضرورات المساواة وعدد الحضور.

آخر نقطة في جدول الأعمال- التي تعذرت دراستها في زدين بعد اختصار اجتماع اللجنة المركزية- تمت دراستها بعد أيام قليلة في البليدة. اجتمعت اللجنة المركزية للبت في مسألة توزيع المهام في المكتب السياسي، وفي قضية تعيين أمين عام للحزب؛ وهي وظيفة كانت غير موجودة في هياكلنا.

عملت مع بعض الرفاق- ومنهم ولد حمودة- على حث الدكتور الامين على قبول المنصب. كان من الضروري أن يكون هناك منسق نشط، يعمل على تطبيق قرارات زدين، أي التحضير للثورة، ويعطي للعمل الحزبي وتيرة ونفسًا جديدين.

رفض الامين ذلك قائلا إن هذا من شأنه أن يجعله في وضع المنافس لمصالي الحاج، غير أنه أعرب عن استعداده للقيام بكل الأعمال التي سيكلف بها. واستخلصنا من ذلك أنه يرى من الضروري أن تكون له اليد العليا في الأعمال الدبلوماسية، حتى يقوم بحل سريع للمشاكل الحيوية المتمثلة في التسلح والتمويل. لهذا الغرض قدمت اقتراحا يعطي الدكتور

الامين كل السلطات في إدارة الشؤون الخارجية. صادقت اللجنة المركزية على اللائحة، لكنها لقيت استنكارا شديدا لدى معارضي الدكتور الامين، وهم شرشالي ولعمراني وسيد علي والدكتور مصطفاي. ووصل الاستنكار إلى حد أنه استلزم أن أتدخل مع بن بلة لحل النزاع[1] لمساعدة مصالي على إعادة الهدوء. وأدى القائد الوطني دوره ببراعة كحكم، واقترح حسين لحول كأمين عام للحزب.

فسيطرة هذا الأخير على الجهاز ستسمح له بإحداث توازن مع التيار المؤيد للدكتور الامين. وبخصوص المنظمة الخاصة ، أعرب حسين لحول عن رغبته في "أن أواصل مسؤولياتي"، وأكد لي دعمه لي في كل المجالات.

انشرحت لفكرة العمل معه، لأنني كنت أعرف وضوح فكره، ومنهجيته وثباته الراسخ، ووفاءه المطلق لأفكاره[2]. هذا الرجل في ذروة عطاء العمر، يذكر بالقائد النقابي الفرنسي جاك دوكلو، حيث يتمتع بنفس القامة القصيرة والبنية القوية، وله نفس القدرات الخطابية. غير أن لحول كان أكثر جاذبية وأكثر غموضا، وتكفل بوظيفته على أكمل وجه، وأداها بجدية. ومع أنه اختير من طرف مصالي، فلم يكن "رجل الرئيس"[3]، وسيقوم فعلا بعملية تحويل عام لهياكل المنظمة السياسية، مركزا الجهد المادي ونشاط المناضلين الدائمين على التوغل والتمترس العميق للحزب في أهم المعاقل الشعبية.

وبحثا عن النجاعة، فلم يتوان في تجاوز الدكتور الامين، حيث قرر إيفاد وفود إلى المغرب وتونس على جناح السرعة، حيث كلفوا بمهمة مزدوجة تتمثل في طلب مساعدة مالية أو اقتراض مالي من جهة،

---

[1]- وقد وصل الوضع إلى حد أن شرشالي وولد حمودة كادا أن يدخلا في مبارزة جسدية. أعترف أن اقتراحي كان غير موفق خاصة أن الامين كان محل انتقادات حول طريقته في تسيير الشؤون الخارجية وغياباته التي كانت تتكرر دون مبرر. ولكنني لم أجد إنسانا مقتنعا وقادرا على الإقناع وهو معيار أساسي في المهمة الموكلة والمتمثلة في جلب المساعدة حتى من عند "الأصدقاء".

[2]- تشهد على ذلك الاعتقالات المتعددة التي طالته ، أولها عندما كان طالبا في ثانوية سكيكدة و لم يكن يتجاوز سن 17. كما يشهد على ذلك موقفه في معتقل جنين بوررق تحت حكم فيشي. حيث أخرجه المفتش "أو" من الزنزانة ليجبره على حضور مراسيم رفع العلم الفرنسي. بصق لحول على وجه الشرطي . (كان هذا الفعل السبب في التحاق الرجل بجبهة التحرير عام 56). ويقال أن للحول مقولة شهيرة أدلى بها خلال أحد إستنطاقاته العديدة :" إعلم أيها السيد أن لحول يعرف كيف يموت ولكنه لا يعرف الخيانة". وكنت قدمت هذا المثل في المنشور المتعلق "بسلوك المناضل أمام الشرطة".

[3]- وهذا لا يعني أيضا أنه كان منذ ذلك الوقت يخطط للتمرد ضد القائد الوطني ، ويحضر للانحراف نحو اليمين.

والتوصل- ولو جزئيا- إلى الأهداف الاستراتيجية لتوحيد الكفاح على المستوى المغاربي، من جهة أخرى.

لن أدخل في تفاصيل المناقشات التي أثارها الرفاق. وإذا كانت الاتصالات غير مجدية على المستوى العملي، فقد قدمت لنا معلومات ثمينة، سمحت لنا بتقييم الوضع في شمال إفريقيا، وإدخال عناصره الأكثر إيجابية في التخطيط لعملنا.

وكان الموقف يختلف من الشرق إلى الغرب. وتتمثل النقطة المشتركة الوحيدة بين الوطنيين في تونس والمغرب في كونهم يعتبرون الجزائريين متخلفين سياسيا؛ وإن كانوا يعربون عن إعجابهم بشجاعتهم. ففي تونس، اعتبر صالح بن يوسف أمين عام الحزب الدستوري المقترحات الجزائرية "نزوات صبيانية". غير أن بورقيبة- الذي كان أكثر استشعارا لنبض الشارع الشعبي، ولنفاد صبر الشباب التونسي- جعل بن بلة[1] على اتصال مع بعض المسؤولين من النشطاء. وفي المغرب، كان حزب الاستقلال واضحا وصريحا، حيث أكد أن مسألة استراتيجية مشتركة ليست مطروحة؛ لأن السلطان مستعد لإلقاء كل ثقله السياسي والملكي في كفة الاستقلال، وأن ضباطا مغاربة، ذوي رتب رفيعة في الجيش الفرنسي، لن يترددوا- في الوقت المناسب- في اللجوء إلى القوة.

كان واضحا أن حركة التحرير الوطني لا يمكن أن تعتمد إلا على نفسها. وترتب على ذلك ضرورة أن تسارع المنظمة الخاصة في إكمال حشدها الذي كان يصل إلى ألفي رجل. وفي نفس الوقت، قمنا- مرة أخرى- بإعادة تكييف هياكلنا وتقسيمنا الإقليمي، وفق المعطيات الاستراتيجية التي أفرزها مشروع "المخطط الأخضر".

أصبحت هيئة الأركان- المكونة من أربعة أعضاء[2]- هيئة تفكير وتصور، في حين نشأت هيئة تنفيذ للمجلس الأعلى للجيوش الذي يضم قادة المناطق.

---

[1]- كان الوفد يتكون من بوقادوم ودردور وهم نائبين يرافقهما بن بلة كمسؤول من المنظمة الخاصة. اما الوفد الذي ذهب إلى المغرب فكان متكونا من شرشالي والنائب خيضر.

[2]- وهم مفتش وطني (جيلالي بلحاج) ومساعده (رقيمي الذي كان في نفس الوقت قائدا لمنظمة الجزائر)، قائد المصالح العامة والاتصال والهندسة (ماروك)، وقائد الأركان (آيت أحمد حتى ديسمبر 49).

أدت إعادة النظر في المناطق[1] إلى تقسيم الجهة القسنطينية إلى قسمين، حيث عين ديدوش مراد[2] على الشمال القسنطيني، بينما يحتفظ بوضياف بالجنوب، أي الأوراس والزيبان، ويحافظ بن بلة على المنطقة الوهرانية، وولد حموده على القبائل. أما الجزائر المدينة والمنطقة الجزائرية فقد أصبحت تشكل منطقة واحدة يقودها رقيمي. وأخيرا استحدثت منطقة الصحراء وعين عليها أحمد محساس.

وخلق هذا الأخير مشكلة، حيث رفض هذا التعيين بحجة أنه باستثناء بعض الأفواج والمجموعات بالجلفة وورقلة، لا "وجود" لمنطقة الصحراء. كانت تلك إحدى المرات القليلة التي استعملت فيها سلطتي وقدمته إلى مجلس التأديب[3].

كان ذلك مجرد حادث عرضي، حيث أن المنظمة الخاصة دخلت مرحلة تعجيل الوتيرة. كان فريقنا متمرسا ومتضامنا، وكان الأمين العام لحول يدعمنا، فيما كان الدكتور لمين يواصل رصد "البلدان والأحزاب الشقيقة"[4]. فتنظيم الحزب شبه العسكري لحزب الشعب له إمكانيات جيدة وكل شيء كان مهيئا...

بالعكس، لم يكن كل شيء مهيّئا؛ فإذا كان لنا رجال وفروع مختصة فإننا كنا نفتقر كلية إلى العتاد، من أسلحة وأجهزة اتصال وتجهيزات لورشات الهندسة. ومع ذلك، كنا قد تمكنا من جمع بعض الأسلحة في نهاية عام 1948. أخبرنا بوضياف، خلال اجتماع لهيئة الأركان، بوجود سوق مزدهرة للبنادق الحربية في غدامس. وهي مدينة تجارية ليبية هامة قريبة من الحدود الجزائرية، وفي نهاية الحدود البرية التونسية. وكان سي العربي مسؤول المنظمة الخاصة بالوادي، أهم مدينة في منطقة سوف، قد أبلغه بالخبر الذي تلقاه من المضاربين. وتقترح جماعته، تسيير قافلة نحو غدامس يقودها أدلة ماهرون، كي يتجنبوا السقوط في قبضة دوريات الجيش الاستعماري. ولن تدوم الرحلة أكثر من شهرين، حيث أن مدينة الوادي تبعد حوالي 500 كلم عن غدامس عبر الصحاري.

---

[1]- ستنتشر بعد 54 عبارة الولاية. كانت ولايات جبهة التحرير تتطابق عموما مع مناطق المنظمة الخاصة.

[2]- تكلمت في الفصل السابق عن الرجل الذي كان ديدوش ، دوما على استعداد ، لا يطرح شروط مع انه كان له متجر وكان مسؤول عن عائلة.

[3] - اعرف أن كل ذاكرة قد تخونها الأيام ولكنني أؤكد أن ذلك كان السبب في تقديم محساس إلى مجلس التاديب وليس كما قال فيما بعد لكونه عارض توحيد القبائل الكبرى والصغرى في منطقة واحدة.

[4] - كان رصدا دون فائدة في كل من القاهرة وطنجة وتونس .

كانت فرصة سانحة لا يمكن تركها تمر، وانتقلت مع بوضياف إلى مدينة بسكرة.

أخذنا القطار حتى عين مليلة، الموجودة جنوب قسنطينة بحوالي 50 كلم، ثم عبر عربات حديدية حتى مدينة بسكرة. كانت أول رحلة لي نحو الجنوب، وبهرتني روعة المناظر الطبيعية وتنوعها: من مضايق القنطرة وجبال الأوراس إلى الظهور المباغت للواحات وسط الكثبان المترامية. حضرنا اجتماع مجلس المنطقة (الأوراس، بسكرة، الوادي والسوف) في مقر الكشافة الإسلامية الجزائرية. وكان محافظها المحلي، وهو في نفس الوقت قائد المنظمة الخاصة ببسكرة، العربي بن مهيدي نفسه[1].

تدارست مع بوضياف "عملية ليبيا" من كل جوانبها، وكللت العملية بنجاح تام. جلبت كل ميزانية المنظمة الخاصة لشراء الجمال- التي سيعاد بيعها عند العودة- و100 بندقية "ستاتيس"، وكمية كبيرة من الذخيرة، وتكاليف الرحلة. وكانت الميزانية كلها نصف مليون فرنك.

أخذت الأسلحة التي جئنا بها من غدامس إلى الأوراس لكي تخبأ وتحفظ هناك. وحافظ عليها بكل تفان مصطفى بن بولعيد[2]، الذي كان آنذاك مسؤول المنظمة الخاصة بالأوراس. وكان أسفنا الوحيد والفادح هو محدودية الميزانية التي لم تسمح لنا بالاستغلال الأقصى لـ"عملية ليبيا".

في بداية 1949، كانت مسألة العتاد لاتزال مطروحة بنفس الحدة، غير أن خزينة الحزب كانت خاوية. فالمعارك الانتخابية مكلفة ماليا، والدعم المالي للفئات الميسورة لم يكن ليذهب إلى حزب الشعب، بل للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وحليفته "التقية" جمعية العلماء المسلمين. أما النقود القليلة لفلاحي الأرياف والأحياء الشعبية فلم تكن تكفي حتى لتغطية تكاليف صحافة الحزب.

فكيف والحال هذه، يمكن تشكيل قدرات عسكرية في حين أن الحزب لا يملك الوسائل المالية لتخصيصها للمنظمة الخاصة؟

---

[1]- ولد في 1923 بعين مليلة وهو من أهم مؤسسي جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني وأحد منشطي مؤتمر الصومام 56. كان رجلا ذا خلق عظيم وذا شجاعة بدنية نادرة ، أعدمه الفرنسيون في 1957.

[2]- وكان قد جند الكشافة الذي كان يقودها بعد نوفمبر 54 في القتال في الولاية الأولى الذي كان أول وألمع قادتها.

قررنا- خلال إحدى مداولات هيئة الأركان- أن ندرس سرا إمكانية القيام بعملية. استبعدنا- منذ البداية- احتمال القيام بعدة عمليات، لأن ذلك من شأنه لفت انتباه السلطات الاستعمارية. وكان المبدأ المطلق هو المحافظة على الطابع "بالغ السرية" للمنظمة الخاصة.

ومع ذلك، كانت المجازفة ضرورية، شرط أن تكون مدروسة، وأن يتم التركيز على عملية واحدة جديرة بأن نقوم بها.

في نهاية جانفي، أبلغنا جلول نميش[1]، وهو مسؤول في المنظمة الخاصة بوهران كان موظفا في مصلحة البريد عن عمليتين ممكنتين. فهناك القطار البريدي الذي يأتي من بشار في نهاية كل شهر، محملا بمئات الملايين؛ أو بريد وهران المركزي، حيث تتراكم أموال هامة في كل أول يوم اثنين من الشهر.

درسنا المسألة في اجتماع ضيق حضره في الجزائر بن بلة وبلحاج ورقيمي. ومن الوهلة الأولى، رفضت السطو على القطار البريدي، قائلا: "لسنا في الفار ويست، في بلاد الكاوبوي. فعملية كهذه كانت تتطلب تنظيما للهجوم وللانسحاب لا يمكننا تحقيقه. إذن سنقوم بعملية بريد وهران".

كان علينا أن نأخذ الضوء الأخضر من المكتب السياسي، وأخبرت أعضاءه المؤثرين فرديا بمشروعنا؛ مؤكدا أن الحزب سيكون بمنأى عن أي تورط. ففي حالة انكشاف أمرنا، أو القبض علينا، سنتظاهر بأننا جماعة يسارية متطرفة أخذت المبادرة خفية.

في الواقع، كانت موافقة لحول الأمين العام للحزب كافية لحسم القرار، وأعطي لنا الضوء الأخضر مع كل التحذيرات التي يمكن تصورها. وطلب مني بإصرار أن لا أشارك شخصيا في العملية، لأنني قد أورط الحزب على أساس أنني عضو في المكتب السياسي واللجنة المركزية.

في فبراير، أخذت القطار نحو وهران مع بن بلة الذي سيقوم بتنظيم لقائي مع نميش. تم اللقاء في الواجهة البحرية التي تطل على شاطئ وهران. قدمني بن بلة باسم مجيد المسؤول عن تنفيذ المشروع. لم يكن محدثي ثرثارا، وبدا لي من الوهلة الأولى أنه مناضل رزين وجدي.

---

[1]- اسمه الحربي ، القبطان بختي وصار وزيرا للمجاهدين بعد الاستقلال.

ونحن نتكلم، حاولت معرفة ماضيه ونشاطاته السياسية. وبعد ساعة ، كانت المعاينة إيجابية. تطرقنا بعد ذلك إلى موضوع مهمتنا. رسم لنا نميش صورة دقيقة عن البريد: تفتح الشبابيك على الساعة الثامنة. ويحضر الموظفون قبل ذلك بحوالي ربع ساعة، لتحضير الأوراق والوثائق؛ فلا بد للعملية أن تتم في هذا الحيز من الوقت. ولا يمكن- في أقصى الحالات- أن تزيد أكثر من دقيقتين أو ثلاث بعد بداية استقبال الجمهور. وكان هناك شيء آخر حاسم بالنسبة لنا: أن الدخول إلى مكتب المداومة التلغرافية ينبغي أن يتم هو أيضا عبر الباب الخلفي.

قام سويداني بوجمعة بإيوائنا أنا وبن بلة، في فيللا كان يسكنها في ضواحي وهران بشارع فيكتور هوغو. كان سويداني بوجمعة- ابن قالمة- قد نجا بأعجوبة من المجازر التي قضت على شباب المدينة في ماي 45.

كنت قد تعرفت عليه في السنة السابقة بمدينة سكيكدة، حيث كان مسؤولا عن المنظمة الخاصة. كان رجلا صلبا وسريع الحركة، حيث كان قريبا من أهل الباسك في الشكل، وقريبا من النابوليين في الحركة. كنت آنذاك مع بوضياف في جولة تفتيشية، وقررنا- خلال اجتماع المجلس الجهوي- أن نحول نحو الحروش الديناميت الذي تمكن صيادون من القل- مناضلون ومتعاطفون - من جمعه.

تعثرت العملية التي قادها سويداني بوجمعة، حيث سقطت الشاحنة الصغيرة التي أودع فيها الديناميت في حاجز أقامه الدرك عند مدخل مدينة الحروش[1]. وقد تمكن بأعجوبة من الإفلات من الاعتقال؛ فقررنا نقله إلى وهران، وحسنا فعلنا؛ حيث أننا لم نكن لنجد عنصرا أحسن منه لقيادة الكوموندوس الذي سيتكفل بالهجوم على مركز بريد وهران.

هيئت كل التدابير في ظرف ثلاثة أيام، حيث تقرر أن يشارك ثمانية رجال في العملية، على أن يقوم خمسة منهم- بمن فيهم قائد الكوموندوس- بالدخول إلى المبنى، بينما يبقى اثنان في الخارج لحماية السائق. وسيكون على السائق أن ينتظر أمام مدخل المركز البريدي، تاركا محرك السيارة دائرًا. وفيما يخص السيارة، قررنا "اقتراضها"

---

[1]- اعتقل رفقاؤه الإثنين ، ومن بينهم مسؤول المنظمة الخاصة بالقل الذي كان في نفس الوقت نائبا لشيخ البلدية. تناولت الصحافة القضية بإسهاب ، ولامني أعضاء المكتب السياسي على ذلك وخاصة النائب مزغنة الذي خشي توريط الحزب. ولكن كيف يمكن تحضير الكفاح الثوري الذي يرجوه الحزب دون ركوب المخاطر؟

لفترة وجيزة. وفكرت في سيارة أجرة نستقلها ليلة العملية، ونطلب من سائقها أن يأخذنا إلى خارج المدينة. وسيبقى سائق التاكسي في "الطبيعة" تحت الحراسة، على أن تعود إليه سيارته بعد انتهاء العملية.

أخذ بن بلة على عاتقه مهمة إيجاد مناضلين يقومون بالعمل الجانبي، المتمثل في مراقبة السائق، كما اقترح مناضلين آخرين ليكونا ضمن الكومندوس، وهما بلحاج بوشعيب[1] وآخر يدعى فلوح. كان بلحاج بوشعيب نائب شيخ بلدية عين تموشنت الموجودة 70 كلم غرب وهران، وكانت وطنيته قد تكرست بفعل المواجهة والمقاومة ضد مستبدين محليين من المعمرين.

كان رجلا رصينا غير متبجح، ويعود ذلك دون شك إلى أصوله الريفية بالمغرب، وهو أيضا لاعب كرة قدم ذو جسد قوي يليق بلاعب مقدام . وكان قد تكفل بمهمة البحث عن العناصر المؤهلة للتجنيد في المنظمة الخاصة في الونشريس في أكتوبر 1948؛ وهي المهمة التي سبق أن أشرت إليها. وخلالها، تمكن- بفضل روح المبادرة والإحساس بالمسؤولية التي يتمتع بها- أن يجنب رفاقه السقوط في مصيدة نصبها عملاء أنديجان للإدارة.

أما فلوح، فهو طباخ بمستغانم، ولم يكن ينتمي للمنظمة الخاصة. كان بن بلة يصفه بالرجل ذي الشجاعة الإستثنائية. ولم يترك اتصالي الأول به لدي انطباعا جيدا، ربما للوشم الجريء المطبوع على جسده، ولطبائعه التي تذكر بسلوك أعضاء عصابات الإجرام.

عندي حساسية طبيعية وثقافية تجاه رجال "الوسط المشبوه"، حتى لو كانوا قد نضجوا واعتزلوه كما كان حال فلوح.

طمأنني سويداني بوجمعة، الذي كان يثق بنفسه على نحو خاص، هذا الرجل الذي ينتمي لتلك اللوحة الكبيرة من الإطارات الشعبية، الذين أعطوا للثورة سمعتها وقوتها ومجدها؛ وسيصبح فيما بعد أحد قادة الولاية الرابعة حيث سقط في ساحة القتال، غير بعيد عن الجزائر العاصمة. وسيكون نفس المصير المجيد لعضوين آخرين من الكومندوس في القبائل، حيث سيساهمان في انطلاقة أول نوفمبر 1954. وكان القارئ قد التقى بهما سالفا وهما الأخوان الوناس وعمار خطاب.

---

[1] - التقيت ببوشعيب 13 سنة من بعد على نفس المقاعد في المجلس الوطني التأسيسي. عاش دون أن يجعل من ماضيه ريعا.

فالوناس- الذي التحق بالجبل منذ صيف 1945- من ضمن المقاومين الأوائل الذين قاموا بتصفية أعوان من "الانديجان"، الذين ساهموا في عمليات القمع بالقبائل[1]. أما عمار، فقد دخل العمل السري في بداية 1948، بعد تصفية بعض أفراد "الميليشيات السوداء"[2].

كان الاثنان ضمن "مقاومي القبائل"، الذين تم إرسالهم إلى المنطقة الوهرانية من طرف المنظمة الخاصة، بعد أن قضوا أياما من "الجحيم" في العاصمة.

حددت العملية لتكون في أول يوم اثنين من شهر مارس. ففضلا عن أن عملية اختيار السائق لم تكن مسألة هينة، كان علينا أن نجمع العتاد والعدة من مسدسات ورشاشات. كانت الأوامر صارمة فيما يخص استعمال السلاح، وأن يستعمل فقط للتخويف؛ كما كان علينا أيضا إحضار طاقيات لاستعمالها كأقنعة وقفازات وأكياس. واتفقنا على أن نلتقي كلنا في نهاية الشهر.

عدت إلى الجزائر في المساء نفسه، وأخبرت الامين العام للحزب بالاتجاه الذي أخذه المشروع. وافق على ذلك قائلا وعلى شفتيه ابتسامة فيها نوع من اللغز: " تحمل مسؤولياتك". ولم يعلم زملاءه في القيادة إلا قبل موعد العملية بيومين أو ثلاثة أيام، حتى يتمكنوا من اتخاذ الإجراءات الوقائية، كإخفاء الوثائق الهامة التي يمكن أن يكون جو العمل الشرعي السائد قد شجع على تركها في متناول اليد. وجدد حسين لحول توصياته في حال اعتقالنا: على أعضاء الكومندوس أن يصرحوا أنهم أخذوا المبادرة بأنفسهم، دون علم القيادة التي /تبرجزت/ في ظل العمل الشرعي. وكان صارما جدا في مسألة عدم مشاركتي في العملية، حيث كان يعرف حدود مقاومة الإنسان تحت التعذيب.

في اليوم التالي، طلبت من جيلالي الرقيمي- مسؤول المنظمة الخاصة في منطقة الجزائر- إن كان في متناول يده سائق جيد. قلت له إننا في حاجة إلى شاب يكون بارعا في السياقة، ويتمتع ببرودة دم ويحسن الكتمان، ويعرف كيف يتصرف في الحالات المستعصية. وبعد يومين، وجد الرقيمي هذا الطائر النادر. شاب مختص في صناعة القنابل كان ضمن الجماعات المتخصصة في "الهندسة"، اسمه محمد علي خيضر،

---

[1] - نذكر أنه هو من أرسل إلى "القايد" الدموي لبرج منايل يخبره بالحكم عليه بالإعدام ويوم تنفيذ الحكم وأنه وفى بوعده.

[2] - أنظر نهاية الفصل السابق.

ولم تكن تربطه أية صلة قرابة مع نائب الجزائر وعضو المكتب السياسي محمد خيضر؛ واجتاز بنجاح كل الامتحانات المفروضة على من يدخلون المنظمة الخاصة.

قدمه لي الرقيمي فورا بعد ذلك ، وقمت- لبعض الوقت- بمساءلة محمد علي خيضر، وأنا متمسك بوقار وبرودة المسؤول الأكبر.

بالغت إلى أقصى حد- وعن قصد- في تهويل حدة المخاطر المرتبطة بمهمته، دون أن أطلعه على فحواها. صرح أنه مستعد للقيام بواجبه واحترام التعليمات، وإن كلفه ذلك حياته. ثم تبادلت معه أطراف الحديث لأسبر غوره، من زوايا أخرى[1] . وكانت قناعتي قد ترسخت بأن خيضر يصلح أن يشارك في عملية بريد وهران.

انتقلت معه إلى وهران[2] ، التي وصلناها قبل موعد العملية بليلتين. قدمت الخطة ها لأعضاء الكومندوس المجتمعين في بيت سويداني بوجمعة. وعرضت تفاصيل تطبيقها. وقبل ذلك، قدمت تبريرا للقيام بالعملية التي لم نكن نعتبرها عملا بطوليا كبيرا. وأكدت على حجم الاستغلال الذي يتعرض له الشعب الجزائري، والاضطهاد الاستعماري الذي هو سبب فقر الفئات الثورية، أي الحركة التي تريد خوض الكفاح من أجل تحرير البلاد. فمن البنوك ومكاتب البريد تمر ثروات جمعت من عرق وبؤس مواطنينا. وكان من الضروري التذكير بالأهداف النبيلة لتبرير عملية السطو على البريد، ولم يكن من السهل تقبل طرق كفاح قد تبدو شبيهة بعمليات الإجرام .. وحتى أنا عانيت من مساءلات الضمير، ووجدت صعوبة في نقل "الحرارة" لصالح المشروع.

ثم بدأ تقديم مخطط العملية وتحديده زمنيا بصورة دقيقة: على الساعة 7:45، يدخل أحد عناصر الكومندوس عن طريق مداومة التلغراف الصغيرة، ويشاغل الموظف بإعطائه تلغراف طويل باللغة الإنجليزية للإرسال[3]. في الساعة 7:50، يدخل العناصر الأربعة الآخرون، ويتوجهون نحو القاعة التي يوجد فيها صندوق المال المصفح، ويأخذون المال. بين الساعة 7:55 و8، يخرج الرجال الخمسة، ويقفزون داخل سيارة محمد علي خيضر التي تكون في الانتظار على مقربة في شارع هادئ ومحركها يدور. بعدها سيتحرك خيضر بسرعة.

---

[1]- أنظر نهاية الفصل السابق.

[2]- أنظر نهاية الفصل السابق.

[3]- كان التلغرام عبارة عن طلبية طويلة لقماش انغليزي مرسلة إلى شركة مانشستر وقمت بتحريرها بناء على إشهار للشركة قرأته في الجريدة .

أما فيما يخصني أنا وبن بلة، فكانت الترتيبات لما قبل وما بعد العملية كما يلي :

سيسافر بن بلة إلى العاصمة في صباح اليوم التالي (كنا في يوم سبت)، ليقضي الليلة في فندق، حتى يوفر عذرا تبرره بطاقة الشرطة التي يحررها.. ويعود صباح الاثنين إلى وهران، حيث سيأخذ المال نحو العاصمة، ويتم بعدها الانسحاب التدريجي من الفيللا .

وفيما يخصني، تقرر أن أبقى في وهران حتى مساء يوم الأحد، وأن أستقل القطار في الوقت الذي يكون فيه السطو على سيارة الأجرة جاري التنفيذ- وكان مبرمجا في السابعة مساء- وسأصل إلى محطة الآغا بالعاصمة في السابعة والنصف من صباح الاثنين، أي قبل انطلاق قطار بن بلة في الاتجاه المعاكس بثلاثين دقيقة. وسيسمح لي ذلك الوقت بإبلاغه ما إذا كان الجزء الأول من المخطط قد تم تنفيذه بنجاح. وفي الوقت الذي يركب فيه القطار، يكون كل شيء قد تم في وهران.

وتحركت الأمور في مساء الأحد. في السابعة والنصف مساء، قمت بنفسي بإركاب بوشعيب وخيضر في تاكسي. كانا بلباس أوروبي.. بدلة وربطة عنق وقبعة، وكان ممنوعا عليهما تماما أن يتكلما بالعربية. بوشعيب متمكن جدا من اللغة الإسبانية، غير أن الأوامر فرضت عليه أن لا يتكلم كثيرا، ويكتفي بما هو ضروري حتى لا تخونه لهجته.

توجهت بعدها إلى الجزائر العاصمة. بدت لي الليلة طويلة وأنا في عربة الدرجة الثالثة.

وفي محطة الآغا، وجدت بن بلة ينتظرني بقلق. أخبرته أن الجزء الأول من العملية قد تم إنجازه بصورة مرضية، ثم ركب في الإتجاه المعاكس.

قضيت يوم الإثنين في الجزائر، وأنا في حالة قلق شديد. لم يعلن الراديو عن شيء، كما لم تشر الجرائد المسائية إلى المسألة. وبما أن كل اتصال بيني وبين بن بلة كان ممنوعا، فقد طلبت من لحول أن يتصل بمسؤول الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية بوهران، حمو بوتليليس، متظاهرا بأنه اتصال روتيني عادي. لم يكن بوتليليس يعلم بمشروعنا، وفي حالة نجاحه، كان لابد أن يتطرق إلى الموضوع على أساس أنه جزء من الأخبار المتنوعة. فحدث كهذا هو مادة تغذي الحديث دون شك. غير أن بوتليليس لم يشر إلى أي حادث. واتضح سر اللغز في اليوم التالي عند عودة بن بلة إلى الجزائر: فعملية الهجوم على بريد

وهران لم تنفذ. وسبب ذلك أن عطبا ميكانيكيا عطل السيارة قبل الوصول إلى مبنى البريد بدقائق، ولم يتمكن خيضر أو الآخرون من إصلاح العطب؛ فاتخذ سويداني القرار السريع والحكيم بعدم التنفيذ.

تركوا السيارة وانسحبوا بانتظام. وكانوا أذكياء حين لم يتركوا حرارة الفعل تطغى عليهم، وتدفعهم إلى الوصول بالعملية إلى مداها. ومع ذلك كانت لا تزال ثمة فرصة لتنفيذ العملية، لأن لغز التاكسي لم يحل بعد من طرف مصالح الأمن. فصاحب التاكسي أكد للصحافة أن مختطفيه أحسنوا معاملته، غير أنه لا يمكنه أن يعطي أية معلومات تسمح بالتعرف على هؤلاء "المجرمين".

ومع ذلك كنا نترصد رد فعل الشرطة: إذا ما قامت باعتقالات بعض الوجوه المعروفة من الوطنيين من " بيلاج النيقرو[1]"، وإذا ما شددت من إجراءات المراقبة، فهذا يعني أن شكوكها ليست موجهة إلى "الوسط المشبوه" للإجرام. وسنقرر ما نفعله على ضوء ردود الفعل البوليسية تلك.

بعد أن تأكدنا أن رد فعل الشرطة لم يكن كما كنا نخشاه، قررنا المحافظة على مخططنا للهجوم على مركز بريد وهران. وأجل تنفيذ العملية إلى أول اثنين من شهر أفريل/ نيسان.

في أواسط شهر مارس/ آذار، توجهت إلى وهران[2] . اتصلت أنا وبن بلة مرة أخرى بنميش، وأكد لنا أن لاشيء تغير في الإجراءات الأمنية بالبريد، ولا في عادات العاملين فيه. بعد هذه الأخبار السارة، كافأنا أنفسنا بالذهاب إلى السينما جماعة لمشاهدة فيلم "ريبيكا"، الذي قام بالبطولة فيه لورانس أوليفر وجوان فونتان.

اضطررت لمغادرة وهران بعد أيام على جناح السرعة، لأختبئ في بلدة "الرحال" التي تبعد بحوالي 60 كلم جنوب غرب وهران، حيث استقبلني وأواني فرطاس[3]، المسؤول المحلي للمنظمة الخاصة. وسأسرد هذا الحدث الثانوي لأبين الأسباب التي اضطرتني للتواري في هذه البلدة بضعة أيام.

---

[1]- أنظر نهاية الفصل السابق.

[2]- أين جعلني سويداني بوجمعة آكل لأول مرة في حياتي الحلزون .. ونصحته بالمناسبة ان كان ينوي فتح مطعم في القبائل بعدم استعمال كلمة "الببوش" التي تعني الحلزون عند أهل وهران ولكنها في نفس الوقت كلمة جد بذيئة في القبائلية .

[3]- سعدت بلقائه ثانية بعد 13 عاما بعد ذلك في المجلس الوطني التأسيسي .

كان من المفروض أن أتعشى مع بن بلة في إحدى الأمسيات عند الدكتور بومدين بن سماعين. لكنه في آخر لحظة دعانا إلى مطعم "بوتي شي سوا"، على الساعة العاشرة مساء، لأنه اضطر أن يقوم بتوليد زوجته بنفسه في تلك السهرة.

هناك فوجئت حين تعرفت على أحد زبائن المطعم، وهو مفتش الشرطة آيت عامر، من الشرطة القضائية بتيزي وزو. أشرت إلى رفيقيّ أن يتبعاني نحو المطبخ، حيث أخبرتهما بهوية السيد ووظيفته. كان صاحب المطعم قبائليا، وكان يعرف هوية الزبون، وكانت نظرته إلي تسألني كيف أعرفه أنا أيضا؟ وبكل حزم وعنفوان، قال الدكتور بن سماعين: "سأذهب وأرميه إلى الخارج". كان في إمكانه أن يقوم بذلك بكل سهولة، نظرا لقامته الفارعة وحجمه ذي الوزن الثقيل؛ فهو من قام بتمويل دراسته في مجال الطب بمرسيليا من عمله في العتالة بالميناء. لكننا رفضنا الحل المقترح. وكان من الأفضل أن أختفي عن الأنظار بعض الوقت.

لهذا السبب، وجدت نفسي في بلدة الرحال، حيث قضيت أسبوعا من الراحة، كنت أتجول خلاله على درّاجة عبر الدروب المعبدة للمستثمرات الفلاحية الكبرى. وهي حقول لا متناهية من الكروم، تتخللها مدن صغيرة هي: ريو صلادو (المالح) ، وحمام بوحجر، وعين تموشنت.

ومع غروب الشمس، كانت تتراءى مواكب بشرية أنهكها التعب وهدها البؤس، وهي عائدة- في ثيابها الرثة، وعيونها زائغة- نحو الأكواخ البائسة. ومع ذلك، كان المناضلون من "الريف المغربي" يتمكنون بالتزامهم من تكسير جدار اللاتفاهم- إن لم نقل العداوة- التي كان يعمل الاستعمار على خلقه بين المغاربة، حيث كانت تستعمل جيوش العمل الاحتياطي التي تؤجرهم بأجور بخسة.

في بلدة الرحال، وجدت مقاوما من القبائل أصبح حلاقا هناك. اندهش وسرّ لتمكنه من التكلم بالبربرية مع أحد أبناء الريف المغربي.

التقينا قبل موعد العملية بليلتين في شارع فيكتور هيغو، ذات يوم سبت. حدث تغيير، حيث اعتذر فلوح صاحب المطعم المستغانمي، لأن ابنته أصيبت بوعكة صحية خطيرة. وتم استبداله- على جناح السرعة- بعمر حداد، المناضل المعروف بليزيو بلو (العيون الزرق) ، الذي كان

في ذلك الوقت يصارع الملل ببلدة صبرا قرب الحدود المغربية[1]. وقبل فورا المشاركة في الكومندوس، بمجرد أن اقترح عليه ذلك.

في نفس اليوم، وصل من الجزائر مقاومان من منطقة القبائل لكي يتم إدماجهما في المناطق الوهرانية. كان ذلك بفعل صدفة غير مرغوب فيها، إذ أحدث حضورهما جوا من الاستنفار الساخن.

فور وصولهما، قرر المقاوم الذي يعرف باسمه الحربي "وليد القايد" أي /ابن القائد/ ورفيقه الدائم أن يخرجا ليحركا عضلات أرجلهما ويتفسحا قليلا. وهما في نزهتهما، التقيا بدركيين على متن سيارة جيب استدارا بفضول نحوهما، ربما بسبب لباسهما الغريب؛ إذ كانا يرتديان بزة العمل الزرقاء مع سترة مبطنة (كاناديان)! استدار الدركيان وعادا نحوهما طالبين منهما إظهار بطاقات الهوية. أخرج وليد القايد فورا مسدسه عيار 9 ملم وصاح فيهما "أولى مان"! ارفعا أيديكم. ترجاه أحدهما:"لا تطلق النار، لا تطلق النار".

طلب وليد القايد من زميله أن يفر بسرعة، بينما واصل هو تهديد الدركيين بالمسدس وتحييدهما.. ثم أخذ يتراجع للوراء ومسدسه مصوب دائما نحو سيارة الجيب. وبعد أن ابتعد ببضع عشرات من الأمتار أطلق العنان لرجليه راكضا بين الأشجار في خطوط متعرجة، حتى يتفادى طلقات الرصاص التي كان يمطرها وراءه الدركيان. قال لي فيما بعد:"كان الرصاص يصفر من كل جانب".

وصل رفيقه إلى مكان تواجدنا، وقص علينا المغامرة وقصة طلقات الرصاص التي سمعها من بعيد. هل أصيب وليد القايد؟ مر الليل ولم يظهر الرجل. طلب بن بلة من المسؤولين المحليين القيام بتحريات في كل المدينة. تم العثور على "وليد القايد" في حمام! وكانت له الفطنة أن يتوجه نحو صاحبه، لأن أغلب الحمامات كانت مكا لمواطنين من آيت جناد بالقبائل، وكانوا جميعهم تقريبا من مناضلي الحزب.. وهكذا استعدناه سالما معافى[1]!.

---

[1]- التقينا به عدة مرات في هذه المذكرات . نتيجة لخطر محدق به اضطر إلى مغادرة مخبزته بالقصبة إلى السويدانية ، وهي بلدة في متيجة كانت معقلا للوطنيين . وأصبح من الضروري إخلاؤه منها بعد أن تورط في قصة غرامية كادت أن تتحول إلى مأساة . ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش في صبرا بالقرب من الحدود المغربية .

تم البدء في تنفيذ المخطط مساء يوم الأحد كما كان سيتم في شهر مارس. خرج حداد وبوشعيب وخيضر للاستيلاء على سيارة أجرة واحتجازها خلال مدة السفر. لكنهم عادوا في الساعة الثامنة. لقد أصبح سائقو سيارات الأجرة يعيشون في جو من الحذر والريبة والخوف. ومن يقبل منهم أخذ زبائن إلى خارج المدينة، يصطحب معه حارسا شخصيا مسلحا. هل سنضطر مرة أخرى لإلغاء العملية؟ سيكون ذلك مستحيلا، إذ حصلت حركة كثيرة، كما أن انتظار شهر آخر كان من شأنه أن يتلف أعصاب المشاركين في العملية.

قمت لتوي، مصطحبا عمر حداد وآمرا الاثنين الآخرين أن يكونا في الاستعداد. ركبنا الترام متجهين إلى المدينة حيث تجولنا بعضالوقت.

كانت الحركة قليلة في الشارع الأوروبي، في "البوينا دي ديوس"، إذ كان الوقت وقت عشاء. لاحظت سيارة تراكسيون سوداء تحمل على زجاجها الأمامي شارة طبيب. أختصر الباقي لأن القارئ يمكن أن يتصوره.

اتصلت بالطبيب من مقهى قريب قائلا له أن ابني مريض، وأنني سآتيه بعد ساعة؛ سيغتنم عمر حداد هذه الساعة كي يعود نحو شارع فيكتور هيغو ليخطر بوشعيب وخيضر كي ينتظرانا في مكان محدد.

بدت الساعة طويلة جدا، وأنا انتظر في تلك الحانة التي هجرها زبائن الأحد. كنت أنظر باستمرار إلى ساعتي، وفي البال تدور أفكار كثيرة حول العملية التي كنا بصدد القيام بها. تكلم الشاعر شارل بودلير عن "تطابق فكرتين متناقضتين هما الحرية والقدر". وفعلا، لقد اخترنا بكل حرية القيام بهذه العملية، رغم أن الثورة كانت هي اسم قدرنا.

عاد عمر ليخبرني أن الرفيقين سيكونان في الموعد والمكان المحددين.

توجهت نحو الطبيب بشواربي الاصطناعية ونظارات طبية وقبعة باسكية. ركبنا سيارته التراكسيون، ولما وصلنا مفترق طرق أخبرته أن عضوين من العائلة سيكونان في الانتظار! تفاجأ قليلا، لكنه توقف. فتح بوشعيب الباب الخلفي وألقى بنفسه على المقعد؛ موجها فوهة مسدسه إلى ظهر الطبيب وهو يصرخ فيه: "ارفع يديك"!

---

[1]- سيذهب هذا المناضل الشجاع ضحية الأزمة التي نشبت بين المركزيين والمصاليين عام 1952 . جاء إلى الجزائر بناء على استدعاء من مقر الحزب وقتل في اشتباك مع الشرطة . وكان الاشتباك يشبه مشاهد أفلام الواسترن .

صرخ الطبيب، رغم جهدي الكبير وأنا أحاول طمأنته، مؤكدا له أنه لن يمسسه ضرر. تدخل خيضر ليزيحه من مقعد القيادة، وليشعل مصابيح السيارة في الوقت الذي كانت فيه شاحنة قادمة بسرعة من الجهة المقابلة. استسلم الطبيب واتخذ مكانا في الخلف. ركب خيضر مكان السائق. وبعد هذه اللحظة، جرت كل الأمور كما كان مخططا لها. وأخذت القطار إلى الجزائر[1]. وفي الصباح وجدت بن بلة في محطة الآغا. اتفقنا على اتصال هاتفي وكلمة السر، إن كانت هناك ضرورة قصوى للاتصال بي. ويركب بن بلة القطار المتجه إلى وهران، في نفس الوقت الذي كان فيه الهجوم على بريد وهران قد تم بنجاح.

أعرف الخطوط العريضة للعملية عن طريق التقرير الذي رفعه إليّ سويداني بوجمعة، أما التفاصيل، فالذين لا يزالون على قيد الحياة من المشاركين فيها قادرون على إعطاء تفاصيل مهمة.

وصل رجال الكومندوس دون عوائق تذكر إلى قاعة خزينة الأموال. وهناك واجههم حدث لم يكن منتظرا، تمثل في مقاومة القابض (الصراف) الرئيسي الذي لم يكف عن الصراخ: "النجدة ، النجدة".

تمكن بوشعيب وحداد من السيطرة عليه، لكنهما في الواقع قاما بضربه حتى فقدان الوعي بعصيهما المطاطية من النوع الذي تملكه شرطة مكافحة الشغب. ولكن بعد أن أغمي عليه، كيف يمكن فتح الخزينة الحديدية؟ لم تكن لديهم المفاتيح ولا الأرقام السرية الضرورية لذلك. وزيادة على ذلك، كان صراخه قد لفت انتباه الزبائن والفضوليين الذين بدءوا يتجمعون في المدخل. ولم يبق من حل سوى نسيان فكرة السطو على الحصيلة الكبرى، والاكتفاء بما هو في متناول اليد. وبينما قام رجلان من الكومندوس بمراقبة الموظفين، كان الثلاثة الآخرون يجمعون كل الأوراق النقدية التي يجدونها في الصناديق ويفرغونها في أكياسهم وجيوبهم وحتى بين قمصانهم وجلودهم؛ كما فعل عمر حداد. ثم انسحب الكومندوس بطريقة منظمة، وكان بوشعيب يغطي العملية برشاشه "المات".

وفور رؤيته لرفاقه، تحرك محمد علي خيضر- رغم جو الذعر الذي بدأ يخيم- ليوقف السيارة عند المدخل. لكن الجموع المتواجدة عند

[1]- قبل ذلك مررت ببيت الطبيب لأطمئن زوجته التي قد تقلق لتأخره وتبلغ الشرطة . قلت لها ان زوجها سيبقى إلى جانب طفل في حالة خطيرة . وانه سيعود إلى البيت فور تأكده ان الطفل تجاوز مرحلة الخطر . بدت متوترة ، أكان ذلك حدسا أنثويا ؟ على كل كان الوصف الذي قدمته عني للصحافة ينم عن قوة الملاحظة .

المدخل تحركت نحو السيارة لتمنعها من الانطلاق. وكان ذلك رد فعل جماعي متوسطي عفوي. لكن هذه الجموع تراجعت إلى الخلف بمجرد ظهور بوشعيب برشاشه الذي حركه بطريقة توحي بأنه متأهب للقصف.

بعد أن وصل أعضاء الكومندوس، انطلق خيضر بسرعة فائقة، واستعاد بعد ذلك الطبيب حريته وسيارته معا[1].

نفذت المهمة التي وفرت لنا مبلغا فاق الثلاثة ملايين فرنك[2]. وصل بن بلة في الصباح إلى وهران، وقام بإخلاء الفيللا دون لفت الانتباه، وأمّن الغنيمة قبل أن يتم تحويلها إلى الجزائر العاصمة.

وحضر النائب محمد خيضر بسيارته البرلمانية لاستلام المال. وعلمنا فيما بعد أن الحصيلة التي كانت في الخزينة الحديدية تقدر بخمسين مليون فرنك.

---

[1]- قال عن حراسه انهم عاملوه بصفة لائقة ولكنه لم يتمكن من إعطاء وصف دقيق لهم إلا لكنتهم الإسبانية التي كانت بادية.

[2]- مبلغ مهم لكنه لم يكن يمثل كنزا حربيا ، أعطى الحزب نصف مليون من هذه الغنيمة للمنظمة الخاصة أي ما يعادل خمسة أضعاف نفقاتها الشهرية القصوى.

8
مؤامرات وأوهام.. وقائع انحراف

وصل المد الثوري نقطة الذروة عام 1949. كانت حالة التعبئة الاجتماعية والسياسية للطبقة الريفية التي كانت تعيش في أوضاع تزداد بؤسا تنذر بتحول جذري للنظام الكولونيالي.

أصبحت الأمة الجزائرية مدفوعة نحو هذه الحركة الموحدة للفئات الشعبية، الرافضة لأمر واقع ناتج عن أكثر من قرن من الغزو والنهب والإقصاء. وكانت وطنية الجماهير المغروسة في عمق الأرض الريفية تداهم استراتيجيات الأحزاب أيضا. أصبح الدور السياسي للفئات الريفية وتعبئتها الاجتماعية عنصر إدماج للحركة الوطنية الجزائرية حول محورين يشكلهما الأطلسين.

نعرف اليوم أن الإيديولوجيا لا تكفي لتعبئة شعب أو نخبة ، فتجنيد الشعب الجزائري لم يكن نتاج إيديولوجية حزب الشعب -حركة انتصار الحريات الديمقراطية، بل لدوافع مباشرة ملحة وأكثر عمقا، دوافع عقلانية وأخرى لا عقلانية. وهي كلها عوامل لا يجب أن يغفلها البحث التاريخي العلمي.

فالتوغل القوي للفئات الريفية في أبرز مختلف اتجاهات المجتمع الحضري أظهر بجلاء عدم ملاءمة السياسات الحزبية، سواء أكانت إيديولوجياتها ماركسية-لينينية أو عربية- إسلامية.

والتمسك المستبد بالمواقف "الأرثوذوكسية"، كان صورة لشكل العلاقات التي كانت تربط مختلف شرائح البرجوازية الصغيرة مع الجماهير ، حيث كانت لا تعدو أن تكون علاقة استحواذ ومناورة.

وبفضل تقنيات جد متطورة في الدعاية والترويج، كانت الأحزاب تشهر أساطيرها الخاصة لتبرير انتهاجها طريق العمل الشرعي، وتحاول إدماج الحركة الشعبية الواسعة في نهجها. ولم يكن بعيدا الوقت الذي يبرر فيه حزب الشعب-الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية كل قراراته- بما فيها الاضطهاد السياسي- باسم المصلحة العليا للحركة الاستقلالية ضد تواطوء الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وتعصب

العلماء المسلمين، ومحاولات الاحتواء من طرف الحزب الشيوعي الجزائري.

تلكم اعتبارات أولية ، تفسر- ولو جزئيا - ما سمي ب "المؤامرة البربرية" و"المؤامرة الكولونيالية". وهي أزمات حادة فككت حزب الشعب-الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية في وقت كانت فيه الأمة الجزائرية على وشك الإدماج، وعلى أهبة خوض الكفاح التحرري. إنها تعطي عناصر تفسيرية وليست تبريريه لما حدث من أزمة هوية زعزعت الحركة الوطنية في عام1949، وما تزال إلى يومنا هذا تنغص طمأنينة المجتمع الجزائري.

فلننظر في البداية فى "المؤامرة البربرية"، وقبل كل شيء هل كانت هناك مؤامرة حقا؟

كيف تجلت؟ ماهي أهدافها؟ ومن كانوا الفاعلين الحقيقيين فيها؟ وإنني على وعي بتحمل مسؤولية كبيرة أمام الأجيال الجزائرية الشابة، وأنا أضع بين يديها ما أعرف عن الموضوع. فلنبدأ إذن بالوقائع....

في عام 1949 أرسل واعلي بناي إلى فرنسا طالبا قديما من ثانوية بن عكنون، محند سيد علي يحي (المدعو رشيد) ، ليواصل دراسته التي أوقفها في 1946، عندما وضع نفسه تحت تصرف الحزب بمنطقة القبائل.

وصل إلى باريس في جو تعاظم فيه نشاط الوطنيين. لم يتأخر علي يحي ليصبح عضو اللجنة الفيدرالية لحزب الشعب-الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. ولم يكن ارتقاؤه هذا بفعل مزايا شخصية، أو مجهودات خاصة ، بل كان نتيجة للأصداء المترددة في الأوساط القبائلية المهاجرة في باريس للنمو العظيم للحس الوطني في جبالنا. بالفعل لم يكن ضمن فريق القيادة للإقليم، ولم يشارك في الأحداث الكبيرة التي دفعت بنا رغما عنا نحو تحمل هذه المسؤوليات.

لما التحق بنا علي يحيى في عام 46، وجدت صعوبة لإدماجه في هياكلنا في قريته أولا، وبعدها على مستوى دواره الأصلي الذي هو أيضا الدوار الذي أنتمي إليه. وتعود هذه الصعوبة إلى سببين : أولهما أنه ابن أخ القايد الذي كان يعرف الجميع أنه الذراع الأيمن للإداري الفرنسي (دومونت). إضافة إلى ذلك ، كان أبوه يخضع للحالة المدنية الفرنسية.

فوجد نفسه محاطا بنفس الريبة التي لم تكن (عقابا بل احتياطا للمستقبل)، كما كان يقول "فوستال دوكولانج" في كتابه "المدينة العتيقة".

شخصيا، لم تكن لي تحفظات تجاه علي يحي- بالرغم من التعارض التقليدي بين عائلتينا- فقد فرضته على عائلتي لأنني لم أكن أستطيع أن أتجاهل رغبته المثيرة للشفقة في الاندماج الاجتماعي والسياسي. وقد كان أول عمل شارك فيه- إلى جانب اثنين من أعمامي وأحد المناضلين الشباب من قريته، رمضان آيت السعيد- هو الحملة الليلية لكتابة النداءات لمقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي الثاني في ماي 1946.

قد يكون بلعيد آيت مدري، مسؤول ناحية ميشلي، قد جعله يشارك في اجتماعات ونشاطات عامة، ولكن كانت لديه تحفظات كبيرة تجاهه تجعل من المستبعد أن يكون قد أشركه في مشاكلنا الكبيرة، وفي نظرتنا المشتركة للمستقبل. لم يسمع الكثير عن آيت سعيد وآيت مدري، لأنهما كانا من الأشخاص المتواضعين الذين صنعوا صيت الثورة الجزائرية.

لقد كانت عملية الامتصاص التي انطلقت من الجزائر، من جراء نشوة الشرعية، تجذب النشطاء الراغبين في البروز أو الترقية من كل أرجاء البلاد. ولم يقاوم علي يحيى هذا الفاصل من الوقت الذي حدث فيه- وبصورة هادئة- تحول في الاهتمامات والأولويات. فذلك" الذئب الصغير" ما كان مقدّرًا له أن يكون ذئبا، بل مجرد شاب يخدم بلده، لولا التحول والانعراج الانتخابي للحزب.

وها هو تملؤه الخيبة لعدم مشاركته في الأحداث الكبرى لعام 1945، يكتشف عالم الأفكار وينغمس في صخب المقاهي والنقاشات الكبرى للقرن التي كانت تتواصل في مقر جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين الموجود في شارع "ميدي". هناك التقى بمن كانوا يكبرونه سنا كالمحامي تحت التمرين مبروك بالحسين، وطالب الحقوق يحيى حنين، وطالب المدرسة الإسلامية سعيد أوبوزار، وأحيانا طالب الطب الصادق هجرس.

وقد بدأ وأنهى دراسة الحقوق؛ لكنه خلالها تسبب في اندلاع كارثة سياسية حقيقية.

ففي نهاية 1948، في وقت تمت المصادقة بزدّين على تقريري، وفي وقت كان فيه الجناح الثوري للحزب يحاول إخراجه من انسدادات الانغلاق في الشرعية، وتحويل التفكير حول المسائل الكبرى التي تطرح

في أفق الحرب التحريرية، في هذا الوقت، أشهر علي يحيى من باريس راية الانشقاق.

قام بمبادرة تمثلت في جعل اللجنة الفيدرالية تصوت على قرار يدافع عن أطروحة الجزائر الجزائرية، ويدين أسطورة الجزائر العربية الإسلامية. وتمت المصادقة عليه بـ28 صوتا من مجموع 32. وأدى ذلك إلى حملة شنتها فيدرالية فرنسا لحزب الشعب- الحركة من اجل انتصار الحريات ضد التوجه العربي الإسلامي للحزب.

منذ تلك الحادثة، ألصقت بالقبائل- ويجب ذكر الأشياء كما هي- تهمة" البربريزم" مع كل ما تحمل العبارة من إيحاءات لاعقلانية وسلبية، والتي ترتبط بوظيفة " الفزّاعة".

يحدث هكذا أحيانا، وكأنها حبات رمل تمنع آلة من الحركة؛ إذ يوصل أشخاص مغمورون الأمور إلى نتائج مبالغ فيها في الحياة السياسية.

ردت القيادة على الفور، وأرسلت جماعات "كومندوس" من المناضلين لاسترجاع مقرات حزب الشعب- الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية في باريس وفي المدن الفرنسية الداخلية. وأدى ذلك إلى إقصاءات ومشاجرات[1] وتفاقم الأهواء.

كنت آنذاك أوجه كل قواي نحو المنظمة الخاصة. ولم أسمع إلا بطريقة عرضية بفعلة علي يحيى الصغير. اتصلت على الفور بمحند آمقران خليفاتي الذي كان قد خرج منذ وقت قريب من سجن لامبيز (تازولت) حيث كان يقبع منذ مارس 1946 (أخبرني عن فترة الاعتقال هذه أنها كانت أشد قسوة من سابقاتها التي عاشها تحت حكومة فيشي في معتقل جنّين بورزق).

قلت ومازلت أقول أنه حامل راية اللغة الامازيغية[2]، وبالتالي وطني جزائري أصيل. خليفاتي رجل مطبوع على الوفاء، وفيّ للغاية الاستقلالية، مثلما كان جده آمجاهيد (المجاهد). كما أنه رجل وفيّ لدينه يؤدي صلاته بمثابرة وتفان، لكنه كان يعمل- في نفس الوقت- على عدم

1- ضرب محمد خيضر ، نائب الجزائر خلال اجتماع بمدينة روان وجرح عدد من المناضلين وتطلب إدخالهم إلى المستشفى .

2 - حتى بعد ذلك الوقت ظل يرفض الكتابة اللاتينية والتيفيناغ على حد سواء .

إقحام الدين على السلطة السياسية. وكان وفيا أيضا للأبجدية البربرية التي صاغها بنفسه، مثلما كان وفيًّا لطريقته الخاصة في اللباس[1].

كان خليفاتي يحظى باحترام عام في المجتمع القبائلي؛ وقد جعل منه القمع الاستعماري مؤسسة وطنية حقيقية، فيما جعلت منه الحياة الجماعية رجلا حكيما. وإذا كان هناك شخص يستطيع وضع حد للتصرفات اللامسؤولة لعلي يحيى في فرنسا، فهو خليفاتي لا غير.

التقينا في باب الوادى، بالقرب من ملعب /مارسيل- سردان/، وتحدثنا طويلا . هو رجل الأرض العميقة، ورجل المنطق والبصيرة، له حس قوي بالأمور المستعجلة وذات الأولوية. وإذا كان يحبذ بقوة أن يتكفل البرنامج الوطني باللغة الامازيغية، إلا أنه كان يرى أن الحزب- والمجتمع الجزائري عموما- مازالا غير مهيئين للخوض في هذه المسألة. وكان يرى أن الأهم في ذلك الوقت هو تجنيد الجماهير؛ وبالتالي كان متفقا معي على أن لا نترك طيشا صبيانيا يهدر تلك القدرة الثورية الكامنة والهائلة التي تطورت في القبائل، بإعطاء الحجة للجناح المحافظ في القيادة للقيام بمنعرج نحو اليمين تحت غطاء إعادة الناس إلى الصف.

بعد أن أعرب عن اتفاقه مع الحجج التي طرحتها، غادر خليفاتي في الصباح متوجها إلى فرنسا. كان بإمكانه تطويق الأزمة وتقليص الانعكاسات السلبية، لو لم يقم مصالي الحاج بإرسال النقيب صادوق سعيدي- الذي بقي وفيا له مدى الحياة- والدكتور مصطفاي وراجف لدعم العناصر الوفية للقيادة في فدرالية فرنسا.

ساهم النقيب السعيدي إذن في ربيع 1949، في عمليات استرجاع الأمن الداخلي بحماس(وإعادة استتباب الأمن) ، لأنه- هذه المرة- كان لديه الإحساس بأنه في الصف المناسب. ومع أن انتصاره لم يكن نتيجة عمل بطولي فكان من شأنه على الأقل منحه عذرية جديدة.

أدت المعركة التي أطلقها علي يحيى إلى هزيمة كبيرة، وأرسل إلى واعلي بناي مستنجدا. ودون أن يستشير السي واعلي أحدا،أو يعلم رفاقه، توجه على الفور إلى وهران ليركب في اتجاه مرسيليا. كان رد فعله يشبه

---

[1]- قال له الشيخ عمار في وقت كانت الشرطة تجدّ في البحث عنه :" أريد ان افهم . الشرطة تبحث عنك وأنت لا تترك القرية بل تعرض نفسك قبالة الطريق الوطني وأنت جالس بوضوح . وأكثر من ذلك تظن أنك تتنكر في مظلتك الواسعة من القش ونحن في عز الشتاء يبدو لن الحروف التي لا تكف عن رسمها لها مفعول السحر يصيب رجال الدرك بالعمى !

رد فعل أب ايرلندي هادئ عندما يرى عراكا: فهو يشارك في العراك ولا يسأل عن أسبابه إلا بعد انتهاء المعركة.

ولكن ما حدث أن السي واعلي- الرجل الذي يثير رعب الشرطة، التي أعلنته عدوا عموميا رقم واحد- تم اعتقاله حين كان يتأهب للركوب. وقد أحدث اعتقاله صدى قويا ورأت القيادة فيه دليلا على أن علي يحيى كان مسيرا من طرف مصالح الشرطة. ورد على ذلك من يعرفون بـ"البربريست"، متهمين القيادة بالإبلاغ عن واعلي بناي، لأن اعتقاله يخدم قضية "العروبيين".

ومما زاد صب الزيت على نار الأهواء والريبة والاتهامات المتبادلة أن المسؤولين في منطقة القبائل بدءوا يسقطون الواحد تلو الآخر في يد الشرطة. اعتقل عمار ولد حمودة في ترام العاصمة، كما اعتقل سعيد أوبوزار- المسؤول السياسي لناحية تيزي وزو- في العاصمة وكان وحده. وفي الجزائر العاصمة دائما، طوق عمر أوصديق في حديقة مارينغو وألقي القبض عليه، بعد أن حاول الفرار حافيا عبر ممرات الحديقة. وكان عمر حافيا لأنه جلس لتوه على مقعد حتى يلبس "صندله" عندما فاجأته الشرطة، ولم يكن لديه الوقت الكافي للبسه[1]. وبعد أيام قليلة، اعتقل مسؤول المنظمة الخاصة للقبائل الصغرى، عمر بوداود لدى وصوله إلى الحافلة القادمة من الجزائر إلى بغلية.

لم يبق في منطقة القبائل كلها إلا مسؤول واحد لم يقع في الشبكة هو بلعيد آيت مدري. بالنسبة له- وكان ذلك رأي رفاقه المعتقلين أيضا- أن هذه السلسلة من الاعتقالات لا يمكن أن تكون إلا نتيجة تواطؤ عضو أو عضوين من القيادة مع القوة الاستعمارية.

لا أزال أحس- حتى الآن- بالوطأة اليومية الكبيرة لمأساة صيف 1949 هذه عبر الكثير من الذكريات. إنها لمصيبة، وكارثة سياسية. كان التنامي الهائل للوطنية الثورية قد وصل إلى القمة، وها هو يتهاوى نحو المنحنى الحقير للانفجار الداخلي.

أول رد فعل لي، كان محاولة تطويق حجم الخسائر، والعمل- مهما كلف ذلك- على الحفاظ على وحدة الحزب. غير أن هامش حركتي بدأ

---

[1] ـ الرقيمي الذي كان آنذاك مساعدا لبودا في التنظيم السياسي والذي كان أعطى لعمر لوصديق آخر قائمة للمناضلين الذين سيحولون للمنظمة الخاصة شاهد المطاردة.

يتقلص مع تكاثف نيران الاتهامات المتبادلة[1]. وكان علي أن أضاعف من الاحتياطات الأمنية، لأن الشرطة كانت قد تمكنت من تحديد هويتي في قضية عملية بريد وهران.

علمت بذلك من عمر بوداود الذي استطاع- من سجن بربروس- أن يبلغني الرسالة. فمن زنزانته، سمع محافظي الشرطة يسألون محمد علي خيضر عن الهوية الحقيقية للمدعو "مجيد"، وهو الاسم المستعار الذي كان السائق الشاب يعرفني به.

كيف تمكنوا من افتكاك حقيقة عملية السطو على بريد وهران؟ كان ذلك نتيجة لصدفة غبية.

في بداية جويلية، اعتقل بوعلام موساوي- وهو مقاوم من القبائل- في مستغانم حيث كان يعمل في مطعم ليغطي على هويته. كما اعتقلت الشرطة صاحب المطعم أيضا الذي لم يكن إلا فلوح، الرجل الذي اعتذر في آخر لحظة عن المشاركة في عملية البريد.

كان لا يمكن متابعة فلوح إلا بتهمة التواطؤ مع شخص خارج عن القانون- في أسوأ الأحوال- لكنه باح بما لم يسأل عنه، وجعل من نفسه عونا للشرطة.

جيء به إلى الجزائر العاصمة، حيث أصبح يتجول في أهم شوارع الجزائر رفقة مفتشين للشرطة، متفحصا وجوه المارة ليتعرف على تلك التي كان رآها في بيت سويداني بوجمعة، بشارع فيكتور هيغو بوهران حيث قمنا بتحضير العملية. وهكذا وجد محمد علي خيضر نفسه في المصيدة، بينما كان متوجها إلى قاعة سينما، كان مفترضا أن يلتقي فيها بسويداني بوجمعة ومقاومين آخرين.

---

[1]- منذ ذلك الوقت أصبحت أنا أيضا تحت الرقابة على أساس أنني "بربريست" لأنني برمجت عملية تهريب واعلي بناي .كنت طلبت الإذن للقيام بالعملية ولم يعط لي بصفة واضحة ولم يمنع أيضا . توجهت فورا إلى وهران وكان قائد المنطقة للمنظمة الخاصة الحاج بن علة (سيكون الذراع الأيمن لبن بلة بعد الاستقلال ثم رئيسا للمجلس الوطني) على أتم الاستعداد لمساعدتي ، كما تحصلت على المساهمة الفعالة لرجل من بلدتي ، الخياط بن علي ابن قرية تاسافت قرية عميروش ، وكان رئيس بلدية منتخب في قائمة الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية . غير ان واعلي بناي حول في اليوم الموالي نحو الجزائر. تمكنت مع لوصديق من تحديد تواجد السجين ببرج منايل بمقر الشرطة أين جاء لاستنطاقه مسؤولون في الشرطة من العاصمة . ويمكن ان نتصور ماذا كان ينتظر هذا "الصيد الثمين" . قمنا بتحضير فرقتي كومندوس للتدخل عند تحويله إلى السجن نحو الجزائر أو تيزي وزو . كانتا مدججتين بالسلاح يقودهما عمر بوداود وأخوه الصغير موح ارزقي . ولم تتم العملية لان بناي حول إلى سجن تيزي وزو عشرة أيام من بعد دون ان نتمكن من الحصول على المعلومة في وقتها من مصادرنا . كانت المرة الوحيدة التي جعلت فيها المنظمة الخاصة تتبنى مخاطرة خارج غايتها.

وبعد يومين من الحادثة، التقيت- في إطار نشاطاتنا العادية- بالجيلالي الرقيمي، مسؤول المنظمة الخاصة لمنطقة العاصمة. وخلال الحديث، أشار إلى أن خيضر لم يعد إلى بيته منذ يومين، وأن المقاومين الثلاثة الذين آواهم في مرآب يملكه بشارع روفيغو(ارزقي لوني) انتظروه دون جدوى أمام قاعة السينما. لم أصدق ما كنت أسمع. "أتعني أن سويداني والاثنين الآخرين مازالوا في المرآب؟" أجاب الرقيمي بنعم.

انتابني غضب شديد، وصحت :"ألم يخطر ببالك أن يكون خيضر قد اعتقل؟ وفي هذه الحالة، وإن قاوم حتى هذه اللحظة، فإن مقاومته قد تضعف في أي وقت".

أرسلته على الفور إلى المقر المركزي للحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية، ليضعوا سيارة أحد النواب تحت تصرفنا، حتى نتمكن من إجلاء الرفاق الذين كانوا في خطر على الفور. ولما قابلته بعد نصف ساعة، أخبرني أن الطلب قوبل بالرفض. دخلت مقهى، واتصلت هاتفيا بالمقر المركزي طالبا التحدث مع أحد القياديين. حولوني على مزغنة الذي كان نائب الجزائر. رجوته أن يعير سيارته لصديقي لسبب هام؛ وإن لم يفعل ذلك، فسأكون مجبرا على أخذها بنفسي، سواء كانت سيارته أو سيارة نائب آخر. ضمنيا كان المعنى: فكروا مليا في التورط الكبير الذي قد ينجم عن حادث يقع في المقر العام للحركة الشرعية.

عبرت بطريقة مؤدبة ومتحفظة تحسبا للتصنت على الهاتف؛ لكن طلبي الشبيه بالابتزاز أتى بثماره. فبعد لحظات قليلة، جاءت سيارة "ماتفورد"عليها شارة العلم الفرنسي، ونقلت المقاومين الثلاثة والعتاد الذي كان موجودا في المكان، والذي كان يوحي بأنه ورشة لوحدة من الهندسة العسكرية نحو مكان آخر.

ولم تمض على الإخلاء إلا بضع ساعات حتى نزلت الشرطة على مرآب شارع روفيقو. لقد تمكن السائق الشاب من الصمود ثلاثة أيام كاملة تحت التعذيب قبل أن ينطق بالعنوان، تماما كما هو منصوص عليه في المنشور المعنون بـ: "سلوك المناضل أمام الشرطة".

بعد الاتهام القضائي الرسمي الذي وجه إليّ، قام درك باليسترو/الاخضرية/ بتعليق الأمر بتوقيفي على باب بيت أهلي. ومن المصادفة الغريبة أن الرجل الذي قام بتنفيذ هذا الإجراء هو الدركي

برتبة مساعد لوكا، وكان قبل ذلك قائد فرقة ميشلي لفترة فاقت العشر سنوات، وكان يحظى باحترام السكان فيها.

كان لوكا يملك سلسلة من الجمل القبائلية العامة تسمح له بالتحدث مع الجميع. فكان يخاطب الصيادين المعروفين باختراقهم لقوانين الصيد من بعيد: "ما هذا؟ أأصبحت لا تعرف الثعالب؟".

كان لوكا هو من استمع إليّ عام 1946 بصفة شبه سرية، قبل أن أدان غيابيا. كان الزوجان لوكا متميزين بالنشاز؛ فقد كان هو يفوق المترين طولا وذا شعر أسود، فيما كانت زوجته صهباء، نحيلة وفائقة الحيوية.

كان الاثنان يشكلان- في جو بلدية مختلطة كئيبة- نشازا ملونا مختلفا تميزه البساطة، ويعطي فكرة مغايرة حقا عن فرنسا.

في هذه المرة قال لأبي: "يؤسفني أن أبلغك رسميا بهذه المتابعات. إنني أعرف أن الإدانة الأولى لابنك كانت نتيجة تلفيق من الإدارة، وأنا لا أتصور اليوم أن يكون ابنك متورطا في قضية السطو هذه".

ولكن هذا لم يمنع لوكا من القيام بواجبه، حيث تردد مرارا على أبي لكي يقنعني بفكرة تسليم نفسي، مقدما وعدا بأنني لن أتعرض للتعذيب، وأنني سأحول مباشرة إلى القاضي دون المرور بمقرات الشرطة القضائية، أو شرطة الاستعلامات العامة. كما حاول أيضا استعمال طرق ملتوية، حيث أرسل إلى أمي غجرية قامت معها باللعبة الكبيرة من قراءة خطوط اليد، وفنجان القهوة. وكانت كل الرؤى تؤكد لأمي أن المستقبل سيكون حافلا بالمسرات لو أن ابنها البكر- الذي يبدو أنه واقع في مشكلة- قرر العودة إلى البيت.

أدى الهجوم البوليسي إلى زيادة إجراءات الاحتياط، غير أن الأزمة فرضت عليّ نشاطا متزايدا. اتصلت بمعظم أعضاء المكتب السياسي طالبا منهم، بل مترجيا، أن يكفوا عن تهجماتهم على المسؤولين في القبائل. غير أنهم- باستثناء بودا والدكتور الامين- كانوا مقتنعين أن عملية علي يحيى الباريسية كانت مدبرة، وتدخل في إطار مؤامرة كبرى. وكانوا يجدون دليلا على ذلك في كون أن واعلي بناي، الذي كان هائجا في زنزانته، كان لا قول له إلا تأييد العمل التقسيمي الذي قام به صديقه الشاب، الذي أرسله وراء المتوسط.

طلبت منهم أن يحافظوا على البصيرة، حيث أن سلسلة الاعتقالات التي لم تمس إلا المسؤولين في القبائل تشتم منها عملية استفزاز وتضليل من المستعمر. وقلت لهم "علينا أن لا نخطئ الخصم، لأن بناي وكل المسؤولين المحبوسين أناس جادون ومنطقيون، وأن قضية علي يحيى ماهي إلا شيء عابر. فهو لم يشارك في اللجنة المركزية الموسعة بزدّين، ولا يعرف شيئا عن اختياراتنا الأساسية، ولاعن أهدافنا". ولفتّ انتباههم إلى أنه سيستعصي علينا تحقيق هذه الأهداف لو تم القضاء على كل التأطير الموجود في القبائل.

ولم أتمكن من لقاء مصالي الحاج. فرغم إلحاحي ومحاولاتي المتكررة، لم أحصل سوى على رد مفاده: "انظروا ذلك مع الامين العام". وكان العذر المقدم لرفض مقابلتي هو الخوف على أمني. كان ذلك تهربا ، لأن مسألة أمني الشخصي لم تكن تثير أدنى اهتمام لدى أعضاء القيادة؛ وأقول ذلك دون مرارة اليوم والأمور صارت بعيدة[1]. أما أصدقائي المسجونون، فهم الذين كانوا مشغولين بقضية أمني. فقد جعلتهم وحشية التعذيب الذي مورس عليهم حتى يدلوهم على مكاني يتصورون ما كان ينتظرني لو سقطت بين أيديهم. وأوصلوا لي- عن طريق المحامين، ومنهم الأستاذ بلحسين، وعن طريق العائلات والمناضلين- رجاءهم الحار بأن أغادر الجزائر العاصمة، وألجأ إلى القبائل.

تمكنت عن طريق الأستاذ بلحسين أن أبلغهم رسالة في 40 صفحة، كلفتني عددا من الليالي البيضاء؛ وهي وثيقة سياسية حقيقية وددت لو تمكنت من استرجاعها. عرضت فيها قناعاتي العميقة ومواقفي السياسية بإيمان قد لا أجده اليوم لإيصاله إلى رفاق الكفاح عبر الجدران والمرايا المشوهة للحبس.

عملت على توجيه النقاش والاهتمام إلى خط زدّين السياسي، أي تجسيد القرارات السياسية والتنظيمية. وأكدت أن النزاع هو بين القوات الثورية واليمينيين الشرعيين المدافعين عن الانتهازية الانتخابية، وأن القبائل أصبحت في الواقع- وإن لم يكن ذلك في الهياكل التنظيمية- معقلا

[1] - لم يعرض علي مخبأ أبدا حتى بعد أن تم إبعادي . أقول للأمانة انهم قد يكونوا فكروا أنني لن اقبل اقتراحاتهم من شدة إفراطي في الاحتياط . كنت احتفظ بسرية عناوين مخابئي. وعندما يتطوع أصدقاء من المكتب السياسي لمرافقتي بالسيارة كنت أوقفهم في الطريق وأواصل مشواري راجلا نحو ملجئي السري .

جامعا للقوات الثورية. فمن المستفيد من غير المستعمر من عملية حرف النقاش نحو التناقض بين "العروبيين" و"البربريين".

علينا أن لا نسقط في الفخ، وإن اقتضى ذلك التنديد بالسلوكات اللامسؤولة التي حدثت في باريس. فمنهل هويتنا لا يوجد وراء المتوسط، بل هنا؛ ويكمن في قدرة الجماهير الشعبية الجزائرية على التجند لاسترجاع تحكمها في مصيرها.

لقد تقبلنا فكرة أن استراتيجية التحرر الوطني تمر عبر الحزب كوسيلة وليس كغاية. فعلينا، سواء كان ذلك بفعل ضغط تضليلات المستعمر أو الخصوم السياسيين وضغط الأحداث ذاتها، أن لا نجعل أنفسنا نصل إلى الانقسام والانشقاق.

وناشدت رفاقي أن لا يعيروا اهتماما مبالغا فيه لمسألة أشخاص ستتجاوزهم- على أية حال- الثورة عندما تتحرك. وبموازاة ذلك كتبت إلى مصالي الحاج[1] طالبا لقاءه. كما طالبته بالتدخل لترجيح كفة الحوار، وأشرت إلى أنه لن يكسب شيئا على المستوى الشخصي عندما يفقد الحزب قادته في القبائل، لأنه سيفقد في نفس الوقت- ولمدة طويلة- مصداقيته عند الرأي العام وانسجامه بين شباب المنطقة.

أبلغني الأستاذ بلحسين جواب الرفاق المسجونين: "الثورة انتهت. لقد كنا الوحيدين الذين نؤمن بها، وكنا وحدنا الذين نريدها. كذبوا علينا وخدعونا". وطلبوا مني أن لا أثق في القيادة، وأنه علي مغادرة الجزائر العاصمة والتوجه إلى القبائل. وأضافوا :"نحن المسجونين- وبمساعدة آخرين موجودين خارج السجن- سنكافح من أجل الدعوة إلى عقد مؤتمر ديمقراطي للحزب". وقد وجدت نفس التشبث بفكرة المؤتمر لدى هجرس وحنين وآيت مدري، وكنت قد التقيتهم مرارا مع الأستاذ بلحسين. وكانت حجتهم أن المؤتمر سيسمح بتقييم الأوضاع، والتنديد بتعسف القيادة، وبتحديد أسس وأهداف الوطنية الجزائرية - بصورة ديمقراطية.

"لا وجود لحركة ثورية بدون نظرية ثورية"، هكذا كان يقول لينين في كتابه"ما العمل؟". ربما يكون ذلك صحيحا، ولكن هل يمكن أن تكون هناك حركة ثورية بدون ثوار؟ ومن هم الثوار؟ هل هم أعيان الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، الذين برزوا كالطفيليات بفعل

---

[1]- لم يستقبلني إلا في نهاية ديسمبر .

الانتهازية الانتخابية، والذين ستكون لهم الكلمة العليا في هيكل موسع كمؤتمر للحزب! هل ننتظر منهم أن يحملوا السلاح لخوض الكفاح التحرري أم هي الجماهير الشعبية؟

لكلّ هذه الأسباب، عارضت وناضلت ضد استدعاء المؤتمر . فما نوقش وصودق عليه في زديّن هو أفق العمل المسلح، وليس لعبة الأحزاب العقيمة. سيكون هذا الكفاح كفاح الشعب والجماهير الريفية، وعندما ستتحرك فلن يكون للقادة ما يفعلوه سوى ما يقوله مثل قبائلي :" يمشوا أو يرجعوا بطاقات هويّاتهم".

كنت- على ما يبدو- الوحيد الذي كان يريد أن يقلل من قضية "المؤامرة البربرية" وإرجاعها إلى حجمها الحقيقي. في جويلية/ حزيران 1949، تشكلت تجماعت (جماعة) خاصة بالموضوع.. متكونة من مناضلين قدماء معروفين بورعهم الديني ومحترمين من الجميع منهم مسعود آيت عمار[1]، والشيخ عمار[2]. جاءت الجماعة إلى المقر المركزي، وكانت بادية القلق من المستوى الذي وصلت إليه الأزمة. وكان أعضاؤها يريدون البحث عن حل.

غير أن الأمين العام للحزب لحول استقبلهم واقفا لبعض الوقت، ضرب خلاله بقوة على طاولته، وطرد المناضلين آمرا إياهم أن يمروا عبر السلم الإداري للمسؤوليات.

كان هو من جهة، ومصالي من جهة أخرى، يريان أن في حوزتهما ملفا جيدا في قضية "المؤامرة البربرية". ففيما بعد، قال مصالي في هذا الشأن :" بفضل عصبة لمين- بودا كان "البربريست" كبارا وصغارا يدخلون في جسد الحزب في كل مكان، كدخول الجراثيم في جسد متعب. وتحركوا بسهولة، وذهبوا هكذا لزرع الفيروس في كل فرنسا (...) في الواقع كانوا لفترة من الوقت هم أسياد الحزب الحقيقيين"[3].

---

[1]- كان مسعود ايت عمار صانع لسلحة والتحق بالجبل فيما بعد ككل أعضاء الوفد وأكمل حرب التحرير برتبة مساعد وحاملا للقب/الحمد لله/ لأنه كان يكرر العبارة في كل كلامه. سيصبح بعد الاستقلال منسقا للحزب لمدة أشهر . واستمر في الحمد حتى نزع منه الميكروفون ضابط من الجيل الجديد. حفيظ ياحا ، الذي قال له :" ان الله لا يحتاج لذلك ، فهو فوق كل ذلك . وفوق القادة الذين يغطون سوء تسييرهم بالكلام عن الله .

[2]- كان الشيخ عمار أول قائد لجيش التحرير في منطقة ميشلي . سقط في ساحات القتال وخلفه عميروش .

[3]- أنظر محمد حربي.

هل كان يؤمن حقيقة بـ"المؤامرة البربرية"؟ وفي هذه الحالة، ماذا كان يقصد بـ"البربريست"؟

ألم يكن ذلك وسيلة لتجاهل تبعات قراراته، ولتبرير ظواهر التدمير الذاتي التي حولت الحزب إلى رماد والتي خرجت منه الجزائر الثورية؟

فيما يخصني، ألححت على رفيقي آيت مدري- الذي أصبح المسؤول السياسي الفعلي للقبائل (كل الآخرين كانوا معتقلين)- كي يستشير الإطارات والمناضلين، لأن مصير الحركة الثورية يحسم على الأرض وليس وسط ثرثرة الجزائر العاصمة.

أبلغته أن الامين قد ذهب إلى القاهرة ليتصل بعبد الكريم لدراسة إمكانية العمل المغاربي المشترك، وإيجاد حلول للمشاكل الملموسة للدعم اللوجيستي والمالي. وطلبت منه أن يجد وسيلة آمنة لإبلاغ السي واعلي ورفاقنا الآخرين بهذا التطور، وبمواقفنا، وأن يعرفوا أن الآفاق التي رسمت بجهد كبير في زدّين لم تدفن.

اتفقنا على أن نلتقي لدى عودته في الشهر التالي. وفي نفس الوقت، سيعيد الاتصال المقطوع منذ ثلاثة أشهر مع القيادة مقدما التقرير المالي والأموال التي جمعت.

في أكتوبر 1949، وفي الموعد المتفق عليه، انتظرت- مع آيت مدري- الممثل الذي سترسله القيادة للنظر في الوضع بالقبائل. وكانت مفاجأتي كبيرة حين رأيت بن بلة يصل. قال :"إنني مسؤول عن التنظيم السياسي خلفا لبودا".

كان بإمكانه هو أو المكتب السياسي أن يخبروني بذلك. فبن بلة كان مرؤوسًا لي في المنظمة الخاصة، وكان عليه أن لا يقبل منصبا آخر دون استشارتي. كما كان على المكتب السياسي اطلاعي بذلك لأنني عضو فيه، كما كان لابد أن أشترك في القرار الذي أدى إلى إبعاد بودا.

قدم آيت مدري التقرير المالي لمقاطعة القبائل، وسلم المال لبن بلة، ثم قال بصراحته المعهودة: "ابتداء من اليوم أنا لست المسؤول عن القبائل، لم أقبل أن أدخل في الكفاح ضد الاستعمار كي أقبل دكتاتوريتكم". اندهش بن بلة وطلب تفسيرات فأجابه بلعيد: "أعلم أن الحزب اتصل ببلقاسم كريم . إنكم تظنون أنه من الدهاء تقسيم وتكسير التنظيم في القبائل، أنا لست مستعدا لتحمل صراع بين الإخوة ".

بن بلة، الذي كان لا يتحرج من استعمال العبارات الرنانة والجارحة تهجّم عليه قائلا: "على كل حال أنت إنسان تربى عند الآباء البيض".

أثارت هذه الطريقة في الحكم على الناس- دون معرفة بهم- غضبي فثرت في بن بلة :"من أين لك أن تحكم على الناس هكذا؟ فإذا كان آيت مدري قد درس عند الآباء البيض فذلك لأن أهله كانوا فقراء ولا يمكنهم تحمل مصاريف تعليمه، وقد صار أحسن تلميذ في الرياضيات، وتعلّمه في هذا الوسط لم يمنعه أبدا من أن يكون رجلا تقيا ممارسا لشعائر الإسلام، ولم يمنعه أيضا من تطوير وعي علماني بالمشاكل السياسية[1]".

تلك هي نوعية الحجج التي كانت تستعملها القيادة السياسية في حملة دعائية تطلب فيها فصل مسئولي منطقة القبائل المسجونين. وولدت المبالغة مبالغة مضادة، حيث أن كثيرين من مناضلي القبائل سقطوا في الفخ المعاكس، ودخلوا في هوس معاداة العرب بل حتى معاداة الإسلام. وقد سمح ذلك باللعب على الضبابية، وبروز طروحات إيديولوجية مدهشة في السذاجة[2].

في أسابيع قليلة قضي على تأثير الحركة في القبائل، وتم تحطيم التأطير، وأدخل الشباب في حالة من اليأس. حتى المستعمر لم يكن بوسعه أن يفعل أحسن من ذلك!

أطلق كريم بلقاسم نار مسدسه على مناضل قديم في الحزب وأصابه بجروح بليغة. وهذا المناضل هو علي فرحات الذي رفض الامتثال لدكتاتورية القادة الذين قاموا بتنحية القيادة القديمة في القبائل. وكان هذا الاعتداء فاتحة لتقليد تصفية الحسابات والقمع. وأصبحت الأساطير الإيديولوجية والعسكرة الدعائية للجماهير والإرهاب السياسي المنابع الثلاثة للشعبوية الجزائرية.

---

[1]- لقد كلفت هذه المغالطة "القبائل-الأباء البيض"حياة آيت مدري .مغالطة عمد النصابون في حقل الأيديولوجيات أن يرسخوها في عقول "الشعبويين المجانين" حسب تعبير الكاتب الألماني توماس مان. في نهاية 1964 .كان جريحا وتمت تصفيته بطلقات رشاش مرفوقة بالعبارة الدنيئة الكلاسيكية " بربريست ..ابن الأباء البيض".

[2]- عمل الرفاق الجامعيون على نشر وثيقة أيديولوجية مفيدة حول العناصر المكونة للأمة الجزائرية تحت اسم مستعار "ايدير الوطني" . وكان عنوانه "ستعيش الجزائر الحرة " . أيدت المبادئ الأساسية لهذا العمل الجماعي ولكن النص لم يحظ بالاهتمام الضروري نظرا لحالة العمى السائدة والمستوى الرديء للنقاش السياسي .

توجهت إلى القبائل لتجنب دوامة التصفيات والتصفيات المضادة. تمكنت من إقناع أوعمران والشيخ عمار- اللذان كانا متحفظين تجاه كريم بلقاسم- في أن يسمحا له بـ"أخذ السلطة"، وأن يبقيا في التنظيم كعناصر اعتدال في انتظار أن تتضح الأمور[1]. قبلا أن ينسحبا إلى الجزائر في انتظار نتيجة مخاض الحالة السياسية.

في غضون ذلك، رجع الامين دباغين دون أن يحصل على أي شيء ملموس. اكتفى عزام باشا، الأمين العام للجامعة العربية، بتقديم وعود معربا عن "ثقته التامة في المغرب والمغاربة الذين سيحررون أنفسهم، وسيساهمون بمثلهم في تحرير شعوب الشرق الأوسط".

أماعبد الكريم، فكان يعبرعن احتقار كبير للقادة المغاربيين[2]اللاجئين في القاهرة، وكان يلقبهم بـ"الساسة". فلم يكن يرضى بمساهمة إلا إذا كانت موجهة إلى العمل المسلح.

ولأول مرة ظهر الدكتور الامين نافد الصبر ومتشائما، وكنت أعرف أنه لابد قد طاف على مسانديه باللجنة المركزية قبل أن يأتي ليراني. قال لي :" قُضي على كل شيء، إن لم تقم بعملية انقلاب[3]".

وددت لو كان يمزح، لكنني كنت أعرف أنه لم يكن يمزح أبدا في مسألة الشؤون الجدية.. فما كان يقترحه هو أن ترسل المنظمة الخاصة فرق كومندوس لترحيل القيادة السياسية، واحتلال المقر المركزي والمداومات الحزبية والجرائد!

ولما سألته عما سيحدث بعد عملية احتلال المقرات، طأطأ رأسه. كان مشروعه- على ما يبدو- لا يذهب أبعد من ذلك. ولو لم أكن أعرف بصيرته السياسية وكفاءته المهنية كطبيب لتصورت أنه حالم خطير! القيام بانقلاب! ضربة دولة! ولكن أين هي الدولة!؟ فساحة شارتر (المقر المركزي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية) ليست قصر

---

[1]- لولا برودة دم ووطنية الإطارات "الشعبية" بالمفهوم النبيل لما كان للفريق القيادي الجديد المفروض على القبائل أن يقبل .

[2]- بورقيبة (تونس) وهو من القادة الوطنيين والذي كان من أبصرهم بالأمور واشجعهم سياسيا ، علال الفاسي (المغرب) وكان يتميز بتفتح كبير رغم تكوينه الفقهي ، وعبد القادر طوراس قائد الحزب الإصلاحي في الجزء الإسباني من المغرب .

[3]- في ديسمبر 49 ، قرر المكتب السياسي إقصاء الدكتور الامين بتهمة "المؤامرة البربرية" . وهو بعبع تمت باسمه تصفية الإطارات الثمينة التي كانت ترى -كما هو الحال مع الامين- الانحراف اليميني الذي أخذه الجناح الشرعي والمحافظ .

الحكومة على حد علمي! وعلى أية حال، قلت له إنني لن أخاطر أبدا بمصير المنظمة الخاصة، ومن واجبي أن أحميها من هذا الصراع الداخلي المحموم، كما كنت أحميها دوما من صراعات العصب.

وهانحن في بداية ديسمبر1949. توجهت لحضور الاجتماع الشهري لهيئة أركان المنظمة الخاصة الذي كان سيعقد- هذه المرة- في بيت امحمد يوسفي. لم أجد أحدا هناك، حتى صاحب البيت كان غائبا.. حاولت خلال خمسة عشر يوما أن التقي بالرقيمي أو بلحاج. كنت في البداية شديد القلق على هذا و ذاك. ولكنني فهمت أخيرا أن القيادة صنعت الفراغ من حولي. ولكوني لم أكن ملوما في شيء، ولأني لا أخسر سوى المسؤولية الثقيلة للمنظمة الخاصة، انتظرت الأمور وتركتها تأتي وحدها.

قرر المكتب السياسي أخيرا أن يرسل لي موفدين، هما شرشالي والنائب خيضر، ليطلعا على موقفي بخصوص "المؤامرة البربرية". أجبت باختصار :"لاوجود لمؤامرة بربرية، بل هناك استغلال مبالغ فيه لسلوكات علي يحيى في باريس". وقلت إن الأزمة ناتجة عن عجز الحزب في القيام بالتكفل- ببصيرة وحكمة- بمسألة الهوية الجزائرية بكل مكوناتها. وقلت: "إذا لم أقم أنا ورفاقي بطرح المطالب الثقافية واللغوية البربرية حتى لا نقوض المسار الثوري، فهذا لأننا نقبل أن تكون الجزائر عربية بدل أن تكون فرنسية، ولاحظت في المقابل، أن هناك من يفضل الجزائر الفرنسية على الجزائر البربرية."

لم يتطرق أحد من رفيقيّ إلى وضعيتي في الحزب. هل كانا ينتظران مني أن أقدم استقالتي أو أن أعلن الولاء؟ وعلى أية حال، فقد عادا خاليي الوفاض! كنت أريد أن أعرف إلى أي مدًى سيصل مصالي ورفاقه.

في يوم من ذلك الأسبوع، أبلغني بلوزداد أنه سيمر ليأخذني في اليوم التالي من بلكور: "سيستقبلني سيد الحاج (مصالي).

وصل بلوزداد متأخرا عن موعده بساعة، في سيارة كان يقودها الهاشمي سائق مصالي الحاج. وفي الطريق، حكى لي سبب التأخير وهو ما يزال منفعلا : "لقد تمت محاصرة كل من أوعمران وحداد عند عمر السانكو- مناضل من بلكور- وهما يتبادلان إطلاق النار مع الشرطة

القضائية، وقد تمكنا من الهرب نحو منحدر "المرأة المتوحشة"، وقد يكون أوعمران قد جرح". سألته: "إلى أين تأخذني الآن؟"؛ فأجاب: "إن هناك اجتماعا للمكتب السياسي عند مصالي الحاج وحضورك ضروري". لما وصلنا بالقرب من العقيبة، أوقفت السيارة، وقلت لبلوزداد: "معذرة، ولكني ذاهب. في هذه اللحظة هناك رفيقان حياتهما في خطر. وإذا كان المكتب السياسي مصمما على أن يراني، فأنا مستعد أن آتي غدا في نفس الساعة".

انطلقت راكضا. وفي طريقي، طرقت أبواب بعض المسؤولين بحي بلكور طالبا منهم أن يبلغوا المنظمة الخاصة بصفة عاجلة، وأن يرسلوا مراقبين ودوريات إلى حي العناصر المحاذي لمنحدر "المرأة المتوحشة" بحثا عن المطاردين. وبالفعل تمكنوا من تدارك حداد وأوعمران بالعناصر؛ وكان أوعمران قد تلقى رصاصة في فخذه.

بالنسبة لقيادة سياسية تنظر في اتجاه آخر وبصورة مغايرة، بدا هذا الحادث وكأنه مفارقة عجيبة كالعمق اللغوي والإثني لهؤلاء الرجال.

وفي اليوم التالي، حضرت "جلسة العمل" للمكتب السياسي[1] الذي كان يرأسها مصالي. استقبلني بلطف وبكثير من التمدن. لم يتدخل في النقاش ولا مرة واحدة، ولم يطرح عليّ أيّ سؤال. حضر الاجتماع الأمين العام لحول، إضافة إلى كل من شرشالي وبلوزداد[2] ومزغنة وبن مهل والعمراني وسيد علي.

باستثناء بلوزداد، كانوا كلهم خصوم الدكتور الامين دباغين. كان الفريق متكاملا وموحدا. وماذا كان في جدول أعمال هذا الاجتماع الذي دام ثلاث ساعات؟- "المؤامرة البربرية" فقط. ودون أن يرفع بصره عني، انطلق الامين العام في سرد اتهامات كبيرة ضد "البربريست"، وطلب مني أن أتخذ موقفا واضحا منهم.

---

[1]- لماذا ذهبت إلى الاجتماع في وقت كان رفاقي من سنة 45 ، يتهمون من داخل زنازينهم المكتب السياسي بأنه وراء سجنهم وكنت مطلوبا من الشرطة التي كانت تراقب عن كثب كل من يدخل بيت مصالي ؟ كان سلوكا ساذجا خاصة أنني كنت اعرف ان محاكمتي تمت مسبقا وتمت إدانتي . مع مرور الوقت وان كان الأسف لا يجدي ، هناك أشياء كنت أود لو لم افعلها .كتنظيم عملية السطو على مركز بريد وهران. أو استقالتي فيما بعد من الحكومة الجزائرية المؤقتة حين عدت إلى الجزائر سنة 62 للمشاركة في لعبة سياسية كانت مزورة سلفا .

[2]- لم يمر وقت طويل بعد ذلك الاجتماع وأرسل إلى فرنسا للعلاج ومات هناك في جانفي 52 بمصح بمنطقة "الواز".

بدأت بطرح سؤال بديهي، أو سؤال مسبق حسب تعبير صار سائدا منذ أن أصبح لنا نواب في قصر بوربون. سألت إن كان الاجتماع مجلسا للتأديب ؟ وماهي صلاحيته ومن أعطاه التفويض؟

رد لحول مسرعا: "لا، لا، إننا لا نحاكمك". وكان الآخرون يؤيدون قوله بحركات من رؤوسهم أو بتمتمات.

أشرت إلى أن القيادة لم تشأ أن تجعلني أشارك بانتظام في دراسة القضية، وأن كل الاقتراحات التي قدمتها من أجل الخوض في مساعي حميدة للتقليل من الضرر قوبلت بالرفض. أجابوني: "إنها أزمة خطيرة .. لقد تحمل الحزب مسؤولياته[1]".

ومن ناحية المضمون، كان لا يسعني إلا أن أقول ما قلته لمبعوثي المكتب السياسي، شرشالي وخيضر: الملف غير مقنع. لا يتوفر دليل واحد على وجود مؤامرة؛ بل كانت هناك مجرد استنتاجات تحاك بناء على أفكار مقلقة. حاولوا إقناعي بلطف، وكان كل واحد يدلي بحجته.

لاحظت أنه- إضافة إلى الرفاق المعتقلين- كان هناك رجلان تقرر تحطيمهما، هما الامين وبودا!. "هل تريدون إقناعي أن الامين وبودا هما بربريست؟".

قالوا: "لا، ليسا بربريست، لكنهما جزء من المؤامرة".

كان الهجوم يأتي من كل الاتجاهات، كما يحدث في عائلة كثيرة العدد، حيث يختلط كل شيء.. العواطف والسياسة والأصول العرقية والدين والثقافة. تمسكت بموقفي ولم أتزحزح عنه، قلت لن أدين أصدقائي لأربعة أسباب:

1- لأنني لا أعتقد بوجود مؤامرة .

2- لأنني أشاطرهم الأفكار بخصوص الثقافة واللغة البربرية.

3- الأزمة وليدة رفض النقاش على مستوى هياكل الحزب لهذه المشاكل الأساسية.

---

[1]- في الواقع تجرأ على اخذ مسؤولية اقصاءات كانت من صلاحيات اللجنة المركزية المشكلة في فبراير 47 . كنت عضوا في اللجنة المركزية وكنت اعرف ان هذه الأخيرة لم تكن لها يد في عمليات "التطهير".

4- عندما ظهرت الأزمة كانت كل الوسائل متوفرة لحلها لصالح الحزب والبلد. وقد اخترتم طريق القمع؛ وهو طريق متطابق مع سياسة المستعمر.

كانت كلمة الختام للأمين العام لحول، الذي قال: "كنا نريد سماعك، وهانحن سمعناك".

ومنذ ذلك اليوم- ودون أن أبلغ بأي قرار عقابي- لم أعد أدعى لاجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية[1] وهيئة أركان المنظمة الخاصة.. وعلمت من باب الصدفة أن المكتب السياسي قد عين بن بلة ليخلفني على رأس المنظمة الخاصة، كما خلف بودا على رأس التنظيم السياسي.

أصبحت الآن خارج "قادوس النظام". ومثل قضية "الدسيسة البربرية"، لم تكن المؤامرة الكولونيالية تستند إلى أدنى دليل جدي.

فلننظر في الأحداث.. انطلقت القضية من انزلاقة حصلت يوم 18 مارس 1950، حين قام أربعة مسؤولين من الشرق القسنطيني باختطاف مناضل من تبسة هو عبد القادر خياري. وكانوا يريدون معاقبته لأنه انتقد حزب الشعب، وكانت له نوايا المساس بالمنظمة الخاصة.

اختطف خياري في سيارة. وأثناء دفاعه المستميت عن نفسه، تسبب العراك داخل السيارة في حادث مرور، تمكن خلاله من الفرار والالتحاق بمحافظة شرطة المدينة، حيث أبلغ بكل شيء.

أعلنت حالة الطوارئ، وسقط أعضاء الكومندوس في قبضة الشرطة، وهم حسين بن زعيم- الذي كنت أعرفه جيدا- مسؤول منطقة عنابة وسوق أهراس، وعمار بن عودة[2]، ومناضلان آخران.

وقع خبر وجود منظمة خاصة كالصاعقة على الإدارة الاستعمارية العليا، وفتح الأبواب على قمع جنوني طيلة شهرين. كانت كل وسائل التعذيب من كهرباء ومغطس وغيرها تستعمل بطريقة مكثفة من طرف أجهزة الأمن، لجمع المعلومات واستغلالها في تحطيم المنظمة الخاصة. وتوسعت الآلية القمعية تدريجيا من المنطقة القسنطينية لتشمل الوسط (الجزائر) ثم المناطق الوهرانية.

---

[1]- تم تغييره كلية بعد وقت قليل بعد ذلك .

[2]- سيصبح عقيدا في جيش التحرير وشارك في أولى الاتصالات الجزائرية الفرنسية .

تم اعتقال أكثر من 400 مناضل من المنظمة الخاصة، من بينهم هيئة الأركان الجديدة. تمكن بوضياف وماروك من الإفلات من قبضة الشرطة، بينما اعتقل بلحاج ورقيمي ويوسفي (كان محساس قد اعتقل قبل ذلك بسبب عدم تلبية نداء التجنيد). أما قائدهم أحمد بن بلة، فقد وقع مع أواخر وسط شهر ماي.

في المنطقة القسنطينية، تمكن بن بولعيد وديدوش وبن مهيدي من أن يفلتوا من القمع. لأول مرة كانت الإدارة الاستعمارية تمتلك ملفا ملموسا يؤكد وجود مؤامرة ذات طابع عسكري، ولكنها لم تتبع نداءات المعمرين الكبار وحملاتهم الإعلامية التي كانت تتكلم عن مؤامرة وطنية. لم يطل أي إجراء قمعي القيادة الوطنية لحزب الشعب- الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية. وتم الإفراج عن كل الإطارات الجهوية والمحلية التي تم اعتقالها في بدايات التحقيقات.

اعتقل عبان رمضان وحكم عليه بالسجن[1]، مع أنه كان إطارا سياسيا، ولكن الإدانة استهدفته كمسؤول عن المنظمة الخاصة بالصومام، حيث انتدبه بوضياف وديدوش.

كان هدف الاستعمار واضحا: تحطيم المنظمة الخاصة التي وإن لم تكن العمود الفقري، فهي أرضية رسو وانطلاق القوات الثورية على الأقل.

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم، على الأقل على المستوى الدعائي والقانوني، نفت قيادة الحزب نفيا قاطعا وجود المنظمة الخاصة، واعتبرته من "نسج خيال" الأجهزة الخفية للحكومة العامة، ونددت بوجود "مؤامرة كولونيالية".

لم يكن مهما اعتقال المئات، وحجز الأسلحة والوثائق، وتحديد كل هيكلة المنظمة الخاصة. وأعطى القادة الأوامر للمساجين حتى ينفوا كلية ما ينسب إليهم أمام المحاكم.

ولكي تبرز القيادة حسن نيتها، طلبت من النائب خيضر- الذي كان متورطا في قضية السطو على مركز بريد وهران، حيث استعملت سيارته البرلمانية في نقل الأموال- أن لا يتهرب من العدالة في حالة ما

[1]- لم يفرج عنه حتى جانفي 55 . كنت أنا والعيمش من جنده خلال عطلة كان يقضيها في قريته "عزوزة" القريبة من فورناسيونال. كان آنذاك سكرتير بلدية شلغوم العيد المختلطة .

إذا رفعت عنه الحصانة البرلمانية. رد عليهم قائلا- بأسلوبه الساخر المعهود: "أنتم تريدون أن يتم اعتقالي حتى تتسنى لكم المطالبة بإطلاق سراحي. ومادام الحال كذلك، فلماذا لا تجعلوهم يقتلونكم، فقضيتنا في حاجة إلى شهداء[1]".

في الواقع، أصيب القادة- من مختلف التيارات- بهلع كبير، وأصبحوا لا يترددون في استغلال الاعترافات التي أدلى بها عدد من مسؤولي هيئة الأركان ليبرروا استراتيجيتهم. لم تتمكن القيادة- أو لم ترد- تقييم تلك الاعترافات بطريقة موضوعية. وحسب النائب خيضر وبعض القادة الآخرين، كانت عملية رفع الحصانة البرلمانية عنه، والتي بوشر فيها، تستند إلى اعترافات يمكن قراءتها في الجريدة الرسمية للمجلس الوطني الفرنسي.

وتهجم ولد حمودة- الذي كان في سجن البليدة بعد اعتقاله قبل أشهر مع كل الطاقم القيادي للقبائل- على بن بلة إلى حد الصراع بالأيدي. كان قد فصل من الحزب، لكنه كان موضع ملاحقة في الاتهامات الموجهة للمنظمة الخاصة. وأعلن ابن عم عميروش- بصورة قاطعة- أن بناي وأوصديق وعمار بوداود لم يعترفوا بأية معلومة بخصوص المنظمة الخاصة، رغم تعرضهم لأبشع صور التعذيب. وإذا كان ضحية "للمؤامرة البربرية"، فهو يرفض أن يكون أيضا ضحية "للمؤامرة الكولونيالية". وقرر أن يعلن ويدافع عن مسؤولياته وعمله داخل المنظمة الخاصة. وبعد ذلك، كانت تلك هي نفس استراتيجية "القطيعة" التي سيعتمدها مناضلو جبهة التحرير وجيش التحرير أمام المحاكم في فرنسا والجزائر.

وسيكون نفس الموقف الذي اعتمده 56 وطنيا من القبائل، أغلبهم كان مسجونا في البليدة منذ صيف 1945، وسيحاكمون قريبا في نفس المدينة.

---

[1]- كانوا يراهنون على الانضباط الحزبي ، وكانت الحملة مهيأة مسبقا من لافتات وتجمعات .. وبعد 30 سنة كانت ما تزال شعارات لم تمح بعد في مدينة نانسي مطالبة بإطلاق سراح خيضر". لكن المفارقة كانت غير محتملة بالنسبة للمعني الذي فر في صائفة 51 إلى القاهرة بعد ان أرسل استقالته من جنيف . لكنه عاد بعد انطلاق الثورة وكان له دور كبير ضمن الوفد الخارجي .

كان القضاة مشدوهين أمام هؤلاء الرجال الذين كانوا يتبنون مسؤولية أعمالهم، بل حتى مسؤولية عمليات لم يقوموا بها، حتى يبرئوا ساحة رفاق لهم ممن كانوا يواجهون عقوبة الإعدام[1].

عندما أحاول أن أرجع "المؤامرة الكولونيالية" إلى سياقها التاريخي، أتذكر بالطبع قرار حل المنظمة الخاصة في صيف 1950. اتخذ القرار بالإجماع من طرف القادة الذين كانوا متمترسين وراء الكلمات الرنانة كالوحدة والعروبة والإسلام والثورة. في جو هذه المحنة، شاءت الصدف السرية أن ألتقي ببن بلة لمدة ثلاثة أيام في بوزريعة، وسط صخب اكتشاف المنظمة الخاصة.

كان يؤوينا رجل يعمل في الترام، وكان مسؤولا مهما في المنظمة الخاصة. كما كانت كل عائلته مجندة أيضا. أبوه- ذو اللحية المنورة- من الأعيان المعروفين في الزاوية العلوية[2]. وكان حماسه للاستقلال يتغذى من إيمانه الديني. هذا الشيخ فتح مدرسة قرآنية في كوخ صفيح لأطفال لم يلتحقوا بالمدرسة. وحدث أن قضيت الليل مرارا بهذا الكوخ-المدرسة.

كنت أنا وبن بلة- هذه المرة- مجبرين على قضاء النهار في هذا الكوخ. وكان منظر قائد هيئة أركان المنظمة الخاصة القديم وخلفه الجديد، بين أطفال يتلون بملء حناجرهم آيات القرآن، لا يخلو من الطابع الكوميدي؛ بينما كنا نقضي الليل في الغابة من باب الاحتياط. وفي أحد الصباحات، قابلتنا مجموعة من العمال ونحن نخرج من وراء الأشجار، وعلى ظهورنا بطانياتنا، فقالوا لنا: "أتنامون في العراء في هذا البرد؟ تعالوا معنا إن لم يكن لديكم مكان تنامون فيه".

شكرناهم على دعوتهم، وقال لهم بن بلة: "إننا نفعل ذلك بأمر من الطبيب، لأنني مريض بالسل." ورد أحدهم بإصرار: "تعرفون أن هناك ثعابين خطيرة".

---

[1]- لم يحفظ التاريخ الرسمي هذا الحدث إلا تحت تسمية "محاكمة 56" ، وهي طريقة اعتباطية في التعريف بحدث مازالت ظلاله تثقل الضمائر. كان ال 56 من الأوائل في الكفاح من أجل الاستقلال ، كما هم ليسوا أناسا نكرة اللهم إلا في التاريخ الرسمي الذي لا يقدر على تسميتهم بالإرهابيين ولا يريد تسميتهم المقاومين . هؤلاء ال 56 لم يروا نور الحرية إلا بعد 17 سنة من السجن أي عند استقلال البلاد.

[2]- زاوية أنشأها الشيخ العلوي بمستغانم وكان ينتسب إلى السنوسية دون ان تكون له صلة قربى بهم . وهي فرع من زاوية الدرقاوة.

وانتهت بعدها الليالي تحت ضوء النجوم، التي كنا نسمع فيها أغاني صهيونية تأتي من ضيعة كبيرة مجاورة، حولتها حركة "الارغون" الإسرائيلية إلى مخيم للتدريب.

مشينا معا حتى الزيانية (شاطوناف) ، حيث اشترينا الجرائد وافترقنا ليتوجه هو إلى حي "حسين داي"، عند دوجة وزوجها ابراهيم[1]، وأنا إلى عيادة صولال.

باستثناء "الجزائر الجمهورية"، التي كانت تندد بحملات الحقد والقمع التي يحركها كبار المعمرين، كانت لهجة الجرائد قد ازدادت حدة ضد "الوطنيين". في ذلك اليوم كتب جاك شوفاليي افتتاحية نارية في "لوجورنال دالجي"، مطالبا بإنزال عقوبة مثالية على المخربين، ومستشهدا حتى بآيات قرآنية!

في تلك اللحظة، قابلنا قارئ الحظ- رجل ذو لحية قصيرة يرتدي جلبابا مغربيا. بعد التحية اقترح أن يقرأ لنا مستقبلنا، ولكن علينا "أن نعطيه المفتاح قبل ذلك"؛ وكان يعني أنه لن يؤدي هذه الخدمة مجانا. ثم تنبأ لنا بكثير من السعادة وكثير من العشق، وأننا سنعيش في جو الهدوء والطمأنينة والسلم، "بالرغم من بعض السحب الخفيفة"!

مع نهاية أفريل 1950، التقيت مرة أخرى ببن بلة عند السي ابراهيم والأخوات الرائعات /تاغليت/، اللائى أبلين بلاء حسنا وبطوليا من 1945حتى الاستقلال. قليل من الرجال ممن يحسبون اليوم أبطالا يمكنهم أن يقدموا سجلهن.

كان بن بلة منقطعا عن المكتب السياسي، وكان لا يخفي مرارته واستياءه من القادة الذين تركوه وأهملوه. لقد صار بدوره رجلا يجب تفاديه حتى لا يتورطوا. كان بلحاج ورقيمي في السجن. ما الذي - يا ترى- يكونا قد قالاه للشرطة؟ وكم مدة يستطيعان فيها تحمل التعذيب الوحشي؟

مباشرة بعد الاعتقالات الأولى التي وقعت في تبسة، قمت بزيارة لهم وللرفاق الآخرين في المنظمة الخاصة، وقلت لهم: "لا نعرف من سيعتقل أولا. وفيما إذا اعتقلت أنا الأول فإنني ألتزم بشرف أن لا أورط أحدا منكم. وفي حالة ما إذا ورطتكم، فإنني أسمح لكم بأن تحملوني كل شيء.

---

[1]- مغزي بكوش المدعو سي ابراهيم من بسكرة . زوجته دوجة تاغليت واثنتان من أخواتها كن مناضلات صنديدات .

ولكن في المقابل، لو قام أحد منكم بالإبلاغ عمن أتصل بهم، فلن اتردد في أن أحملكم أخطر القضايا. وعلى أية حال، فما عليكم إلا أن تقولوا للشرطة إنني فصلت من القيادة في ديسمبر، وإنني كنت أتصرف وحدي".

هذا التحذير القريب من الابتزاز كان يهدف إلى حماية العائلات التي آوتني، خاصة الرجل الذي سيصبح صهري في المستقبل مقران تودرت؛ فمع الأيام كان الجميع قد تعرف عليه بصفته الرجل الذي يؤويني وكرجل اتصالي الأمين.

لفتّ انتباه بن بلة إلى أن شقة حسين داي قد تكون "محروقة"، إن لم تكن الشرطة قد اكتشفتها من مدة. ونصحته أن يتصل بسعيد آكلي[1] الذي كان يملك مطعما في ساحة هوش (زبانة). فهو "بربريست"، وتضامن بقوة مع كل من طردوا. وقلت إنه يمكن الثقة في رجل رفض أن يرضخ لكي لا يتناقض مع ضميره[2].

في نفس اليوم، نجوت من الاعتقال بمعجزة. فقبل أن أزور عائلة تودرت التي كانت تتهيأ لحفل زفاف ابنتها الوسطى، دخلت دكانا يبعد كيلومترا عن البيت لأتزود بالمؤونة. كان الدكان ملكا للسعيد آكلي في الماضي بالمشاركة مع مواطن من فورناسيونال. بعد ذلك، توجه اهتمام سعيد إلى خدمة المطاعم بعد سوء تفاهم مع شريكه. وسبق أن قضيت مرارا- رفقة بناي وأوصديق وولد حمودة- سهرات وليالي طويلة في الشقة المرفقة بهذا الدكان. وكنا آمنين لوجود لوح نحاسي على الباب يعلن عن ملكية المحل لضابط في الشرطة القضائية، كان يؤجره للبقالين.

ملأت محفظتي الكبيرة بالسكر والقهوة والشاي، وطلبت من صاحب الدكان أن يتصل بالمحطة لترسل لي سيارة أجرة. قام بذلك على مضض بعد مماطلة حتى صادف وصول السيارة دخول مفتشين للشرطة في زي مدني من المتجولين على الدراجات الهوائية. طلبا مني على الفور بطاقة الهوية.

---

[1] ـ كان مناضلا نشطا ومحنكا وإن لم تكن لديه مسؤوليات في الحزب .

[2] ـ بفضل سعيد آكلي وجد بن بلة ملجأ عند سيدة من الأقدام السوداء . اعتقل هناك في أواسط ماي بعد ان تعرف عليه مخبر وتابع خطاه حتى المأوى . وكان يعرف جيدا هذا المخبر . أرى اليوم ان قيادة الحزب ومجموعة الدوزيام كان بإمكانها لو أرادت ان تجعل الرجل الذي نصبته على رأس المنظمة الخاصة ينجو من القمع . لقد كانت لهم شبكات واسعة في القصبة لتحقيق ذلك .

قدمت لهما بطاقة جديدة لجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين تحمل اسم زرطال[1]. صاح أحد الشرطيين: "ولكن هذه ليست بطاقة هوية"، فأجبته على الفور: "إنها البطاقة الوحيدة التي تشترطها كلية الحقوق".

كنت أجتهد كي أحافظ على رباطة جأشي، كما كنت أفكر في إمكانيات النجاة المحتملة. في الواقع لم يكن من حل أمامي سوى الفرار، لأننا كنا في حي أوروبي. في النهاية، قرر الشرطيان أن يركباني سيارة الأجرة، وأمرا السائق أن يوصلني إلى محافظة الشرطة.

لحسن الحظ، قرر الشرطيان أن يتبعاننا بدراجتيهما؛ وقبل مائة متر من محافظة الشرطة، طلبت من السائق أن يزيد في السرعة، ودعمت الأمر الذي أعطيته له بشتى الحجج الوطنية بما في ذلك مسدسي ذي عيار 7ر65. وشاءت صدفة التاريخ أن يكون السائق متعاطفا مع الحركة من بلكور، وكان يعرف جيدا زميله في المهنة زكال؛ وفضلا عن ذلك كان ابنه مناضلا في المنظمة الخاصة.

خاطر الرجل، وأوصلني إلى الطرف الآخر من المدينة، وزاد في كرمه بأن أرسل لي- عن طريق التسلسل الهرمي للحركة- قلما كان قد سقط مني في سيارته.

لما أنظر إلى هذه الحلقة المأساوية "للمؤامرة الكولونيالية"- التي اتخذت طابع الانهيار الحقيقي- لا يمكنني أن أتفادى التخمين. أعترف أنها تخمينات مجانية.. لأنه لا يمكن إعادة التاريخ. وأتساءل مع ذلك، لو لم تنكشف المنظمة الخاصة في مارس1950، بتلك التبعات الاستراتيجية والسياسية والعضوية المعروفة، هل كان بإمكان الحركة الوطنية الجزائرية أن تتجاوز أزمتها القيادية وتتجنب الانقسام؟ بعبارة أخرى: هل كان الانقسام الذي وقع فيما بعد بين "المركزيين" و"المصاليين" قدرا تاريخيا محتوما[2] ؟ يبقى هذا السؤال مطروحا للباحثين الشباب.

أرى أن الانقسام لم يكن أمرا محتوما على المدى القصير. فالضغط القوي الذي كان يمارسه المعقل الثوري في القبائل تم تحييده، وأصبحت المنظمة الخاصة في"أيد أمينة"، وكان بمقدور القيادة أن تسكت

---

[1]- تعرفت على زرطال الحقيقي في أفريل 65 خلال محاكمتي أمام المحكمة الجنائية الثورية . جاء هو باسم مجلس المحامين ليتفاوض بشان الوقت الممنوح لي للدفاع عن نفسي .

[2]- انقسمت الحركة بين المصاليين الموالين للزعيم ، والمركزيين المدافعين عن القيادة الجماعية في 53- 54 لكن الأزمة كانت مفتوحة منذ 51 .

صراعات العصب والأجنحة تحت حجة محاربة خطر "البربريست"، وبالتالي كان بمقدورها أن تستعيد توازنها.

إنني أستبعد تماما سيناريو قيام قيادة حزب الشعب -الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية- بصفة إرادية- بالإعلان عن اندلاع حرب التحرير، لأن ذلك كان ضربا من الأحلام.

ولكن كان بمقدور الحزب أن يجتاز أزمة سنتي 1951-1952، التي شكلت مرحلة تحول في المنطقة المغاربية. فالضغط الذي كانت تمثله المبادرات الثورية في تونس والمغرب كان من شأنه أن يفتح أفقا للطاقات الوطنية الجزائرية الكامنة، والتي كانت تبحث عن التقاءات أخرى.

هكذا نرى خطورة المسؤولية التي تحملها قائد أو قادة المنظمة الخاصة، الذين أمروا بعملية تبسة التأديبية والانتقامية، والتي - يجب التذكير بذلك - كانت السبب المباشر في إنكشاف أمر المنظمة الخاصة. وأشك تماما في أن يكون بوضياف، مسؤول المنطقة القسنطينية، بانضباطه القوي الذي أعرفه عنه، قد اتخذ المبادرة بصورة انفرادية دون أن يرجع إلى هيئة الأركان وإلى قائدها بن بلة. كان هذا النوع من التأديب والعقاب شيئا جديدا أعاد النظر- رأسا على عقب- في سياسة العقوبات التي كانت سارية تحت مسؤليتي.

هذا التغير- الذي تقرر بتشاور هيئة الأركان- يؤكده وجود عملية مماثلة سبق أن وقعت من قبل، وكان يمكنها أن تحدث الزلزال لولا أن الضحية كان لها رد فعل وطني. كان بمقدور المنظمة الخاصة أن تتكشف في هذه الحادثة التي بدأت حين قرر رئيس مجموعة من المنظمة الخاصة من بسكرة أن يستقيل. وأرسل له بوضياف من قسنطينة فريق كومندوس مكونا من عبد الرحمن غراس وعبد السلام حباشي ومحمد مشاطي.

رأى المناضل المستقيل المجموعة مع مسؤوله المحلي، وربما رأى أيضا المسدس، الذي كان وسيلة الإعدام الوحيدة والكافية؛ فتمكن من الفرار. ولحسن الحظ، لم تكن لهذه القضية تبعات لأنه لم يذهب إلى الشرطة لتقديم شكوى.

وإذا كانت حادثة خطيرة كهذه لم تمنع من الإقرار بالعملية ضد خياري، فهو ما يرجع إلى أنه مفهوم جديد وعنيف أصبح سائدا في مجال العقاب والتأديب .

خلال السنتين الأوليين للمنظمة الخاصة، عالجنا حالات عديدة من قضايا الإخلال بالانضباط وبالنظام الداخلي، مست كل المستويات من

هيئة الأركان حتى المستويات المحلية مرورا بالمناطق والجهات. وفي كل حالة عمدنا على إيجاد حل خاص يجنب أي خطر عن المنظمة الخاصة. وأقدم مثلين عن حالات محرجة واجهناها أنا وبوضياف خلال جولة تفتيش في عنابة.

أولاهما تمثلت في مناضلين اثنين كانا يتعاطيان المخدرات سرا. فأية عقوبة كان يجب إنزالها؟ فصل المدمنين بالطبع؛ ولكن مع توجيه تحذيرات قوية لهما بأنهما سيخضعان للمراقبة، وأن أية معلومة تخرج منهما عن المنظمة الخاصة ستكلفهما غاليا جدا. وتمثلت القضية الثانية في قرار مسؤول محلي رفيع المستوى فصل نفسه بعد أن تزوج. وأصبحت حياته تقضى بين غرفة النوم والمسجد، وفرض على نفسه سلوكا ونشاطات لا يمكن أن تسيء إلى المنظمة التي خرج منها. لم يكن ضروريا أن نعاقبه مادام أغلق على نفسه في تلك الجنة المضاعفة الروحية والجسدية.

وبين نتائج حالة اللاعقاب- التي تنتج عن هذه السوابق الحرجة- والعقاب الصارم الذي ينص عليه النظام الداخلي، عمدنا إلى استعمال الوسائل النفسية وآليات الرقابة التي كانت قوية الردع.

وعدم انكشاف المنظمة الخاصة إلا نتيجة حادثة يرجع أساسا إلى كون مناضليها يحدوهم إحساس كبير بالمسؤولية، وكانوا لا يتركون أنفسهم يتأثرون بالأهواء.

كنت قد وقفت بقوة ضد الرقيمي، مسؤول المنظمة الخاصة لمنطقة العاصمة، حين اقترح إرسال عناصرنا لتأديب عملاء استفزازيين كانوا قد تعرضوا لصهره شرشالي عضو المكتب السياسي. لكني أعترف أن الرغبة في الرد بالعنف على العنف تكون قوية في بعض الأحيان! كما كان ذلك بعد إطلاق النار من طرف عمر عيشون- وهو من أنصار العقبي[1] القدامى- على لخضر رباح، في أسلوب استفزاز بوليسي بعد مشادات كلامية[2]. ومع أن رباح خرج سالما، كان كل حي بلكور- إن لم نقل كل الجزائر العاصمة- ينادي بالانتقام. رفضت في هذه المرة أيضا

---

[1]- كان الطيب العقبي أحد قادة جمعية العلماء قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت تستعمله الإدارة الاستعمارية .

[2]- مع ذلك سيلتقي رباح وعيشون في 56 كمؤسسين ومنشطين للاتحاد العام للتجار الجزائريين تحت إشراف جبهة التحرير .

أن تتدخل عناصر المنظمة الخاصة بالرغم من روابط الصداقة التي كانت تجمعني بالضحية.

بعد حل المنظمة الخاصة، قامت القيادة بإعادة إدماج عدد من عناصرها في التنظيم السياسي[1]. لم يكن الإجراء سوى تأخير للآجال التي كانت تتجه نحو تعميم وتوسيع روح المقاومة.

وبالفعل، سيقوم كثير من المناضلين الآخرين المطاردين من طرف الشرطة، والذين أهملتهم القيادة السياسية التي وصلت إلى حد إعطاء أوامر بمنع أي مساعدة للفارين من سجن عنابة[2] ، بإعادة تجربة مقاومي منطقة القبائل ومواصلتها.

تعلم هؤلاء الاعتماد على غريزة البقاء، وعلى حدسهم السياسي، وعلى الدعم الحر والإرادي للجماهير الشعبية.

تجلى ذلك في قضية "كوليت".

تكلمت من قبل الكيفية التي تمكن بها سويداني بوجمعة من الخروج من مستودع شارع روفيغو قبل وصول الشرطة. بعد ذلك، التحق بمحمد مشاطي الذي كان يختبئ في تلال بالقرب من بودواو التي تبعد حوالي 40 كلم عن الجزائر.

في إحدى الليالي، لفت انتباه سويداني نباح الكلاب في الضيعات المجاورة، وتحقق من وجود عملية حصار.

وبالفعل، كانت هناك قوات كبيرة من الشرطة يقودها المحافظ كولي من البليدة تحاصر المكان. قام سويداني بإنذار رفيقه، وكرّ بقوة في الظلام فاتحا لنفسه ممرا بإطلاق نار رشاشه. أما مشاطي الذي لم يسمع شيئا، لأنه كان نائما على الأذن التي يسمع بها (فقد الأخرى في الحرب)، فقد استفاد من الذهول الذي أحدثه مقتل المحافظ كولي، الذي تلقى الرصاص مباشرة - ليذوب هو الآخر في الطبيعة.

---

[1] - عدد كبير من إطارات مدينة قسنطينة الذين أفلتوا من قبضة القمع أدمجوا في التنظيم السياسي في المنطقة الوهرانية . وسيلعبون دورا رياديا في تكوين جبهة التحرير وجيش التحرير .

[2] - وقت قليل بعد حل المنظمة الخاصة تمكن أربعة من قادتها الجهويين من الفرار من سجن عنابة بعد أن أحرقوا أرشيفه . وهم زيغود يوسف قائد الولاية الثانية فيما بعد والذي اصبح من كبار المخططين الاستراتيجيين للثورة ، وبن عودة الذي سيصبح عقيدا والذي التحق بالمقاومين في القبائل . وقد كان بن عودة ضيف شرف بالنسبة لعائلتي ولكل العائلات التي آوته لأنه جاء من منطقة أخرى من البلاد (عنابة) وكان يجسد مفهوم الوحدة الوطنية . والفارين الآخرين هما سليمان من وادي زناتي وعبد الباقي من عنابة .

تمكن الرجلان من العودة مفترقين إلى العاصمة عبر الحقول، وهي عملية ماراثونية تحققت دون دعم الهياكل المحلية والجهوية والقيادية للحزب، ولكنها استفادت من الدعم الفعال أو السلمي للمواطنين.

وبالرغم من الفواصل التي كانت تفرضها ظروف السرية الصعبة، سيبقى مناضلو المنظمة الخاصة من المناضلين القاعديين والإطارات الوسطى يحافظون على علاقات حميمية خاصة، صقلتها الأخوة في الكفاح المشترك والاحباطات المشتركة التي واجهوها.

وفعلا، كانت بيداغوجية الحياة اليومية مع الجماهير منقذة لهم، لأنهم لم يكوّنوا عقلية عسكرية، كما لم يكن لديهم الإحساس بأنهم "السوبرمان" الذي يحلم بتحرير الناس على الرغم منهم.

9

المغرب الكبير يتحرك

أنا الآن مناضل سري دون وظيفة، لكن ليس دون مسؤولية. ومهما كانت احتياطاتي فإنني مصدر خطر بالنسبة للعائلات التي تؤويني، خاصة عائلة تودرت، مضيفتي الدائمة. ولن أجرؤ على المقاومة بالسلاح فيما لو تم اكتشافي، حتى لا أعرضهم للخطر. لكن ماذا سيحدث لو تم اعتقالي؟ هل يمكن أن أضمن نفسي خلال الاستنطاقات؟ أنا أعرف تماما أن الشرطة لن تدخر وسيلة كي تتحصل مني على اعترافات. فأنا مفتاح لكثير من الأسئلة التي بقيت دون أجوبة. ولا يمكن للسلطات الاستعمارية أن تحلم بشاهد إثبات أحسن مني ضد حزب الشعب- الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. ففضلا عن كوني قدت المنظمة الخاصة مدة عامين، فإنني من العليمين بملفات الأعمال "التحتية" التي بإمكانها وحدها نسف السيناريو الساذج- إلى حد البلاهة- "للمؤامرة الكولونيالية".

"يا شيخ سيقعدونك على قلة (جرة صغيرة طويلة العنق) ويقطعونك إربا إربا"؛ تلك هي كلمات السلام الأولى التي ألقاها عليّ عمر أوصديق عند خروجه من السجن في صيف 1951. كانت الإشارة إلى التعذيب بالزجاجة الرهيبة، وبتلك الطريقة المرتخية، تحمل رسالة بشعة وواضحة، كادت أن تعكر فرحة اللقاء لولا تلك اللهجة القبائلية المنغمة التي تحمل عبق زيت الزيتون البكر المعصور على البارد. لكن- هذه المرة- برحى الجدران الرهيبة لحياة الأسر. ما أزال أذكره في تلك الحانة الصغيرة بشاطوناف، هو أمام كأس الجعة، بينما كنت أتذوق أول كوكاكولا في حياتي. تغير عمر كثيرا. حل محل الحماس في الكلام الانفعال إحساس بالمرارة والسخرية. مازال متيقنا أن اعتقاله لم يكن نتيجة صدفة، وأن الشرطة كانت مترصدة مسبقا قبل دخوله حديقة مارينغو.

بدا لي أن رداءة- وأحيانا- شراسة العلاقات الشخصية في السجن قد أثرت على نفسيته. أصبح الرجل الذي كان يلقب بـ"جو لاتيرور"(جو الرهيب)- لتفضيله دوما الإجراءات الردعية- يظهر تحت أوصاف ذلك

اللا بطل الشيكسبيري الذي يصيح ليلة معركة كبيرة: "كل سمعتي مقابل كأس جعة ومكان آمن[1]".

ومع ذلك كانت له ظروف مخففة: لا وجود لمعركة في الأفق، وهو مطرود من الحزب بتهمة "البربريزم[2]". ولن يمكث طويلا ليأخذ طريق المنفى نحو باريس.

لم يسألني عمر عن علاقاتي بالحزب، ولا عن الآفاق السياسية، بل كان كل اهتمامه موجها إلى أمني الشخصي، وألحّ علي أن أعود إلى القبائل. أما علاقتي مع القيادة- التي ليست بالضرورة هي الحزب- فكانت منعدمة . أما أمني الذي قد يكون مضمونا في القبائل، لكن مقابل تحييد كلي لحريتي في العمل، فسيكون من الصعب عليّ تجنب الضغوط والطلبات الملحة واليأس السائد. ولا يحق لي أن أوصد الباب في وجوه مَن فتحوا لي أبوابهم. أما فرضية الدخول في سرية مطلقة فغير واردة، نظرا للنجاعة الكبيرة التي يتميز بها "الهاتف القبائلي"، خاصة أنني كنت أحظى هناك- عند التأطير والسكان- بسلطة أخلاقية وسياسية سمح الفريق المقصي بخلقها وتراكمها. وكان يسود انتظار قوي لظهور حل سحري للمشكل الآني والملموس المتمثل في القادة الجدد للناحية، الذين كانوا يعتبرون غير أكفاء- وأكثر من ذلك- لهم ولاء أعمى لقادة العاصمة الذين نصّبوهم.

كان من المحتمل لو ذهبت إلى هناك أن أتسبب- دون قصد- في اندلاع صراعات من أجل استعادة رموز السلطة، وإن كانت تلك السلطة هشة وضئيلة. وبما أننا كنا آنذاك في حالة من تراجع الوعي السياسي، كانت تلك الصراعات ستتحول لا محالة إلى تصفية حسابات.

لا يجب أن نلعب على وتر مخيلات وهشاشات مجتمع يجعل منه اليأس فريسة لشياطين الحسد بين العصب على كل المستويات، داخل العائلات والقرى والدواوير[1]. فالأزمة السياسية هي السبب الأساسي لتوهان الضمائر.

---

[1] - هنري الخامس – الفصل الثالث ، المشهد الثاني .

[2]- عندما اصبح للكفاح السياسي معنى ، بعد أول نوفمبر 54 و التحق عمر بالجبل في الولاية الرابعة حيث اصبح برتبة رائد كعز الدين واخذ على عاتقه مخاطر كبيرة كمعركة الجزائر الأخرى التي حصلت عشية الاستقلال بين جبهة التحرير والمنظمة المسلحة السرية .

في بعض الأحيان، تكون لا جدوى من التحرك، ويستحسن أن نمتنع عن الفعل، خاصة عندما يتعلق الأمر بمسؤول تكون لأقواله وأفعاله تبعات ونتائج. يستلزم عدم الخلط بين لذة التنفيس والنجاعة السياسية. ففي منطقة القبائل- كما في المناطق الأخرى- كانت الأوراق مختلطة، وكان الرابح الحقيقي هو الاستعمار الذي كان يتحكم في مقاليد السلطة الحقيقية، وليس الذين يتواجدون على رأس حزب أصابه الوهن وأضحى نحيلا إلى أقصى درجة.

لم يفعل كريم بلقاسم ونوابه في المنطقة سوى المحافظة على حياتهم، وكان ذلك كثيرا. ونشبت بينه وبين أوعمران خلافات، إذ جعل تطبيق المناهج القمعية العمياء أوعمران يتذكر أنه أقدم من كريم في الحزب. وهذا مؤشر واضح. فعندما نلجأ إلى حجة الشرعية التاريخية فذلك يعني عدم وجود الحياة الديمقراطية.

كنت أرد على النداءات الملحة لأوعمران- كي أعود إلى القبائل حتى "أصحح الأمور"- بأن عليه أن يتحلى بالصبر والحذر والوئام . فلو فرضنا أنني أخذت زمام الأمور في منطقة القبائل، فما عساني أفعل بعد ذلك ؟ فالسؤال عن الـ"ما بعد"- الذي يبدو لي أنه من الجدليات المنطقية- لا يمكن تجاوزه عندما نكون في مستوى مهم من المسؤوليات.

لكل هذه الأسباب قررت أن أبقى في الجزائر، فالانتظار بدا لي في النهاية الحل الأصوب. أصبحت أعيش على وتيرة بطيئة بعد أن تعودت على كثرة النشاط، دون أن يؤرقني ذلك، ربما لتركيبتي الذاتية. كنت أرفض دوما بصفة فطرية كل ما يمكن أن يحطمني من الداخل، كنيران المرارة ولعبة الدسائس والضوضاء السياسية الفارغة وغير المجدية [2].

كانت تلك هي الظروف التي التقيت فيها لآخر مرة بخالي الشريف بن قداش.. كان قد ضرب لي موعدا عن طريق وسطاء ثقاة بأعالي الجزائر، في مكان ما على الطريق الرابط بين شاطوناف وبوزريعة.. أوقف سيارته قربي، وقال بعطف: "وجدت صعوبة كبيرة لأخطرك. سنتوقف هناك في الظلام. إنه يوم سبت، يوم العشاق، لن تثير سيارة متوقفة هنا

---

[1]- هذه المحركات السلبية المرتبطة بالانسداد ، أصبحت في وضعية التجاوز الجماعي عاملا تحفيزيا للتضامن الوطني . وهذا بين الازدولجية الممكنة للعمل السياسي النشط : نفس الأيادي التي تبني يمكنها ان تهدم .

[2]- بطريقته المقتضبة المعهودة كان الكاتب بيرنارد شو يقول :" الذين يعيدون نفس الحماقات يظنون بإخلاص انهم يفعلون ذلك كواجب".

الشكوك". ثم دخل مباشرة في صميم الموضوع. قال إن أفضل رفاقي قد اعتقلوا، وأن حزب الشعب أصبح يعج بالمخبرين، وسيأتي لا محالة دوري، وستتم إدانتي نظرا للتهم الموجهة إليّ كمجرم بذئ.

وأخبرني أن العقيد "شون"- رئيس الاستعلامات في الحكومة العامة- قد استدعى المحامي ولد عودية، الذي كان يعرف أنه مقرب من العائلة، وقدم له الاقتراح التالي: "قل لآيت أحمد أن يسلم نفسه للسلطات، لأن ذلك أفضل له، ولأنه سيعتقل في كل الأحوال. إنه مخطئ في ثقته بالعرب. أنا مستعد أن أعطيه وعدا كتابيا بعدم تعذيبه. سيسجن بعض الأشهر ثم يطلق سراحه؛ لأن قضية الهجوم على البريد قضية سياسية على كل حال".

لم أشك لحظة واحدة في صدق مشاعر خالي الذي كان مدفوعا بمشاهد القلق اليومي عند أبى وأمي. غير أنني وجدت نفسي أتضامن بقوة مع حزب الشعب، وأنا أستمع للشريف بن قداش الذي كان من أعمدة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. قلت له إن مقولة الحزب "يعج بالمخبرين" ما هي إلا الدعاية المعتادة للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري؛ وإنني، بالطبع، أرفض بشكل قاطع اقتراح العقيد شون. فدور هذا الأخير هو "اللعب على تأليب البربر على العرب"، وتحريك الأحزاب السياسية ودفعها إلى الصراع فيما بينها. ومع أنني كنت في خلاف مع القيادة، فأنا معلن الانتماء للحزب، لأنه- حتى الآن- الوسيلة الوحيدة رغم ضعفه وإخفاقاته. قلت إن القادة يذهبون وتبقى المثل، وأنا وفيّ للمثل.

قال الشريف: "أنت وفيّ لنفسك. أرجو ألا تظن أن لعبة سياسية وراء مسعاي؛ بل كان مجرد تحرك من القلب. وأنت تعلم أنك تستطيع الاعتماد علي، إن كنت في حاجة إلى مأوى أو تنقل أو مال".

لم يكن ضروريا أن أشرح له لماذا وقفت ضده، وناضلت ضد رغبته في المنافسات الانتخابية. كان يعرف جيدا أنني فضلت أولوية الوطن على العائلة، ولكني كنت حريصا أن أبلغه أنني شخصيا ضد مشاركة حزب الشعب في الانتخابات.

فالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لديه مؤهلات أكبر منا في العمل البرلماني في المجلس التأسيسي. ولو قاوموه في هذه المسألة لكان الاستقلاليون قد قدموا خدمة للاتحاد، حيث سيجعلون من مشروعهم

للاستقلال الذاتي مسألة أكثر إلحاحا. وكان بإمكاننا جميعا بالطبع أن نجعل الأمور تتحرك.

كان كثير الفطنة حتى لا يفهم من وراء التفسيرات التي كنت أقدمها له أنني حريص على تقديره واحترامه. فالعلاقات الأسرية مسألة عاطفية، كما الدين قضية إيمان لا مجال للنقاش حولها؛ لكن السياسة مسألة رأي. وهي بالتالي مفتوحة للنقاش، إن لم يعمنا التعصب والتحجر الفكري[1].

سأقضي سنتي ***1950 و1951*** في الجزائر، في جو من السرية القصوى إلى حد الاقتراب من عملية سجن ذاتي . "أصبحت الشاهد على نفسي"، حسب تعبير الأديب سانت اكزوبيري. قضيت معظم الوقت معتكفا في باب الوادي، عند أقدام السيدة الإفريقية، في تلك "الغرفة الصغيرة" التي آثرت عائلة تودرت أن تجعلها تحت تصرفي[2].

ففضلا عن المنظر الخلاب الذي توفره لي- كما سبق ووصفت في فصل سابق- فهي تسمح لي بمراقبة كل المنافذ وكل الطرق غير النافذة، وهذا أمر حيوي لإنسان تطارده الشرطة.

هل تريدون معرفة مقدار كرم عائلة تودرت؟ سأقص حادثة وقعت قبل عام، أي في نهاية ***48***. ففي صباح يوم، وصلت نحو الساعة العاشرة إلى شارع كاميل دولس لأكتب الصيغة النهائية للتقرير الذي سأقدمه في اجتماع اللجنة المركزية الموسعة بزدين. وبعد نصف ساعة من

---

[1]- التحق الشريف بن قداش بجبهة التحرير سنة 55 . كان ممثلا لمشروب غير كحولي وتمكن بذلك التحرك داخل البلاد وخارجها . وكان قد زار زوجتي في تونس مع اقتراب نهاية الحرب . واندهش أبنائي لمنظر ندبة كبيرة في العنق . فشرح لهم ان جماعة من المنظمة المسلحة السرية قد ذبحته. ولحسن حظه أنه كان ابيض البشرة بشعر كستنائي ، فظن أوروبيون كانوا مارين بالسيارة انه منهم فنقلوه على جناح السرعة إلى المستشفى . كانت زيارته لتونس التي أشرت إليها بهدف إعلام فرحات عباس أن المقيم العام "بول دلوفريي" طلب منه انْ يشارك - أو ربما يأخذ - قيادة القوة الثالثة التي كان يريد ديغول خلقها في الجزائر . أعطت له بالطبع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الضوء الأخضر ، لأنه كان من المستحسن الالتفاف حول مبادرات الخصم للتحكم فيها ، وإدخالها ضمن الاستراتيجية العامة لجبهة التحرير ان اقتضى الحال . عندما ترك دولوفريي مقر الحكومة العامة ليلجأ إلى روشي نوار (بومرداس) بعد محاولة انقلاب أفريل 61 ذكر عندما اسم بن قداش شخصيا في خطاب أذيع في الراديو وجهه للقادة الحكماء من الجاليات الأوروبية والمسلمة . قتل خالي قبل أيام قليلة من وقف إطلاق النار حيث رشه كومندوس من المنظمة المسلحة السرية بوابل من الرصاص وقد سبقه في السقوط في ساحة الشرف أخواه الأصغر منه عبد الله في المنطقة القسنطينية ، بينما سقط مزيان بأيدي "الحركة الوطنية الجزائرية " المصالية في باريس .

[2]- كانت في الواقع نصف غرفة بعد ان تم تقسيم غرفة إلى اثنتين وتحولت إلى غرفة طويلة لا تتعدى مساحتها الثمانية أمتار مربعة .

وصولي، دخلت ربة البيت ووضعت أمامي صحنا من اللحم المشوي. "أآكل في هذا الوقت المبكر؟ لم ألبس حذائي "الموكاسان" لأخرج للحرث". هكذا داعبت ربة العائلة التي بقيت مرتبطة بمواقيت عمال الأرض. فقبل أن تهاجر إلى الجزائر تاركة قريتها /تاكة/ كانت الأرض مملكة ججيقة تودرت. ففي الحديقة التي كانت تحرص على العناية بها بنفسها، كانت تنبت أجمل حبات طماطم وألذ كوسة وأكبر قرون فاصوليا في القرية. أجابتني بلطف:

- كل قليلا يا بني، فاليوم هو يوم العيد الكبير.

ولما دخل زوجها الدّا عاشور لتقديم تهاني العيد بدوره، أخبرني أن دركيا جاء في الصباح إلى مقهى النهضة وسلمه استدعاء. لأي سبب؟ لقد تلقوا معلومات أنني مررت بمحله.

كان شكله ونبرات صوته شاهدين على قلقه من زيارة المقر العام للدرك. لكن قلقه كان أشد من أن يتم اعتقالي في بيته. لماذا لم يعلمني بذلك فوروصوله؟ لكنني لم أكن قادرا على لومه، هو الذي فضل أن يقوم بالمراقبة حتى أتمكن من تذوق لحم الأضحية في هدوء!

كانت القضية بلا خطورة؛ إذ كانت مجرد تحريات روتينية. وقدم الدّا عاشور شهادته في جو هادئ خال من الضغوط. وهو بالطبع "لا يعرفني ولم يلتق بي أبدا". واعترف فيما بعد أن هذا الاستنطاق كان له بمثابة يوم الحساب، مع أن هذا الفلاح الصلب يتحلى بشجاعة بدنية كبيرة. فقبل الحادثة بشهور قليلة، كان يحوم في الحي رجل قوي البنية مفتول العضلات من أجل الإجرام. صادفه الدّا عاشور ذات مرة متلبسا، فتمكن منه بحركتين أو ثلاث، حيث ضغط على معصمه ونزع منه السكين، ثم تنصل الدّا عاشور من شاشه وربطه إلى عمود التلغراف. ولم يبق بعد ذلك للشرطي الذي كان مارا إلا استلام البضاعة.

غير أن الخوف من الجهاز القمعي له طابع آخر، وجذور أكثر عمقا. فثمة حدث آخر أكثر إثارة للقلق وقع ونحن في قلب "قضية المنظمة الخاصة" في *ربيع 1950*. وكان في ذلك الوقت كل أعضاء هيئة الأركان تقريبا وراء القضبان. حدث ذلك في المساء. وصلت شاحنة للشرطة وعليها قوة كبيرة وتوقفت في شارع كاميل- دولس، تماما أمام باب آل تودرت. راقبتها وهي تصعد في بطء وأنا في موقعي بالغرفة. وسارعت لجمع ملابسي وكتبي (وهي ليست كثيرة) ، ثم تأكدت أنه لا وجود للمحاصرة وتطويق المكان، فوقفت أراقب. لو فررت لتوي فلربما سأجلب انتباه الجيران، خاصة عون الشرطة وزوجته اللذين يسكنان على

بعد أمتار قليلة، وسأتسبب في متاعب للعائلة المضيفة. وقررت أن انتظر. وإذا ما حدث الأسوأ فسيكون الهرب عندها أمرا محتوما.

تمكنت من طمأنة العائلة التي كانت تنتظر المداهمة، أما الأطفال فتحلوا ببرودة دم مدهشة، حيث تمركزوا لمراقبة الأماكن المجاورة، بينما لم أرفع نظري عن شاحنة الشرطة.

بعد حوالي *45* دقيقة، أرسلت فتاة صغيرة في الثانية عشرة لتحوم حول الشاحنة، وتحاول أن تلتقط ما يدور بداخلها من كلام، خاصة أنه لم ينزل منها أي شرطي ممن كانوا في داخلها.

ورأيت مقران من بعيد، وهو يصعد الطريق في اتجاه البيت؛ فخفت من ردّ فعله عندما يرى شاحنة الشرطة أمام بيتهم، فأرسلت له ابن أخته الصغير ليركض نحوه ويقبله ويقول له أثناءها أنّ عليه أن لا يقلق وأن يدخل البيت بصورة طبيعية.

تواصل هذا التمركز الغريب للشرطة حتى بداية الليل، ولم نعرف أبدا أسبابه. وبالطبع بعد الحادثة، أخذت أمتعتي واتجهت إلى مكان آخر لبعض الوقت.. الدار البيضاء، بوفاريك، الأربعاء، سانت أوجان.. كنت في مدار حول العاصمة، وتركت شبكة المخبرين التي نسجت في العاصمة تدور في فراغ. فأماكن اللجوء كانت متوفرة، وكان الناس يستقبلونني دون تردد وبحفاوة كبيرة في كل مكان. لكنني تجنبت الإكثار من المخابئ، لأن كثرة الحركة تزيد من إمكانية الانكشاف.

وقد أبدى محند عبة، ذلك المناضل القديم في نجم شمال أفريقيا، والسعيد آكلي صاحب مطعم في شارع هوش /زبانة حاليا/ تفانيا منقطع النظير ويقظة كبيرة، إلى درجة أنهما كانا ينصحان من يتكفلون بإيوائي بتجنيبي المحادثات الطويلة والسهرات؛ لأنهما كانا يعرفان شغفي الكبير بالقراءة. إنه جوع لم يشبع، لأنني كلما قرأت كلما أصبحت أكثر وعيا بهنّاتي وقصوري. فالكل يجتهد حسب طريقته حتى يتجاوز حدوده، أو حتى يملأ حياته.

كنت أنزل أحيانا بصفة مباغتة على حي بلكور، ذلك الحي الذي يغلي داخل إناء مغلق. كنت أذهب لأطلع على آخر المستجدات السياسية داخل وخارج الحزب. وكان لخضر رباح ومحمد بودا يستقبلانني دوما بفرح، غير مبالين بالمخاطر، مظهرين بذلك صفات إنسانية رفيعة لم تكن في ذلك الوقت السمة السائدة والمشتركة بين الجميع.

ومع أنه كان في حالة تهميش سياسي، بقي بودا قريبا من مصالي الحاج. كانت صراحته الحادة تسيء إليه وتخدمه في نفس الوقت. قد يبدو الرجل عديم التحفظ في التعبير لكنه ليس عديم الوفاء.

خلال أحد هذه اللقاءات بشارع التوت عند رباح قال لي بودا بصورة مباشرة إنه رأى السي الحاج (مصالي) ، وأن هذا الأخير موافق على ذهابي إلى القاهرة. ثرت في وجهه:

- منذ متى يقرر الناس لي. ومن الذي أقنعه بأنني سأقبل؟

قلت له إنني لست من الموظفين الدائمين للحزب، وأنني حر فيما أفعل.

هدأ بودا من سخطي، وأكد لي أن الفكرة كانت فكرته هو، ولا دخل لأحد آخر فيها، وأن همه الوحيد كان أمني، لأنه لا يمكن أن أستمر في الاختباء إلى الأبد.

- "لما تصبح بعيدا عن القبض فالله أكبر". وعندها سأكون حرا لأفعل ما أريد.

ولكنه أضاف أن المكتب السياسي يقدّرني كثيرا، وأنني سأكون مفيدا جدا في المشرق إن أنا دعّمت الوفد الخارجي.

قلت له إن أعضاء المكتب السياسي يخشون في الحقيقة أن يلقى علي القبض، وأن أبوح بما أعرف. لم ينف بودا ذلك، لكنه أضاف أن الأهم هو أن أفلت من القمع، وأنه سيكون بإمكاني أن أزاول دراستي في القاهرة، وأن سني يسمح بذلك. فالذهاب إلى المشرق هو فرصة لي، حتى وإن رفضت أن أتكفل بمهمة سياسية هناك. وأضاف بودا:

- فكر إذن، وحاول أن تعطينا تقريرا حول الطريقة التي تتصور بها أن يكون عليه العمل الخارجي.

كنت في الواقع أكابر، لأن الأمر كان محسوما لدي. ففكرة الخروج من البلاد كانت تدور في رأسي منذ أشهر، حيث كنت لا أرى فائدة من العيش على هامش حركة منهكة أساسا بالقمع، وبرضوخها الاستراتيجي الذاتي، إضافة إلى المخاطر التي كانت تحوم حولي، والتي بإمكانها إيذاء الجميع.. لكنني عزفت عن اتخاذ المبادرة لاقتراح خروجي من البلاد على القيادة، لأنني لم أكن لأقبل أن أبدو في وضعية المتوسل أمامهم، لأكون بالتالي رهن كل ما يريدون.

ولنتذكر أنه آنذاك كانت للمشرق ومصر خاصة جاذبية كبرى لدى الشباب الجزائري. وفضلا عن ذلك، كانت العاصمة المصرية تؤوي لجنة تحرير المغرب[1]، وأيضا- وعلى الخصوص- عبد الكريم الذي أعاد بملحمته الأسطورية الصلة بالسلسلة العريقة للمقاومات المغاربية؛ تلك المقاومات التي تشكل ربما مفتاح المستقبل القريب.

أرسلت في النهاية كمندوب للحزب إلى القاهرة، وكانت اتصالات كثيرة قد جرت مع أعضاء المكتب السياسي سمحت بتلطيف الجو. عمد الأمين العام لحول ببلاغته وحفاوته المعهودة إلى إزالة أسباب سوء التفاهم. كان- دون شك- رجلا ذا قناعة كبيرة وشجاعة متميزة، يحب أن يرى الأشياء بوضوح حتى يعمل. كان منطقه بيروقراطيا، لكن ذلك يعود إلى مطلب الصرامة في العمل، ولا يعود إلى حسابات دنيئة. فالكفاح النخبوي الذي قام به منذ أن كان في السابعة عشرة أثر- لا محالة- على علاقته مع الجماهير الشعبية. انه ليس ديماغوجيا، ويعرف كيف يحافظ على برودة التفكير.

- "أنا أيضا من القبائل الحضر، ككل سكان الشمال القسنطيني"؛ قال ذلك خلال أحد لقاءاتنا، وأجبته أن "بوجو هو الذي أعطى اسم القبائل لمقاطعة الجرجرة". وكان ذلك تذكيرا بأن البربر ما يزالون ضحايا لتلك السلطة التعسفية في التسمية والتعريف الذي جاء مع الاستعمار.

وها أنذا، وقد زج بي في الدبلوماسية كما زج بي في الشؤون العسكرية. وضعت تقريرا حول ما يجب أن تكون عليه أهداف عملنا الخارجي. وأكدت أن الحجر الأساس هو المجال المغاربي، والضرورة الملحة تكمن في توحيد كفاح الشعوب في البلدان الثلاث تونس والجزائر والمغرب. وتركزت الجوانب الأخرى من التقرير حول العمل على كسب الدعم والتضامن، الذي علينا أن نبحث عنه ونطلبه ونشجعه.

أرسلت دراستي إلى المكتب السياسي، وعاد بها الدكتور مصطفاي قائلا إن اقتراحي بتوسيع الجبهة المناهضة للاستعمار حول نهرو وجناح[2] يشكل فكرة جديرة بأن تحظى بعناية خاصة. لم يكن يدور الكلام آنذاك عن الكتلة العربية الآسيوية أو الإفريقية الآسيوية، ولكن بوادرها

1- اصبح فيما بعد مجرد مكان للتمثيل تحت اسم : مكتب المغرب

2- كان محمد علي جناح لمدة طويلة الوجه الأساسي للرابطة الإسلامية الهندية وكان صانع استقلال الباكستان عام 47.

كانت موجودة: الحرب في الهند الصينية والخط التضامني الإسلامي الذي دشنته الباكستان، والمبادرة الدبلوماسية الحاسمة لنهرو لصالح إندونيسيا[1]، والحظوة الكارزماتية لعزام باشا أمين عام الجامعة العربية، وانتصار ماوتسي تونغ في الصين.

كانت الحرب العالمية قد حركت من قبل موازين القوى التقليدية في العمق، ومن وراء استفاقة شعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية كان عالم جديد يظهر ويتشكل.

دار الحديث مع مصطفاي عند عائلة تودرت، في وقت كانت أمي هناك مع أختي ليلى التي كانت لا تزال رضيعة لا يتعدى عمرها بضعة أشهر.

كان فارق السن بيني وبينها كبيرا مما أثار ضحك الدكتور مصطفاي بصورة ارتدادية متأخرة كالعادة، وكان يشير من وراء ذلك إلى أنه من المفروض "أنك أنت من ينجب الأطفال".

وتدخلت أمي بطريقتها المباشرة المعتادة قائلة:

- الله أكبر، فقدت بنتا من قبل وعوضني الله بهذه. ثم أضافت وهي تشير إليّ بسبابتها:

- أما هذا الذي يسبب لي قلقا مستمرا فقد أنجبته وأنا في الخامسة عشرة .

- مالم تقله أمي هو أنها تزوجت في سن التاسعة. وتمّ الزواج دون إعلام الإدارة الاستعمارية، مع أنه من الصعب أن يمر العرس دون أن يلفت الانتباه. كان هناك بارود والعاب فروسية ومزامير، وانتشار مكثف "للقوات الشعبية" على مسافة عشر كيلومترات من قرية آيت ملال إلى بيت الزوجية.

كانت الطفلة الصغيرة تتقدم الموكب على ظهر جواد، يملؤها الخوف من موكبها ذلك، ومن الضوضاء والحركة الكبيرة؛ فلم تكن البنت المسكينة تفهم ما يجري. ولم يكن أبي- الذي كان في الخامسة عشرة-

---

[1]- أعلن القادة الوطنيون في إندونيسيا الاستقلال في أوت 45 ولم تعترف هولندا بذلك إلا في نهاية عام 49 بعد سلسلة من المعارك تتخللها مفاوضات . ساهم جواهر لال نهرو بقوة في الدفاع عن الاستقلال الإندونيسي .

بأحسن حال منها؛ كان ينتظر بقلق موعد رمي الطلقتين من البندقية التقليدية لدى وصول العروس.

كانت مياسة- الطفلة العروس- قد فقدت أمها عند ولادتها، ووجدت أما حنونا في والدة زوجها. وكانت بالفعل جدتي الجوهر لؤلؤة نادرة قلبا وقالبا. ولم تفهم الطفلة إلا بعد سنوات أخرى- حتى سن البلوغ- لماذا كانت تلك الأم الرؤوف تمنعها من اللعب مع ابنها البكر محند يحيى.. أبي!

ولم تنس أمي- في هذه الساعة- أن تستفيد من الكفاءات المهنية للدكتور مصطفاي، في الوقت الذي كان فيه الاعتقاد سائدا أن الطبيب الوطني لديه شيء إضافي يسمى "البركة". هذا الرجل الذي نجا عند وصوله إلى البيت من عضة كلب الحراسة، لم يكن يتصور أنه سيتفاوض بعد 11 سنة باسم الحكومة الجزائرية المؤقتة مع جان جاك سوزيني، الذي أصبح قائد المنظمة المسلحة السرية بعد اعتقال الجنرالات؛ وهو الاتفاق الذي سمح دون شك بتفادي تدمير حي باب الوادى الجميل، حيث كنا موجودين. لم يكن لذلك اللقاء الدافئ مع الحزب ومع الأهل- المفعم بالأحاسيس والمشاعر- ما يعكره سوى ذلك الإنذار الساخن الذي أطلقه أبي في نهاية السهرة. لم أكن أتوقع رؤيته، فهو رجل حذر، وكان يخشى أن تترصد الشرطة تحركاته وصل لاهثا محموما يتصبب عرقا: "أسرع، أسرع، يجب ان ترحل".

ثم شرح لي كيف ذهب في المساء إلى مقر محافظة الشرطة بعد أن وصله استدعاء، وهناك وجد المحافظ العام لشرطة الاستعلامات العامة في انتظاره. وعلى الفور، بدأ المحافظ بالسخرية من أبي قائلا: "كنت أنتظر أن تأتي إلى هنا مع ابنك، وأنا لا أرى غيرك وغير كرشك وساقيك الطويلتين!". ثم قال له بصورة مباشرة: "نحن نعلم أنه مر ببيت عائلة تودرت!".

وعندما خرج من عند الشرطة، تساءل أبي إن كان عليه أن يرسل أحدا لإبلاغي بذلك أم يقوم به هو بنفسه. وبعد أن اختار الحل الثاني، استقل سيارة أجرة ثم الترام حتى سانت أوجان. "عدت للنزول بالالتفاف على مقربة من إخواننا المزابيين. مشيت خمسة كيلومترات حتى أتأكد أن لا أحد يتبعني".

قاطعته، طالبا من ابن أخت مقران الذهاب إلى الخارج ليتأكد أن لا شيء يدعو للريبة من حولنا. ثم سألت أبي إن كانوا قالوا له شيئا آخر.

فللتفاصيل الصغيرة أهميتها أحيانا. لم يكن هناك شيء من ذلك، بل قام المحافظ بإهانته وهو يتهكم: "العائلة عندكم أنتم القبائل من الطابوهات. أنا أتفهم ذلك لأنني من كورسيكا، ولكن لا تتس أنك موظف. وعلى كل حال، نحن لا ننوي إلا الخير لابنك". لم يتمالك أبي نفسه فرد عليه: " إعلم أن مهام الشرطة من صلاحياتكم، و ليست من صلاحياتي".

طمأنت أبي.. أنه لو كانت الشرطة تعلم أنني موجود عند عائلة تودرت، أو مجرد أنها تظن أنني قد آتي عندهم، لما كانوا قالوا له ذلك؛ بل كانوا سيقومون بنصب كمين لاعتقالي. وإذا كانوا قد أعطوه تلك المعلومة، فذلك لأنهم يعتبرونها كاذبة أو تجاوزتها الأحداث.

أخبرته في تلك اللحظة بذهابي إلى القاهرة. وتلقى الخبر بارتياح كبير. كما اغتنمت الفرصة لأخبره برغبتي في الزواج من تونسية، البنت الصغرى للدّا عاشور وججيغة تودرت. "إنها ذكية ومؤدبة"، ومنعني الحياء من أن أضيف "إنها على الخصوص جميلة جدا". أبدى أبي اعتراضين، أولهما قدمه بطريقة واضحة قائلا: "كيف ستعيش في القاهرة". صددت الاعتراض قائلا: "بإمكاني تدبر أموري، والمطلوب منه الآن هو خطبة الفتاة، ثم سنرى الآتي فيما بعد؛ فأنا لم أسافر بعد ولم أصل إلى القاهرة".

أما الاعتراض الثاني، فلم يكن مباشرا بل ملتويا وملتفا، حيث كان يتعلق بطقوس مقدسة تفرض على العائلات المرابطية أن لا تتصاهر إلا فيما بينها؛ وأن الدّا عاشور ليس الرجل الذي يقبل أن يشذ عن القاعدة.. إضافة إلى أن القواعد التي تركها لنا الشيخ محند جد صارمة: "في البلد لا تخرج النساء أبدا. ولا يسمح لامرأة أجنبية- وإن كانت مرابطية- أن تدخل علينا".

حاولت أن لا أصدم أبي، لكنني ذكرته بمبادئ الإسلام الذي يرفض الفوارق الاجتماعية والتمييز بين الناس، وأن ذلك هو موقفي.

كان الشيخ محند- وهو الدليل الروحي للزاوية الرحمانية- قد فرض قواعد جد صارمة؛ لأن وفاء الاتباع والسرية يمثلان وسائل المحافظة على الانسجام. فبطريقته، كان يؤدي مسؤوليات سياسية بفرضه عكوف النساء في البيوت، لتجنيب استعمالهن "جواسيس" في صراعات العصب التي كانت تأكل المجتمع القبائلي. غير أن الأمور تتغير. ويقال أن الشيخ محند لم تلمس يده أبدا يد "رومي". كما يحكى أنه غسل جزءا من

برنوسه أمام الملإ، لأن إداريا استعماريا نزل على بيته ولامسه بالصدفة. قلت لأبي: "رغم ما كان عليه الشيخ محند، فأنت اليوم موظف وأنا لا ألومك على ذلك. كان الشيخ محند يظن أن الاحتلال سيزول، وعندما يئس قرر الهجرة إلى تونس". قال أبي: "هذا صحيح، وقام المؤمنون والسكان بإعادته من سطيف رافضين أن يتركهم". وهنا قرأت له القصيدة التي ارتجلها الشيخ محند في هذه المناسبة:

انصر	النصر
يزوار دي مصر	يبدأ من مصر
تونس	تونس
يس انتوّنس	ملاذنا ومواساتنا
افوس دغ يوان اورتتكس	لايجب ان نتخلى ابدا عن يد الله
احق آث سلاسل	وبحق سلسلة الاولياء
نيكال نو يس	كدت ان ايأس

هي مقولة قسم لا تزال سارية أكثر من أي وقت مضى، إننا نخوض اليوم شكلا آخر من كفاح التحرير. ولم أقدم نفسي كمواصل لتقليد سائد لكسب تأييد والدي، لكنني كنت أريد إخماد نار القلق، وبعث الأمل عند رجل كان في منتهى التفاني في الوفاء لأهله وأصدقائه.

في اليوم التالي، وفي ساعة مبكرة جدا، قال أبي لتونسية: "تعالي معنا، إنني أدعوك. أنت وفاطمة[1] تتفاهمان وستؤنسان بعضكما بعضا".

بعد أن أصبحت مقتنعة تماما، لم تأت الشرطة لتبحث عني عند آل تودرت، حيث اختبأت وعكفت عندهم حوالي ثمانية اشهر إلى يوم رحيلي في نهاية أكتوبر 1951.

---

[1]- أختي فاطمة التي كانت في الثامنة عشر من عمرها .

كان الرهان صعبا، ولكن ليس مستحيلا، شرط أن "تشد في قملتك"، حسب التعبير العاصمي؛ أي ألا تقوم بعمليات حك، وأن تتحكم في حركاتك أي أن تتفادى الحركة. وكانت المسألة مهمة للغاية؛ إذ لم تكف الشرطة عن عمليات البحث، وجاءوا إلى بيت آل تودرت لكن بطريقة ملتوية، حيث لم تجند قوة كبيرة لذلك.

وكنا نملك حليفا ثمينا في القيادة العامة لشرطة الاستعلامات العامة، ممثلا في المفتش أحمد أوعامري[1]. أخبر أوعامري السعيد آكلي أنه تم تعيين مفتشين جديدين ليتكفلا خصيصا بمطاردتي. كان أحدهما يعمل في السابق في الصيدلية الوحيدة لبلدية ميشلي المختلطة. وكان يرافق الدكتور "فوري" في جولاته، ويحرس سيارته "التراكسيون" بينما كان طبيب الاستعمار يواصل زيارته مشيا نحو القرى. في تلك الفترة كنت لا أزال تلميذا، وحدث مرارا أن قدمت له الفطور. فهو إذن شاركني الخبز والملح (ثاقولا اد تاسنت). وقد ادهش القرية حين أصبح مواظبا على الصلاة، بعد أن هجر الصيدلي، لأن هذا الأخير "متجنس". كانت بنيته أقوى من إيمانه، وكان لها الدور الأول- دون شك- في توظيفه لدى شرطة الاستعلامات العامة. لكني لم أكن أعرف المفتش الآخر الذي أطلق عليه لقب "البطة" نسبة إلى طريقته في المشي، التي لا تسمح له في الواقع بالمطاردات البوليسية.

كأنها صدفة، أتى أحدهما تلو الآخر إلى محل مقران للجواهر، ورابطا هناك كأن عمله يهمهما جدا. ومن الغريب أن الكلمة القبائلية (أرقاس) تعني في نفس الوقت "راقص" و"عقرب الساعة" و"الواشي". وكي يضع صهري المستقبلي الأمور في نصابها، قام بدعوة هذين المفتشين- الواحد تلو الآخر- إلى غداء الكسكسي في البيت. وانتهز الفرصة[2] ليعرف الإثنين على كل جوانب البيت، بما في ذلك بيت تودرت والبيتين المؤجرين لعائلة من بسكرة وأرملة من شرشال تعول عددا كبيرا من الأطفال، ولم يستثن حتى المراحيض من هذه الجولة!

---

[1]- التقيته في الترام مع هذا العملاق الأشقر. نظر إلي لحظة ثم احمر وجهه وطاطا رأسه. لم يكن ذلك خوفا بل حياء. وهي صفة مهمة لم نعد نجدها عند الشرطة الحالية التي تستعمل طرقا كريهة باسم قداسة"القضية". قتل اوعامري على يد المنظمة المسلحة السرية وورد اسمه في قائمة الضحايا التي نشرها لوسيان بيترلين في كتابه "كلنا إرهابيون" 1983. منشورات تيموانياج كريتيان.

[2]- بالطبع كان قد تم إجلائي مسبقا من الغرفة.

في بداية جوان/ يونيو وصلت كل العائلة، مدعمة بثلاثة أعمام، ليطلبوا رسميا يد تونسية. وقد سبق المسعى عمليات تأثير ومحاولات طويلة ككل قضية جدية. وسبقها قبل كل شيء طلب رضا البنت.

وكما كان متوقعا، كانت المقاومة من الدّا عاشور الذي كان لا يريد أن يذهب ضد تقليد سائد. وكانت المجادلات- التي يستثنى منها المعنيّان والنساء- تتواصل حتى أوقات متأخرة من الليل. المراسيم- في حد ذاتها- لها أشكال بسيطة، حيث تقدم أبي قائلا : "الصلاة والسلام على الرسول.. إني أريد مصاهرتكم، وأطلب يد ابنتكم لابني". وركز الدّا عاشور في رده على ضرورة احترام التقاليد. وللسماح لرب العائلة بالوقت الكافي لإيجاد حججه، يدور الحديث بين الحاضرين في أمور أخرى. وبعد عمليات هجومية متكررة فاشلة، خرج أبي من الغرفة متوجها نحوي: "ما العمل؟ الدّا عاشور لا يريد. وهو ليس رفضا مفتعلا؛ فهو يخشى تأثير الخروج على تقاليد آبائه". طلبت من أبي أن يواصل قائلا له: "نحن الطالبون، نحن الذين يفتحون الباب وليس هو من يهدمها. مع كل شيء، فنحن مسلمون، والشيخ محند لم يكن وليا صالحا، بل صار كذلك، وقبل ذلك كان قبائليا ككل الآخرين".

أخيرا انتزعت الموافقة من أب تونسية، ولا أظن أن الحجج المقدمة هي التي حسمت الأمر. يجب أن نعرف الجو البسيكولوجي الذي تدور فيه هذه المفاوضات الاجتماعية. فهناك حدود للشرف لا يجب أن يتجاوزها أحد- سواء كان من هذا الطرف أو ذاك. فالقبول السهل يعني التنازل عن إنسان عزيز، وفي المقابل قد يتحول التعنت في الرفض إلى إهانة. وعندما سمعت الفاتحة التي تنهي هذه المراسيم، أعربت بقية العائلة- التي كانت مفصولة عن اتخاذ القرار- عن فرحتها بالزغاريد، هذه الزغاريد التي أوقفت بسرعة من قبل الرجال. كيف يمكن الإعلان بصخب عن حدث من المفروض أن يبقى سرا. ومع هذا، تم تجاوز الاعتبارات السرية بنحر خروف، كما هي العادة، وقام أبي بذلك شخصيا كي يظهر أن وظيفته لم تفقده طبائعه الريفية.

"تصوري لو أرجعوا كبشهم معهم!"؛ هذا ما قلته ضاحكا لأختي فاطمة أثناء العشاء. كان في إمكاني أن أمازح فاطمة التي حافظت على روحها المرحة حتى أثناء الكفاح السري. وخلال أشهر قليلة، أصبحت أختي وخطيبتي لا تفترقان، حيث طلبت عائلة تودرت - بإصرار- أن تبقى فاطمة معهم، وكانت تسهل لي حياتي بتقيدمها خدمات جليلة لي.

ارتبطت هي وتونسية بعلاقة صداقة مع جارة من أصل إسباني علمتهما الخياطة والتطريز، كما كانتا تتبادلان معها كيفيات الطبخ الضرورية.

في المجتمع المدني، في تلك الفسيفساء "الباب الوادية"، سادت حياة تسخر من الألعاب السياسية الكبيرة، مع أنها هي التي تحكمت للأسف في مصير هذه الحياة في النهاية.

هذا اللقاء السعيد بين العائلتين سمح بإعطاء اسم ثان لخطيبتي، وهو ليس تقليدا لكنه أمر معمول به في القرى والمدن، وتم الإجماع على اسم "جميلة" الذي يكمل اسم تونسيه[1] الذي يناسبها جدا.

ألم يقل جبران خليل جبران مخاطبا الله :

إنك جميل

تحب الجمال

وكيف عبادك لا يعشقون

وعندما أتذكر ذلك اليوم الكبير، وذلك الجو السريالي لحلم يقظة يدفع كابوس الليل، وتلك الواقعية الإرادية التي كانت تسخر من الأمور الدنيا، وذلك التقليد الحي الدائم الحركة، لا يمكنني إلا أن أشيد بكل أولئك اللائى والذين جعلوا وحدتنا ممكنة.

تم ضبط التفاصيل التقنية لرحيلي،عند لخضر رباح. جرت اتصالات في الأوساط التقدمية الفرنسية بباريس. فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الديناميكية المناهضة للاستعمار تقوى وتتسع..

قامت شخصيات من اليسار الفرنسي مثل كلود بوردي[2] بعقد المؤتمر المناهض للاستعمار (الذي كان مقره لندن) بمعية قادة نقابيين وعماليين بريطانيين، حيث أدانوا القمع في كينيا. كانت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية ممثلة في هذه المؤسسة.. وأخيرا تم العثور

---

[1]- تعد الأسماء مثل تونسية وتركية المنتشرة بكثرة في بعض المقاطعات تعبيرا عن موازين القوى الناتجة عن الاستعمار وتعبير عن هروب عاطفي نحو المجموعة الإسلامية الكبرى .

[2]- أدان بوردي سلطة لوبيات الكولون في الجزائر ، كما قام بإدانة قوية ومبكرة للتعذيب الذي كان يمارس في الجزائر من خلال مقال عنوانه " هل هناك غيستابو في الجزائر" نشره " فرانس اوبسرفاتور " في 6 ديسمبر 51 .

على المسلك الجيد للرحيل عن طريق مناضلين في الحزب الشيوعي الفرنسي الذين كانوا يعملون على أساس فردي إرادي.

بعد الاتفاق الذي تم التوصل إليه على المستوى السياسي من طرف عبد الله فيلالي، قائد فدرالية فرنسا لحزب الشعب- الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية، تم تعيين إطارين شعبيين من بلكور كانا آنذاك منتدبين في فرنسا؛ وهما زين العابدين منجي واحمد كابا، لتنفيذ العملية في نهاية أكتوبر/ تشرين الأول.

وفي الليلة السابقة لليوم المحدد، شرح لي كابا- الذي كان قد وصل على متن طائرة- الوضع ونحن مجتمعون عند رباح بحضور بودا. سأغادر على ظهر باخرة كبيرة لنقل المسافرين، وسأرتدي ملابس ضابط في البحرية. في الواحدة بعد منتصف الليل، سينتظرني ضابط من الباخرة عند مدخل الميناء، وسيسهل عملية صعودي إليها. ولدى اجتياز مصالح الجمارك والشرطة كان علي مجرد التحية، وأن أبدو في سلوك الارتخاء المعهود لدى البحارة.

كانت البدلة والقبعة ملائمة جدا، لأن كابا- الذي كانت له نفس قامتي- قد جربها قبل أن يأتي بها. ورباح الذي كان شديد التأثر بجو التحضير للرحيل يود أن أتناول غدائي الأخير عنده. لكنه تفهم تخصيصي تلك اللحظات الأخيرة لأصهاري ولجميلة. رافقني بودا عندهم ولازمني حتى موعد الركوب. تمت العملية بصورة دقيقة حسب مقاييس الوقت. أوصلنا زكال بـ"طاكسي الوطن" إلى الميناء، أنا وبودا وكابا. تركوني على بعد بضعة أمتار من ضابط البحرية الذي كان في الانتظار.

رافقته ونحن نتبادل أطراف الحديث، واجتزنا دون مشاكل حاجز الجمارك، ثم حاجز الشرطة، وشرفني بالإقامة في مقصورته: "افعل ما تشاء. ها هو كتاب للمطالعة إن لم يكن معك". يبدو لي أن الكتاب الذي ناولني إياه كان خاصا بالقطعة البحرية "بوتامكين" أو على الأقل كان يروي قصة تمرد على ظهر سفينة. كان صوته دافئا مليئا بالنبرات الحميمة التي تلغي الحدود وتوحد الأعراق والحضارات كما يوحدهم المتوسط.

اتخذت مكاني لقضاء الليل، وتفحصت بإمعان بطاقة هويتي الجديدة التي كانت باسم سعيد فرحي، المولود بدوار ولاد عوف ببلدية عين التوتة المختلطة بدائرة باتنة[1].

في الصباح وأنا أتناول فطورا وافرا، كان لي حديث مريح مع مضيفي ، مما ساعدني على اجتياز كآبة النفس. كان عليّ أن أفكر كيف أفلت وكفى. بالطبع ما معنى الحرية دون وطن، كما ما الوطن دون حرية!

منظر القصبة من خليج الجزائر منظر خارق. لم يخف بياضها الناصع العمق الغرائبي لآلاف البيوت المتراصة المتكئ بعضها على بعض، كأنها تحمي نفسها من الدخول العنيف لحداثة زاحفة تمثلت في البنايات الادارية الضخمة.

ذلك الإسمنت المسلح المشيد الذي نعيش بينه يعطينا مع مرور الوقت الصلابة، غير أن كل شخص يخترع لنفسه طريقة كي يهرب منه. بالنسبة لي، عندما حان وقت الوداع- الذي أعلنت عنه صفارة الباخرة ثلاث مرات- خيّل إليّ أنني رأيت العلم الجزائري يرفرف فوق مقر الحكومة العامة.

كنت كالسائح الأمريكي، بل كصاحب بواخر يوناني، حيث كنت أستفيد من راحة غرفة الضابط الذي كان يعمل على جعل خروجي السري متعة جميلة. غير أن العاصفة تدخلت وشكلت في تلك الأيام مصدر الحديث، نتيجة للخسائر الاستعراضية التي أحدثتها في سواحل المتوسط.

كانت الباخرة تبدو كأنها تتطاير بتثاقل، كتلك العصافير الكبيرة المهاجرة التي لم تفقد اتجاه الجنوب، مع أنها تبدو كأن العاصفة أفقدتها البوصلة. وكأن الباخرة تعاني سكرا شديدا، وكذلك الحال بالنسبة لي؛ فرغم كل جهودي حتى أحافظ على رباطة جأشي، والضغط على فكي، لم أتوقف عن التقيؤ.

---

[1]- بن بولعيد المسؤول السابق عن المنظمة الخاصة بباتنة هو الذي مكنني - دون أن يعلم القادة في الجزائر- من هذه البطاقة التي تشير إلى هوية حقيقية . في 65 عندما كنت سجينا في لامبيز سألت المراقب العام حملاوي إن لم يكن يعرف سعيد فرحي بعد ان أكدت له أنني لا اعرفه تماما أخبرني انه ابن عم له وله دكان حلاقة بباتنة . قلت له عندها انه "في إمكانهم الآن إضافة تهمة جديدة إلي وهي انتحال شخصية الغير".

بدا مضيفي خجولا، لأن عوامل الطبيعة قد تجاوزته. وكان خجلي أكبر في كل مرة يدق علي فيها الباب ليشجعني؛ وكم كانت عديدة[1].

تم النزول في مرسيليا بسيناريو معاكس للركوب في العاصمة، وفي ظروف جيدة. خرج المسافرون من الباخرة، وبعد الغروب رافقني الضابط حتى مخرج الميناء. كان كابا في الانتظار، وفي يده حقيبة صغيرة بها لباس مدني ارتديته قبل أن أتسلق القطار، متوجها إلى باريس.

قطعت المرحلة الأولى. لكن بقي شيء في نفسي يؤلمني، إذ لم يكن لدي الوقت الكافي لأشكر الضابط باستثناء تحية مقتضبة[2]. أما كابا، الذي بدا سعيدا جدا، فقد كان على نفس الباخرة دون أن أعلم، ولم يتأثر بغضب الأمواج!

شعرت بالحرية في باريس وأنا استنشق عبق شوارعها، مأخوذا بضجيجها وأضوائها. دامت محطتي فيها خمسة أشهر تقريبا. كنت في البداية أقيم عند عجوز بالإيجار، ثم في استوديو في سان ماندي، حيث كان يؤويني زيدي[3]، أحد كوادر جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين. فرضت على نفسي مرحلة للتأقلم، كغواصي الأعماق الذين يصعدون تدريجيا حتى لا يخنقهم أوكسجين الحرية.

وبدأت أنتقل من اكتشاف لآخر، وأهمها أنه يمكنني أن أمشي وأتنزه، وأن أعيش بصورة عادية. ركبت المترو في كل الاتجاهات، حيث كان عالم ما تحت الأرض يعطيني الإحساس بالأمان. فبين الناس كنت إنسانا

---

[1]- هذا التعلم الصعب لهذا الريفي الذي أمثله سمح لي فيما بعد ان أتحمل مشاق رحلتين مأثورتين .الأولى في ديسمبر 58 حيث تم تحويلنا من سجن "الاصانتي" إلى جزيرة آكس على ظهر سفينة بحرية انطلقت من لوريان . كرقصة مأتميه كان مرور العسكر على وعاء ضخم يزيد من غثيان كل من بن بلة، بوضياف ، خيضر والاشرف ، لكننا تمكنا من تمالك أنفسنا . طبعا كانت الرحلة قصيرة وكانت ديناميكية الجماعة مساعدة على تحملها . أما الحادثة الثانية فتعود إلى أول ماي 1966 بعد فراري من سجن الحراش إذ أقوم بنفس الرحلة /الجزائر- مرسيليا /على ظهر باخرة مترهلة لكنني لم اصب بدوار البحر . في تلك السنة كان المتوسط اكثر رأفة من بومدين .

[2]- بالطبع لم تكن الظروف مواتية لحديث مطول .

[3]- إلتقيته ثلاث سنوات قبل صياغة هذا الكتاب ، وجدته لم يزل بشعره الفضي كما لا يزال يتفانى في خدمة الآخرين . لم ينس لقب "لوحيدات" الذي أطلقته عليه. كما أشير إلى انه كان يعاني من السرنمة . في إحدى الليالي وجدته يكلم نفسه في الظلام بعد ان فتح النافذة . أشعلت النور خوفا من ان يسقط من الطابق الخامس . لكنه كان جالسا في المكتب ، "قلت له ماذا تفعل ؟" أجاب :" إنني ابحث عن لوحيدات" في إشارة إلى شيء ما.

عاديا، كالقبعة الباسكية التي كنت أرتديها. كما عوضت حرماني من السينما والمسرح وزيارة المتاحف.

دعاني فيلالي ومنجي وكابا إلى مسرح الشاتلي لمشاهدة لويس ماديانو في مسرحية "من أجل دون كارلو". وعاملوني بجو الرفقة الأخوية الصريحة دون أدنى حسابات سياسية.

لم يكن لدي ولا لديهم الإحساس أننا موجودون على أرض عدوة، مع أن مئات العمال المغاربيين الذين كنا نلاقيهم يوميا كانوا يذكروننا بنظام الاستغلال الاستعماري. ودون أن نسقط في التعميم التبسيطي للأمور، يبدو أن الشعب الفرنسي كان يتمتع بنوع من عدم الاكتراث بالمشاكل الاستعمارية. والواقع أن أولئك الذين يتحكمون في زمام الأمور في السلطة لم يقوموا بتوعيته بشأن وقائع ما بعد الحرب.. ومع أنه كان محاطا بضبابية فنية راسخة، فقد كانت الأسطورة المؤسسة للجزائر الفرنسية راسخة في اللاوعي لديه.

أما أبناء وطني، الجزائريون والمغربيون والتونسيون، فإني أذكر لهم مظهر عزة وكرامة هادئة تقرأ في السلوكيات والعناية بالهندام. كانوا يريدون أن يعطوا صورة عليا لمثلهم، وأن يشهدوا أنهم صانعوا مصيرهم.

مر زمن التنفيس. ولمّا تأخر وصول جواز سفري من سفارة مصر ببرن بسويسرا، سكنت المكتبات كي اقرأ وأعرف عن الشرق الأوسط والسياسة والعلاقات الدولية. وكي أقتصد من أجل شراء الكتب، فرضت على نفسي حمية بالحليب. ولو فتحت محفظتي صدفة لوجدت فيها- غالبا- أثقالا للتمارين الرياضية، متمثلة في كرتي حديد موصولتين بقضيب[1]، وتبان سباحة لأنني أصبحت أتردد- منذ مدة - على مسبح لوتيسيا. فيلالي هو من استدرجني للمسبح. وكان يقطع غطسه بخطاب مدح في السباحة. لا شك أن حياته الباريسية قد غيرته، حيث كان يعيش حياته بكل تفاصيلها، وكان يرى العالم بطريقة مغايرة.

كان يعتني بإعادة امتلاك جسده بالرياضة ونظام أكل نباتي، كما كان يناقش بشجاعة كل أفكاره كي يعيد التفكير فيها بنفسه لا عن طريق أحكام مسبقة.

---

[1]- صار كابا يلقبني ب"مول القزازل".

كان يتكلم في الغالب باللغة الفرنسية، مع المحافظة على عبارة باقية لديه من لغته الأم، والتي كانت تحير مستمعيه والمقربين منه. كان فيلالي يرافق جمله بكلمة يكررها بطريقة لاشعورية وهي "ايصامدينا"! وتوصلنا أنا وهو بعد جهد جهيد إلى استنتاج يفيد أن العبارة هي تحول بعد الممارسة، وإدغام بعض الأحرف من جملة سائدة في منطقته بالقل، وهي "يا سيدنا مرحم الوالدين". كما التصقت به جملة أقل غرابة منذ الأحداث المأساوية لعام 1945 "تدخلوا على ابّاهم".

لثاني مرة تعقد الأمم المتحدة جلساتها بباريس، وكان المغرب محل اهتمام[1]، حيث تمكن الوفد المصري من أن يدرج في جدول الأعمال نقطة خاصة بـ" انتهاك فرنسا لمبادئ الأمم المتحدة وتصريح حقوق الإنسان[2] في المغرب الأقصى".

وتكفل مندوب الباكستان، السيد زفرو الله خان بالتكلم عنها ومن كل قلبه في الجلسة العلنية؛ غير أن بحثها قد تأجل إلى 13 ديسمبر.

بدأت المجموعة الإفريقية الآسيوية تتشكل، وأعطاها محمد صلاح الدين باشا، الوزير المصري للخارجية- الذي كان يمثل يسار الوفد[3]- نظرته العقلانية وقوة الدفع، بمساعدة مستشارين له ممن تلقوا مثله دراسة الحقوق في فرنسا، ومنهم توفيق الشاوي الذي كان جد قريب من الوطنيين الجزائريين أيام الدراسة الجامعية. وكان هو من دفع عزام باشا عام 1945 ليتدخل لدى الأمريكيين من أجل الضغط على فرنسا، لكي توقف قمعها بسطيف وقالمة. وقد وجد مكتب المغرب في القاهرة في هذين الرجلين سندا فعالا، بالرغم من الاضمحلال السياسي الذي سيعرفانه بعد انقلاب جويلية 1952، الذي أوصل العقيد عبد الناصر إلى السلطة.

---

[1]- نظمت الجلسة السادسة لجمعية الأمم المتحذة بين 6 نوفمبر 1951 و10 فبراير 1952 . وجرت الأشغال بالقرب من قصر شايو في بنايات شاهقة شيدت لهذا الغرض .

[2]- في بداية العام كان الجنرال جوان ، المقيم العام بالمغرب منذ 47 قد هدد الملك محمد الخامس بالتنحية ان هو رفض إمضاء المراسيم التي امتنع عن توقيعها من3 سنوات مضت(إضراب الظهير) ، وان لم يدن حزب الاستقلال . كان الرهان مهما بالنسبة لفرنسا في وقت كانت تستعد فيه للتفاوض مع الولايات المتحدة لتنصيب قواعد جوية في المغرب وكانت فرنسا تريد ان تظهر من موقع قوة في المحمية . امضي الاتفاق في 12 جوان 51 . وفي أوت خلف الجنرال قيوم الجنرال جوان وواصل عملية الضغط من اجل إجباره على إدانة حزب الاستقلال . وفي الأخير لجأت فرنسا إلى تنحية محمد الخامس في 20 أوت 1953 .

[3]- الوفد : الحزب الوطني المصري الذي تفاوض مع الانتداب البريطاني بشأن استقلال مصر عام 1922.

حاول قادة الدستور الجديد التونسيون استغلال الأشغال للتعجيل في المفاوضات التي كان يقوم بها الوزير الأول التونسي " شنيق" مع فرنسا، من أجل التمتع بحكم ذاتي داخلي. قدم صالح بن يوسف ومحمد بدرة- باسم الحكومة التونسية- شكوى ضد فرنسا إلى مجلس الأمن المنعقد بباريس. في اليوم التالي، أمر المقيم العام بتونس الجنرال جان دي هوتكلوك الباي بحل حكومة شنيق، وسحب الشكوى من مجلس الأمن. وأمر- في نفس الوقت- باعتقال الحبيب بورقيبة والمنجي سليم والحبيب الشطي، وعدد كبير من القادة والمناضلين النقابيين[1]. تمكن صالح بن يوسف والحبيب الشطي- بعد أن تم إخبارهم من طرف "أصدقاء فرنسيين"- من الإفلات من الاعتقال، حيث عبروا بلجيكا ليلجئوا إلى مصر.

في تونس، أدى الإضراب العام الاحتجاجي- الذي شنه الشباب والعمال التونسيون- إلى قمع دموي وصل أوجه في عملية تمشيط قام بها الجيش الفرنسي بكاب بون في 28 جانفي 1952[2].

في هذا الظرف المشحون، حيث كانت فرنسا تعمل على إحكام قبضتها على المغرب الكبير، وكان القادة المغاربة الذين تجاوزتهم التيارات الشعبية يقومون بمزايدات سياسية ودبلوماسية؛ في هذا الجو طلب مصالي مقابلتي. تغدينا معا في مطعم بشانتيي، مقابل ملعب سباق الخيل. وكان فيلالي هو مَن أوصلني إليه، بعد أن اتخذ طرقا ملتوية وقام بدورات يعلم هو وحده سرها، وبعد عملية تغيير الملابس أيضا.

وجدت قائد الحزب في صحة جيدة ومنوّرا أكثر من أي وقت مضى وكانت الزيارة التي قام بها مؤخرا للمشرق قد زادت من حماسه، كما كان لتطورات الأحداث في تونس نفس التأثير. قصّ عليّ بحماس الاستقبال الذي خص به في العربية السعودية وفي مصر. وكان شديد التأثر بعبد الكريم الذي وجده ناقما ويائسا من القيادات الوطنية المغربية والتونسية. وباستثناء هذه اللقاءات التي كانت لها أهمية تاريخية، يبدو أن

---

[1]- بعد ان فرضت عليهم الإقامة الجبرية بطبرقة ، تم الزج بكل القياديين السياسيين التونسيين في محتشد الرمادة في أقصى الجنوب التونسي .

[2]- تمكن الحبيب الشطي من منع تعميم عملية كاب بون على كل تونس بنشره في جريدة الصباح التي كان يسيرها المعلومات التي جاء بها دافيد صن ، مراسل الاسوشيد براس ، حول حجم وفظاعة القمع وكانت الصور المأخوذة تدحظ بقوة التكذيب الذي نشرته وزارة الخارجية الفرنسية ، كما أثارت استياء كبيرا لدى الرأي العام الفرنسي والدولي .

جولته في المشرق لم تكن لها نتائج ملموسة. وفي آخر المطاف، طلب مني أن أقدم له تقريرا حول إعادة بعث محتملة للمنظمة الخاصة.

لم يتكلم مصالي عن حل المنظمة الخاصة، ولا عن إبعادي، ولا عن الانقلاب على الخط السياسي الثوري. ومادام يريد إحياء المنظمة الخاصة، فهذا يعني أنه يريد الانقلاب على هذا الانقلاب. ولكن بأية طريقة ؟ هذا ما لم يقله. كانت له حساسية سياسية تقربه من نفاد صبر الجماهير الشعبية؛ ولكنه- في نفس الوقت- كان حبيس الجهاز البيروقراطي والهياكل القيادية الذي يمنعه من القيام بتغيير المنحى. تجاهل الأسئلة الدقيقة التي طرحتها عليه، مستعملا ابتسامته الجذابة ولطفه الطبيعي.

كان التقرير الذي أرسلته إليه- عن طريق المنجي في بداية فبراير- يتمحور حول خطوط قوة عامة سياسية وعسكرية ودبلوماسية، ولم يكن يخص طرق إعادة هيكلة المنظمة الخاصة. وفيما يخص هذه القضية، اكتفيت ببعض التوصيات المرتبطة برزنامة محتملة:

1- مرحلة لإعادة الاتصالات غير الرسمية مع قاعدة المناضلين، عن طريق الأطر التي نجت من القمع.

2- مرحلة للهيكلة والتحضير الفعلي الذي يجب أن لا يتجاوز الثلاثة أشهر قبل اندلاع الكفاح. فأية آلية تدور لمدة طويلة في الفراغ تتعرض لخطرين: افتقاد التجند النفسي والقمع.

ركزت على نقطة كانت تبدو لي أساسية: قبل العودة إلى الكفاح السري، على مصالي[1] أن يجد سيناريو ذا مصداقية، لكي يؤمن الحماية لنفسه في أوروبا أولا ثم في القاهرة. في الواقع لا هو ولا قادة الحزب الآخرين كانوا مستعدين للالتحاق بالجبال، لأسباب مرتبطة أكثر ببحبوحة العيش التي ألفوها، مقابل المخاطر المحدقة والمحتملة للمقاومة.

فقدت الجزائر المبادرة في مسألة انطلاق كفاح مغاربي. ومادامت قد صارت مضطرة لأن تتبع الحركة- إن وجدت الحركة أصلا- فكيف عليها أن تندمج فيها بأقل الظروف الممكنة سوءا؟ الجواب كان موجودا أساسا على الأرض، وكان يوجد جزئيا في القاهرة. كنت متحمسا

[1]- كان بكاريزماتيته ومكانته الرجل الوحيد القادر على تجسيد الوحدة الوطنية وفرض احترام الجزائر في الخارج.

لمعرفة سريعة لمشاريع القادة الوطنيين المغاربيين المتواجدين هناك، وبالخصوص عبد الكريم.

أخيرا، توجهت إلى القاهرة مرورا بسويسرا في نهاية أفريل 1952. ورافقني في هذه الرحلة كل من فيلالي وكابا والمنجي. سمح لي الطريق الذي سلكناه باكتشاف جمال وتنوع المناظر الطبيعية الفرنسية. مررنا بصوشو ومولوز حتى نصل إلى بال السويسرية، وسط جموع زوار نهاية الأسبوع، الذين توافدوا بالحافلات ثم بالترام، على المعرض الدولي الذي كان مقاما هناك.

نجحت بطاقة هويتي المزورة في أول امتحان لها عند اجتياز الحدود. أما الرفاق الثلاثة- الذين كانوا يتبعونني عن بعد- فقد عانقوني بحرارة؛ كان هذا يعني لهم نجاح المهمة، كما كان مبعث ارتياح لا يوصف بالنسبة لي.

كانت الفنادق مكتظة، فوجهنا ديوان السياحة إلى إيجار غرف عند الأهالي في ضواحي مدينة بال، حيث تركنا أمتعتنا كما يفعل السواح العاديون. مر ذلك اليوم الربيعي المليء بصخب الموسيقى والاخضرار والورد كالحلم عبر منصات العرض وعلى ضفاف نهر الراين. ومثل هذا الجو الاحتفالي عندي "ذهب الراين" المذكور في الملحمة الأسطورية الجرمانية " نيبلونجين".

انتهت السهرة بنوتة مرحة. لم نكن نعرف أي ترام نأخذ لنعود إلى غرفنا في الضواحي، فنادى فيلالي أحد المارة الألمان، وأراه اسم المحطة القريبة من بيت العائلة التي كانت تؤوينا، حيث سبق أن كتبه على ورقة. غير أن العبارة الطويلة باللغة الألمانية لم تكن تعني سوى أن ذلك "الموقف غير اضطراري". ولحسن الحظ، كان معنا رقم هاتف مضيفنا، مما سمح لنا بالعودة لارتداء لباسنا الليلي، وقضاء ليلة هادئة في البيت السويسري المتميز باللطف والبساطة والنظافة الكبيرة.

في اليوم التالي، استقبلنا سفير مصر ببرن، مصطفى عبد المنعم[1]، وسلمني جواز مرور باسم سعيد فرحي. وفي مساء نفس اليوم، ركبت طائرة شركة "سويس اير" المتوجهة مباشرة من زوريخ إلى القاهرة.

---

[1]- خلافا لأغلب زملائه الذين كانوا انغلوفونيون ، كان مصطفى عبد المنعم يتمتع بثقافة فرنسية عالية . وسيصبح في الأشهر المقبلة نائب أمين عام الجامعة العربية ، حيث وطد علاقاته مع مكتب المغرب في العاصمة المصرية . بعد انقلاب 22 جويلية 52 عمل كل ما في وسعه لتصحيح انعدام التجربة السياسية

كانت أول مرة أركب فيها الطائرة. ومازلت أحتفظ إلى اليوم بتلك الذكرى الرائعة. فبعد فسيفساء السهول السويسرية المتقاطعة بالبحيرات والغابات، طرنا فوق جبال الألب بجليدها وثلوجها الناصعة التي تقطعها وديان مخضوضرة. جعلني المنظر أفكر- رغما عني- في حملة هنيبعل الغربية؛ فبعد أن مر بإسبانيا، وقطع البرنس وبلاد الفرنجة، فرض على 50 ألف من المشاة ، و9000 فارس من النوميديين أن يقطعوا ذلك الحاجز الثلجي اللامتناهي. كل هذا جرى قبل قرنين من مجيء المسيح! "ستمرون بنفس الطريق الذي مر به هنيبعل"؛ هذا ما قاله بونابارت لجنوده، حتى يحثهم على اجتياز جبل سان برنارد الكبير في ماي 1830. وكان المكان- في الواقع - هو شمال جبل "ترافرسيت" الذي اجتازه هنيبعل[1].

بينما كانت الطائرة تحلق فوق المتوسط، كنت ما أزال منهمكا في عمليات المقارنة التاريخية.. من الحرب الفينيقية إلى الحرب الباردة مرورا، بالحروب التوسعية الاستعمارية. يبدو أنه لا مكان لتعايش دائم بين قوتين، تجارية وعسكرية وسياسية.. فالواحدة تقضي في نهاية المطاف على الأخرى، في انتظار أن تظهر قوة جديدة ثالثة لتسيطر على المتوسط.. إنها لعبة المذابح الأزلية على وتر الوسائل المستعملة، والتي تزداد قوتها التدميرية مع تقدم التقنيات. فمسألة الأمن الاقتصادي، أو السياسي، أو العسكري، أو الثلاثة مجتمعة، ليست من اختصاص قواتنا العظمى الحالية...

إنه السبب الذي أدى بقرطاج إلى احتلال جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا؛ كما كان سبب " تحريرهما" من طرف روما.

وكان على ضحايا صراعات السلطة هذه أن يشهروا راياتهم ليبقوا أحرارا، أو أن يتموهوا حتى يحافظوا على بقائهم.. هذا هو الحل المفروض منذ العصور الأولى على الشعوب المغاربية بسبب موقعها الجغرافي.

للضباط المكلفين ب"الشؤون العربية" من طرف العقيد عبد الناصر . كان انعدام التجربة السياسية يتجلى في نزعتهم التسلطية ولكنهم كانوا أيضا متفانون في عملهم .

[1]- بعد ألفي سنة فرق زمني ، نجد عند الجنرالين اوجه تشابه عديدة في الأسلوب : نفس التحضير الدقيق ونفس التنفيذ الجريء ونفس الاستغلال لعامل المفاجأة.

كرس مؤتمر يالطا تقسيم العالم إلى معسكرين، سوفياتي وأمريكي. وهو ما فسر دخول الولايات المتحدة في البحر المتوسط. كانت مصلحة فرنسا تكمن في المحافظة وتوسيع سيادتها على شمال أفريقيا[1]، ورقتها الاستراتيجية أمام الولايات المتحدة. كان هؤلاء يتعاملون بطريقة براغماتية مع المشكل. فكان تقرير فشتار[2] حول الدفاع الغربي ضد الاتحاد السوفياتي يقترح تواجدا أمريكيا مكثفا في المتوسط، وكان ينطوي على تحذير استراتيجي من مغبة تجاهل طموحات الشعوب المستعمرة في الحرية. غير أن بين "عدم التجاهل" و"التشجيع" هناك هامش.. وبالمقابل، كان الخطاب السوفياتي المناوئ بحزم للاستعمار يفتقر تماما للترجمة العملية.

وصلت الطائرة فوق دلتا النيل. برزت لي الأهرامات شاهدة على القوة الفرعونية، وعلى إحدى أعرق وأخصب الحضارات المعروفة.. في المرحلة "الثينيتية"، مع نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل المسيح، حكم أناس جاءوا من ليبيا، الشاهانو الذين كان أجدادهم، حسب المؤرخ هيرودوت، رحالة ذوي شعر أشقر وأعين زرقاء.. وهو ما يؤكد عراقة العلاقات التاريخية والاقتصادية بين مختلف شعوب شمال أفريقيا.

ينشر النيل على كل فروعه المنقطة بمدن وقرى خضراء، مربعات منسقة من المحاصيل على ضفتيه اللتين تمثلان تحديا لفقر أرض رسمت حدودا قاسية على الفلاحين. وإضافة إلى الجغرافيا، جاء التاريخ بحاجز آخر، يتمثل في الشركات القطنية والإقطاعيات الأرضية التي كانت تستغلهم وتزيد في بؤسهم. فمن كان يتحكم في قنوات المياه، من كان يتحكم في الصنبور، تحكم في السيادة. هناك علاقة جدلية بين الفرعونية السياسية والقهر الاقتصادي للفلاحين.

تعاظمت في نفسي الأحاسيس والمشاعر عندما حلقنا فوق القاهرة، بمناراتها وفلكها الملونة وبعظمة النيل الذي يشقها. هذه المدينة الروحية الكبيرة- التي تحولت إلى عاصمة سياسية- ستكون بالنسبة لي، كما لكثير من الآخرين، أرض لجوء. كانت فرحتنا لا توصف، تنبعث من

---

[1]- تم التوقيع على ميثاق الحلف الأطلسي يوم 4 أفريل 1949 من طرف 12 دولة منها فرنسا ، والذي كان يشمل المقاطعات الفرنسية في الجزائر . وكانت عملية إرساء قواعد جوية أمريكية في المغرب محل مفاوضات مستقلة مع فرنسا وتم الإمضاء عليه في جويلية 1951 .

[2]- باسم الأميرال وليام فيشتلر . تكلمت عنه الصحافة الغربية في ماي 1952 ، غير ان محتواه كان معروفا قبل ذلك التاريخ .

الإحساس بأننا أصبحنا في منأى عن قوة القمع، وأنه يمكننا أن نفيد، وأن نشارك!

كان هناك تواصل عاطفي قوي، إلى حد أنه لم يساورني أدنى شعور أنني وصلت إلى أرض أجنبية. وبالطبع، كان للمخيلة دور، كما كان هناك حس تاريخي قريب وبعيد في نفس الوقت. فإذا كانت الفسطاط، النواة الأولى للقاهرة، قد نشأت على يد عمرو بن العاص حوالي 650 م، فإن نشأة القاهرة جاءت على يد السلالة الفاطمية الشمال إفريقية. فبعد أن وحد المغرب، قام الخليفة الفاطمي المعز بالاستيلاء على مصر، وأسس في 970 بمبادرة من الجنرال جوهر، الصقلي الأصل، مدينة القاهرة، وضم الفسطاط[1] بضواحي مصر. وكان هو مؤسس جامع الأزهر، أهم جامعة في العالم الإسلامي، كانت متخصصة في توسيع المذهب الفاطمي. ففي الاختلاط بين السياسي والمقدس، تحول الفقه إلى إيديولوجية السلطة.

يسبح مطار القاهرة في نور شمس محمرّة على وشك المغيب.. لما نزلت من الطائرة انتابني إحساس بأنني أدخل في أتون نار حامية.. وفي نفس الوقت، كانت الفرحة، مما ضاعف الإحساس باللاواقع، كأنني- برغم المعطف الثقيل الذي كنت أرتديه- قد خرجت من قانون الجاذبية.. استقبلني ثلاثة رفاق، هم الشاذلي المكي، ممثل حزب الشعب في القاهرة منذ 1945[2]، ومحمد خيضر، النائب السابق للعاصمة[3]، وقاسم زيدون، طالب من وهران كان يحضر ليسانس الآداب بكلية دار العلوم [4].

ومن بين الشخصيات التي ستدخل الساحة في القاهرة في سياق الأحداث، كان زيدون أول من توفي في ظروف مأساوية، غداة أول نوفمبر 1954، يوم اندلاع الحرب التحريرية.

ولكننا الآن ما نزال في أول ماي 1952.. طريق الثورة انفتحت أمامنا، وستكون مليئة بالمكائد والشراك التي هي ضريبة حالتنا

---

[1]- هناك قريتان من آي -فراوسن (بلدية فورناسيونال المختلطة) تحملان منذ زمن غابر اسمي "القاهرة" و "مصر".

[2]- مسؤول في المنطقة القسنطينية ، كان قد نجا من القمع في ماي 45 .

[3]- سبق ان ذكرت في الفصل الثامن الأسباب التي جعلته يأخذ طريق القاهرة .

[4]- كان يتمتع بثقافة مزدوجة فرنسية وعربية كما سبق وتحصل على تكوين سياسي صلب في الجزائر من خلال العمل النضالي في حزب الشعب – الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية . واستفدنا من معرفته الجيدة للأوساط السياسية المصرية .

الإنسانية.. وستكون أيضا حبلى بآمال تحرك ثورة شعب يكافح من أجل استقلاله.

غدا سآخذ مكاني في مكتب المغرب ..

فـــــهــرس

IMPRIMERIE

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة الصناعي

نعرف اليوم أن الإيديولوجيا لا تكفي لتعبئة شعب أو نخبة ، فتجنيد الشعب الجزائري لم يكن نتاج إيديولوجية "حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديمقراطية"، بل لدوافع مباشرة ملحة وأكثر عمقا، دوافع عقلانية وأخرى لا عقلانية. وهي كلها عوامل لا يجب أن يغفلها البحث التاريخي العلمي

(...) وبفضل تقنيات جد متطورة في الدعاية والترويج، كانت الأحزاب تشهر أساطيرها الخاصة لتبرير انتهاجها طريق العمل الشرعي، وتحاول إدماج الحركة الشعبية الواسعة في نهجها. ولم يكن بعيدا الوقت الذي يبرر فيه "حزب الشعب - الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية" كل قراراته- بما فيها الاضطهاد السياسي- باسم المصلحة العليا للحركة الاستقلالية ضد تواطوء "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري"، وتعصب "العلماء المسلمين"، ومحاولات الاحتواء من طرف "الحزب الشيوعي الجزائري".

تلكم اعتبارات أولية ، تفسر- ولو جزئيا - ما سمي ب "المؤامرة البربرية" و"المؤامرة الكولونيالية". وهي أزمات حادة فككت "حزب الشعب - الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية" في وقت كانت فيه الأمة الجزائرية على وشك الإدماج، وعلى أهبة خوض الكفاح التحرري. إنها تعطي عناصر تفسيرية وليست تبريريه لما حدث من أزمة هوية زعزعت الحركة الوطنية في عام1949، وما تزال إلى يومنا هذا تنغص طمأنينة المجتمع الجزائري.

isbn : 9961 - 892 - 42 - 9

نعرف اليوم أن الإيديولوجيا لا تكفي لتعبئة شعب أو نخبة ، فتجنيد الشعب الجزائري لم يكن نتاج إيديولوجية «حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديمقراطية»، بل لدوافع مباشرة ملحة وأكثر عمقا، دوافع عقلانية وأخرى لا عقلانية. وهي كلها عوامل لا يجب أن يغفلها البحث التاريخي العلمي.

(...) وبفضل تقنيات جد متطورة في الدعاية والترويج، كانت الأحزاب تشهر أساطيرها الخاصة لتبرير انتهاجها طريق العمل الشرعي، وتحاول إدماج الحركة الشعبية الواسعة في نهجها. ولم يكن بعيدا الوقت الذي يبرر فيه «حزب الشعب - الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية» كل قراراته - بما فيها الاضطهاد السياسي- باسم المصلحة العليا للحركة الاستقلالية ضد تواطوء «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، وتعصب «العلماء المسلمين»، ومحاولات الاحتواء من طرف «الحزب الشيوعي الجزائري».

تلكم اعتبارات أولية ، تفسر- ولو جزئيا - ما سمي ب "المؤامرة البربرية" و"المؤامرة الكولونيالية". وهي أزمات حادة فككت «حزب الشعب - الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» في وقت كانت فيه الأمة الجزائرية على وشك الإدماج، وعلى أهبة خوض الكفاح التحرري. إنها تعطي عناصر تفسيرية وليست تبريرية لما حدث من أزمة هوية زعزعت الحركة الوطنية في عام1949، وما تزال إلى يومنا هذا تنغص طمأنينة المجتمع الجزائري.

حسين آيت أحمد